يوسف العش

تاريخ عصر الخلافة العباسية



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ عصر

الخلافة العباسية

تاريخ عصر
الخلافة العباسية

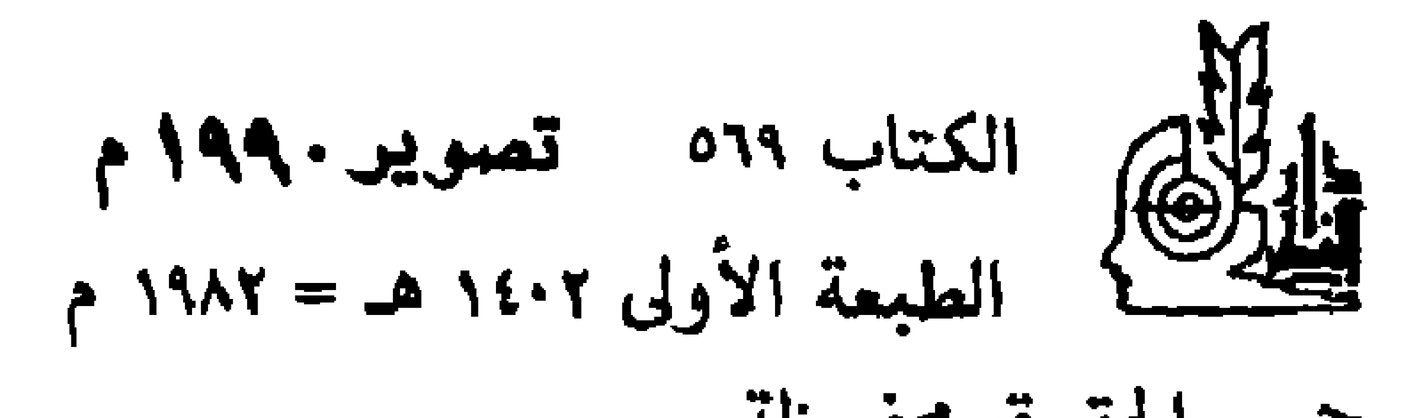
الدكتور
يوسف العش

راجعه ونقحه الدكتور
محمد أبو الفرج العش

DL

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية



الكتاب ٥٦٩ تصوير ١٩٩٠ م
الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - برقياً : فكر
س .ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٢٩٧١٧ ، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد خطفت يد المنون عالماً مفكراً قبل أن يعطي نتاج أعماله وتحرّياته وثمرات تفكيره ، ذلك هو المرحوم الدكتور يوسف العش . لم ينشر الفقيد إلا جزءاً يسيراً من أعماله العلمية . وفي حدّ علمي أنه جمع معلومات كثيرة من بطون الكتب القديمة ، صنّفها وأعدّها لتكون عناصر أبحاثه ؛ ولكن للأسف قضى قبل أن تخرج هذه الأبحاث إلى النور ؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

كان الفقيد ـ رحمه الله ـ ألقى محاضرات في تاريخ العهد العباسي على طلاب السنة الثالثة من كلية الشريعة . يبدو أن أحد طلابه جمع هذه المحاضرات وطبعها دون تهذيب ولا تنقيح ولا تصحيح ودون أن يطلع عليها المرحوم .

لقد سجّل الطالب ما سمعه يُلقى بسرعة ، فكان هناك تحريف وتصحيف كبير . جعل الطالب الكلام متصلاً ، فلا عناوين فرعية ، ولا فقرات ، حتى ولا نقط ، ولا فواصل بين الجمل أحياناً . وأتى الضارب على الآلة الكاتبة فأنقص وصحّف ، فأتى العمل في غاية من الغلط والتشويش .

بالرغم مما ذكرت آنفاً فإن المعلومات التي أوردها الفقيد ، والطريقة التي عرض بها الموضوع ، والتأملات التي تتجلى من خلال السطور ، وتحليل

المواقف الدقيقة . . . كل ذلك يدل على أصالة في التفكير عند الفقيد الراحل ، وهو الذي حفزني على قبول هذه المهمة .

رغبت أسرة الفقيد في أن تنشر هذه المحاضرات في هذه السنة بعد مراجعتها ، فعهدت إليّ بالأمر . عندما نظرت إليها ، وجدت أنه من غير الممكن أن تتمّ هذه المراجعة في خلال هذه السنة الدراسية ، لأن هذا الأمر يتطلب تأنّيا ودقّة حرصاً على اسم الفقيد العلمي . ولكن يبدو أن هناك دواعي اضطرارية تتطلب إنجاز هذا العمل في هذه السنة ؛ فاضطررت أن أقبل هذه المهمة ، وكانت في غاية الصعوبة ، لأن إنشاء البحث من جديد أسهل من تصحيحه وتنقيحه .

بالرغم من الجهود التي بذلتها في هذا السبيل فقد مرّت علي خطيئات ، تلافيت بعضها في جدول الخطأ والصواب . ولا شكّ أني سأجد كثيراً غيرها في المراجعات الأخرى . ومع ذلك حاولت أن أرجع دائماً إلى أصول النصوص المقتطفة من المراجع ، ليكون التصحيح مطابقاً لها ، واجتهدت في أن أحافظ على أسلوب المرحوم وعلى ترتيبه ، واكتفيت بتعليقات طفيفة في الهوامش تكمل بعض النقص .

عُنيت شيئاً ما بإخراج الكتاب ، فوضعت عناوين فرعية وعناوين ثانوية . وضعت أسماء الأعلام بحرف أسود تمييزاً لها ، ووضعت خطوطاً تحت المصطلحات أو النقاط الهامة . أضفت إلى الكتاب فهارس : الأعلام ، المدن ، المصطلحات ، بمساعدة الطالب السيد محمد سميح دعدوش . وألحقت به ثبتاً بالمراجع وجدولاً بالخطأ والصواب . جمّلت الكتاب بشيء من الصور الموضّحة وبمصوّر يبين امتداد العالم العربي الإسلامي في العهد العباسي .

يجب أن أعترف بفضل الإخوان الزملاء الذين يسّروا لي سبيل هذه المراجعة ، وهم أولاً صاحب المطبعة ، الذي صبر على تدقيقي ، ومدير المعهد الفرنسي السيد أندريه ريمون ومعاونوه ، ومدير المكتبة الظاهرية السيد الدكتور عزة حسن ومعاونوه الذين ساعدوني في تهيئة المراجع ؛ والسيد الأستاذ محمد الخولي الذي هيأ الخريطة ورسم آلات الجراحة للزهراوي

وأخيراً أسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يتغمد الفقيد بالرحمة ، وأرجو أن أكون قد أسهمت إلى حدّ ما في إبراز أثر من آثاره ، وآمل من الزملاء الكرام إرشادي إلى بعض النقاط التي كان يجب أن توضّح بشكل أفضل (على ألا تخرج عن نطاق التدقيق والمراجعة) وإلى الأغلاط التي لم أنتبه إليها أو وقعت أنا فيها . والله من وراء القصد .

٢ / ١٢ / ١٣٨٧ هـ ـ ٢ / ٣ / ١٩٦٨ م

د . محمد أبو الفرج العش



مصادر تاريخ العهد العباسي

إن مصادر العهد العباسي كثيرة جداً ومتنوعة وغنية بالمعلومات . منها ما هو تاريخي بحت ، ومنها ما هو جغرافي أو أدبي أو ديني تتضمن كثيراً من المعلومات التاريخية الهامة ، اخترنا منها الهام .

نرتب هذه المصادر حسب تسلسل الحروف الهجائية بصرف النظر عن أي تصنيف حتى أننا ندخل ضمن هذا الترتيب المراجع الأجنبية المعرّبة ونترك المراجع غير المعربة إلى الأخير .

وضعنا إلى جانب المؤرخ القديم تاريخ الوفاة إذا كان معروفاً

☆ ☆ ☆

ابن أبي أصيبعة (٦٦٨هـ) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء .

ابن الأثير (٦٣٠هـ) : الكامل في التاريخ .

ابن تغري بردي (أبو المحاسن) (٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة .

ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : المنتظم في تاريخ الملوك (الأمم)

ابن خلدون (٨٠٦هـ) : المقدمة ـ المطبعة الشرفية ـ مصر ١٣٢٧هـ

ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر .

ابن خرداذبة (النصف الأول من القرن ٣ هـ) : المسالك والممالك .

ابن خلكان (٦٨١ هـ) : وفيات الأعيان .

ابن الطقطقى (٧١٠ هـ) : كتاب الفخري في الآداب السلطانية - مصر ١٣١٧هـ .

ابن عذاري (نحو ٦٩٥هـ) : البيان المُغرب في دول المشرق والمغرب .

ابن عساكر (٥٧١) : تاريخ دمشق (تهذيب) .

ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) : عيون الأخبار .

ابن القفطي (٦٤٦ هـ) : إخبار العلماء بأخبار الحكماء - الطبعة المصرية

ابن كثير (٧٥٠ هـ) : البداية والنهاية .

ابن النديم (٣٨٣ هـ) : الفهرست .

أبو الفدا (٧٣٢ هـ) : المختصر في أخبار البشر .

أبو الفدا : تقويم البلدان .

أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ) : الأغاني .

أبو القاسم خلف الزهراوي (٥٠٠ هـ) : التصريف لمن عجز عن التأليف (مخطوطة في متحف دمشق)

أبو يوسف (١٨٢ هـ) : كتاب الخراج .

الإدريسي (الشريف) (٥٦٠ هـ) : نزهة المشتاق .

الإدريسي (الشريف) : صورة الأرض .

أرنولد (توماس) : الدعوة إلى الإسلام (تعريب الدكتور حسن إبراهيم حسن)

الاصطخري (٣٤٦ هـ) : مسالك الممالك .

أمير علي (سيد) : مختصر تاريخ العرب .

أمين (أحمد) : فجر الإسلام وضحى الإسلام .

بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية (معرّب) .

بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية (معرّب) .

البغدادي (الخطيب) (٤٢٦ هـ) : تاريخ بغداد .

البلاذري (٢٧٩ هـ) : فتوح البلدان .

البلاذري : أنساب الأشراف .

البلوي (خالد) : تاج المَفْرِق في تحلية علماء المشرق (مخطوطة المكتبة الظاهرية - جغرافية رقم ١٠٨) .

البيروني (٤٤٠ هـ) : الآثار الباقية .

البيهقي (٥٧٠ هـ) : المحاسن والمساوئ .

حاجي خليفة (١٠٦٧ هـ) : كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون

حتّي (فيليب) : تاريخ العرب (المطول) .

د . حسن (حسن إبراهيم) : تاريخ الإسلام .

د . الدوري (عبد العزيز) : تاريخ العراق الاقتصادي .

د . الدوري (عبد العزيز) : العصر العباسي الأول .

د . الدوري (عبد العزيز) : دراسات في العصور العباسية المتأخرة .

الدينوري (أبو حنيفة) (٢٨٢هـ) : الأخبار الطوال .

الذهبي (شمس الدين) (٧٤٨ هـ) : تاريخ الإسلام .

الرفاعي (الدكتور محمد فريد) : عصر المأمون .

زمباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة (تعريب الدكتور زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود ورفاقهم) القاهرة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ .

السيوطي (٩١١ هـ) : تاريخ الخلفاء .

شاخت (يوسف) : تاريخ الأندلس .

الطبري (أبو جعفر) (٣١٠ هـ) : تاريخ الأمم (الرسل) والملوك ـ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة ١٩٣٩ م (اعتمد عليها المؤلف) .

الطبري (أبو جعفر) : تاريخ الأمم والملوك ـ المطبعة الحسينية المصرية (اعتمد عليها المنقّح) .

الغزولي (علي البهائي) (٨١٥ هـ) : مطالع البدور في منازل السرور .

قدامة بن جعفر (٢٢٧ هـ) : كتاب الخراج وصنعة الكتابة .

القرطبي (عُريب بن سعد) (٣٦٦ هـ) : صلة تاريخ الطبري .

القفطي (بعض المؤرخين يطلق عليه ابن القفطي) : إخبار العلماء بأخبار الحكماء .

القلقشندي (أبو العباس أحمد) (٨٢١ هـ) : صبح الأعشى .

كريمر : الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية .

الماوردي (٢٩٨هـ) : كتاب الأحكام السلطانية .

مطبعة الوطن بمصر ١٢٩٨ هـ

متز (آدم) : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (تعريب أبو ريدة) - القاهرة ١٩٤٧ - ١٩٤٨ م .

المسعودي (٣٤٦ هـ) : مروج الذهب .

المسعودي : التنبيه والإشراف .

مصطفى (شاكر) : في التاريخ العباسي .

المقدسي (مطهّر بن طاهر) (٣٥٥ هـ) : البدء والتاريخ .

المقدسي (محمد بن أحمد) (٣٨٧ هـ) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم .

المقريزي (٨٤٥ هـ) : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار .

المقريزي (٨٤٥ هـ) : كتاب السلوك .

المقريزي (٨٤٥ هـ) : اتعاظ الحنفا .

ناصر خسرو (٤٨١) : سفر نامة (ترجمه إلى الفرنسية عن الفارسية Schefer)

ولهاوزن : الدولة العربية وسقوطها (تعريب الدكتور يوسف العش)

ياقوت الحموي (٦٢٦ هـ) : إرشاد الأريب في معرفة الأديب .

ياقوت الحموي : معجم البلدان .

اليعقوبي (٢٩٢ هـ) : تاريخ اليعقوبي .

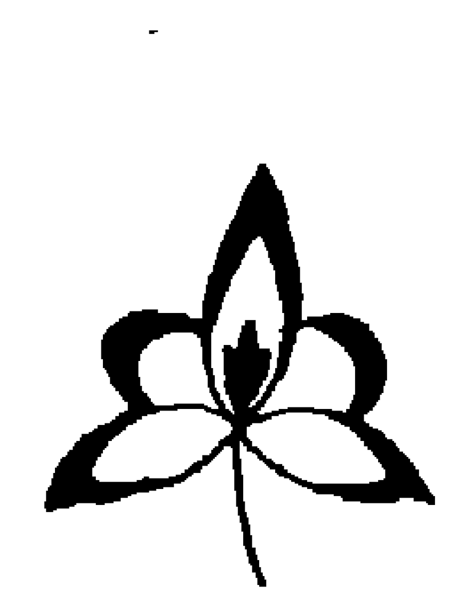
اليعقوبي (٢٩٢ هـ) : كتاب البلدان .

Creswel : Muslim Architecture

Encyclopedie de L ' Islam .

Wells : Esquisse de L' Histoire Universelle (Traduction Francaise)

Payot , Paris . 1948



بسْمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيم

الثورة العبّاسيّة وسقوط بني أُميّة

نظرة في الانقلاب العباسي

في عام ١٣٢ للهجرة سقط حكم بني أمية سقوطاً نهائيا ، واعتلى الخلافة بنو العباس ، وكان في هذا ثورة هائلة وانقلاب عظيم حاول المؤرخون أن يفسروهما ، فاتجهت الآراء أول الأمر إلى أن هذا الانقلاب إنما هو ثورة من الفرس على الحكم العربي ، وأخذ بهذا الرأي عدد من المؤرخين ، ودرّس في المدارس الثانوية ، وانطبع في أذهان الناس ؛ لكن بعض المستشرقين في أوائل هذا القرن وعلى رأسهم ولهاوزن في كتابه « الدولة العربية » انتبهوا إلى أن هذا القول ليس صحيحا ، فالثورة ليست من الفرس على العرب ، وإنما هي ثورة على بني أمية خاصة ، وهي تهدف إلى قلب الحكم الأموي إلى حكم عباسي ، وتبع المستشرقين في ذلك بعض المؤرخين المحدثين من العرب ، على أن من قال بهذا الرأي توقف أمام صعوبات فيا يتعلق بدحض القول بأن الثورة فارسية ، فأبو مسلم الذي قاد الثورة فارسي ، ومن قبله خدّاش ، وموطن الثورة فارسي أيضاً هو خراسان . وهنالك شيء أهمّ من ذلك ، وهو أن إبراهيم بن محمد بن علي صاحب الدعوة العباسية أوصى أبا مسلم وصية قال فيها ـ على ما رويت لنا في كتب التاريخ ـ « وإن استطعت أن لا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل » . هذه الصعوبات الثلاث حيّرت المؤرخين ،

ولا سيا منها الصعوبة الثالثة ففيها معنى واضح في وجوب[1] محاربة العرب وقتلهم .

انتقال الدعوة من آل علي إلى آل العباس

ر نستطيع بعد التفكير وإعمال الرأي أن نفسر الأمور تفسيراً واضحا ، وأن نجلو الحقيقة جلاء بيّنا ؛ فلندع المستشرقين ، ولندع من تبعهم من مؤرخي العرب المحدثين ، ولنفكر تفكيراً جديداً , علينا أن نتصور حقيقة ثورة بني العباس من حوادثها المختلفة ومن سيرها العام . ولنقدم لذلك بمقدمة صغيرة عن انتقال الادعاء بالخلافة من الهاشمية (يعني من أبي هاشم بن محمد بن الحنيفة الذي كان صاحب الدعوة وإمامها عند الكيسانية ـ والهاشمية) إلى العباسيين أي (محمد بن علي بن عبد الله بن العباس) وذلك عام ٩٨ هـ . يقال في هذا الصدد إن أبا هاشم وجد محمد بن علي على غاية من العلم والفهم والإدراك ، ولم يكن له خلف ، فأوصى إليه بالأمر من بعده ، فانتقلت الدعوة منه إليه . ويورد بعض المؤرخين الشك في هذا الانتقال ، لكنّا لا نرى ما يوجب الشك فيه ، فأبو هاشم لا خلف له ، ومن الطبيعي أن يجد خلفاً له في أحد أبناء عمه .

بدء الحركة

هذا العام ٩٨ للهجرة هو عام ذو أهمية كبرى في تاريخ الدولة الأموية وفي تكوّن نواة الدولة العباسية . وبالرغم من أن محمد بن علي كان على غاية من الذكاء والمعرفة والكفاءة ، فإنا لا نجد له مع الأسف ترجمة واضحة كافية ، تفصح عن هذا المقدار من الذكاء والكفاءة التي وصفناها ، وماذا كان

---

(١) سيرد بعد قليل توضيح و تعديل لهذه النقطة ـ المنقح .

يستطيع رجل ذكي قديرأن يعمل في هذا العام ؟ لنتصور ماذا كان بإمكانه أن يفعل .

إن الوضع في الدولة الأموية في ذلك العصر كان يتعثر . وقد حدث في جسم الدولة ثغرات كثيرة . إن من يتأمل ويُعمل فكره فيها تتضح له اتضاحاً بيّنا . قد ألّبت الدولة الأموية على نفسها أعداء عديدين نعدّ منهم بصفة خاصة أربع طوائف :

١) قد حاربوا المهالبة وتتبعوهم ، ولا سيا بعد هذا العصر بقليل ، فهم إذن قد جعلوا لأنفسهم أعداء من اليمانيين (فالمهالبة كانوا أزديين يمانيين) .

٢) الموالي ، فقد كان هؤلاء يدفعون من الضرائب مقداراً كبيراً ، ولا يعاملون بالتساوي مع العرب ، وكان عليهم ضغط من كل جهة ، فكانوا أعداء الدولة بطبيعة الأمر .

٣) وكان إلى جانب هاتين الطائفتين عدو قوي للأمويين هو الشيعة ، فالشيعة العلوية ـ كما نعرف ـ كانت لا تزال تقوم بين حين وآخر بثورات وكانت ثوراتها تخمد في كل مرة ، فتزداد الكراهية وتشتد العداوة .

٤) أما الطائفة الرابعة فإنها تكره الأمويين بل تكره الإسلام وهي مجموع الفئات الفارسية التي لم تؤمن إيماناً تاما ، بل بقي في نفسها شيء من الدين القديم كالراوندية والخرّمية والمانوية .

ويظهر ذلك العداء كله بشكل واضح بعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز عام ١٠١ للهجرة ، فيظهر بصفة واضحة لمحمد بن علي مخطط العمل ، ومن هي الفئات التي يجب عليه أن يتحالف معها . إنها بلا شك من هؤلاء الناقمين من الحكم الأموي ، إنهم هم أعداء الحكم الأموي ، وليس

عليه إلا أن يؤلبهم حوله ، وأن يتخذهم واسطة فيبلغ هدفه ، وهذا أمر طبيعي بديهي لمن يعمل بالسياسة ولمن يتفهم أحوال العصر .

الأقطار المتهيئة لقبول الدعوة

والآن : لننظر في خريطة الدولة الأموية ، ولنر مكان الضعف في هذه الخارطة بالنسبة للأمويين ، إن هذه الخارطة تدلنا على منطقة بعيدة عن مركز الدولة الأموية هي **خراسان** ، وعلى منطقة في وسط الدولة الأموية هي منطقة **الكوفة** المتشيعة وما حولها ، وعلى منطقة ثالثة هي **الحجاز** . إن هذه البلاد مناطق ضعف بالنسبة للدولة الأموية ، لا ريب في ذلك ؛ ولكن أيّها أسهل منالاً لأعداء تلك الدولة ؟ ـ إن الحجاز كان مركز الدعوة لآل عليّ ، فقد كان أبناء فاطمة يقيمون في المدينة فلا يمكن إذاً لمحمد بن علي العباسي أن يتخذ المدينة مقراً له ، فمنافسوه فيها أقوياء لا يستطيع الوقوف إلى جانبهم ولعلهم يعطلون حركته . أما الكوفة فلا ريب أنها مكان ضعف ، لكنها مراقبة كل المراقبة من قبل العمال الأمويين وحركات الثورة فيها تخمد ، ورجالها يضطهدون . من الممكن أن تقوم فيها دعوة ، لكن ينبغي أن تكون سرية كل السرية وأن لا تتجاوز عدداً كبيراً من الناس وإلا عرفت فقمعت ؛ وعلى ذلك فلا يستقيم فيها دعوة عامة . أضف إلى هذا أن العباسيين يعلمون حق العلم ما هي الكوفة وكيف وقع في حبائل الدعوة فيها عدد كبير من أبناء فاطمة قتلوا ، وذهب دمهم هدرا . ومحمد بن علي ذكي لا يقع في الفخ مرة أخرى ؛ فكان من الطبيعي أن يتجه نظره إلى خراسان . ماذا كان في خراسان في ذلك العصر ؟ كان في خراسان تشاحن بين العرب (بين اليمانيين والقيسيين أو المضريين) ، تكاد لا تنقضي سنة إلا حصلت فيها منازعات ومناوشات . خراسان بلد مضطرب لأنه

قريب أيضاً مما وراء النهر ، والأتراك يشنّون غزواتهم على الدولة الإسلامية من حين إلى آخر . وفي خراسان عدد كبير من الفرس والموالي مضطهدون يبغون الحصول على حقهم ؛ وخراسان آخر الأمر بعيدة عن الحكم الأموي ومتطرفة لا تصل إليها يد بني أمية إلا بعد جهد جهيد ، فمن البديهي إذاً أن يأخذ محمد بن علي ـ وهو ذكي ـ بفكرة صحيحة وهي : أن تقوم الحركة الأولى التي تصدر ضد الأمويين في خراسان بالذات .

وسائل الدعوة

إن محمد بن علي لم يغفل عن الكوفة بالمقدار الذي تتيحه له الدعاية فيها ، فأسس فيها مركزاً للدعوة تنطلق منها خفية إلى خراسان ، وأما هو فكان مقيما بالحُميمة ، وهو بلد مناسب له كل المناسبة . فالحميمة تقع على طريق الحج ، وليست قريبة من المدينة ، فهو إذاً بعيد عن نظر آل عليّ وبعيد عن نظر الخلفاء ، وهو في مكان يؤهله أن يتصل بدعاته ، إذ يتذرع هؤلاء بالحج ، فيمرون بهذه الطريقة من مقره ويجتمعون به . فهو من الناحية الجغرافية يعتمد على خطة مرتبة دقيقة ذكية .

أضاف إلى كل ذلك وسيلة حسنة من وسائل الاتصال بأن جعل التجار والصناع حلفاءه ، يتجولون في المملكة الإسلامية ويتصلون بمن يشاء من الناس ، فيستطيعون أن ينقلوا الدعوة وأن ينقلوا أوامرها .

والتجار معظمهم من الفرس ، أما العرب فلم يكونوا يتاجرون كثيراً . تنظيم الدعوة إذاً لم يأت عفوا ، ولم يرد محمد بن علي أن يفضل طائفة على طائفة أخرى ، وأن يتحالف مع الفرس في خراسان ومع تجار الفرس ، بل دعاه إلى ذلك الاتجاه ما كانت عليه طبيعة المملكة الإسلامية .

مراحل الدعوة

ننتقل الآن إلى عرض مراحل الدعوة والحوادث الهامة التي حدثت فيها إلى أن تمت الخلافة لبني العباس . يرجع أول ظهور الدعوة إلى عام ١٠٣ للهجرة ففي هذا العام وجّه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس اثني عشر نقيباً إلى خراسان ليقوموا بالدعوة فيها . ومن هؤلاء النقباء ثمانية من العرب ، وأربعة من غير العرب ، يرتبط بكل نقيب عدد من الدعاة يعمل هؤلاء الدعاة على نشر الدعوة . دون أن يبينوا من هو الذي سيكون إماما ، وكانوا يحيطون عملهم بالسرية التامة ، ويتصلون بالعناصر المعادية لبني أمية ، ويلهبون حماستها ؛ لكن عمال بني أمية في خراسان استطاعوا أن يضعوا أيديهم على بعض الدعاة فنكّلوا بهم شرّ تنكيل .

وفي عام ١٠٩ هـ أخذت الدعوة شكلاً جديداً ، وذلك حين أرسل محمد بن علي رجلاً قويا متفهما للمحيط الخراساني اسمه خدّاش . نشط هذا الرجل في نشر الفكرة ، وقام بواسع العمل ، وانتعشت بفضله الدعوة العباسية . لكنه أخذ يتصل بأصحاب مبادئ متطرفة كالخرَّمية . (الخرمية[1] مذهب إباحي) . امتعض الشيعة المعتدلون منه ، وكتبوا إلى محمد بن علي بالأمر ، فاستنكر هذا موقف خدّاش . وفي غضون ذلك استطاع حكام بني أمية أن يلقوا القبض على خدّاش وقتلوه ، وذلك عام ١١٨ للهجرة .

توقفت حركة الدعوة قليلاً حتى عام ١٢٥ . وفيه توفي محمد بن علي ، وانتقل الأمر منه إلى ابنه إبراهيم . منذ ذلك التاريخ أخذت الدعوة شكلاً جديدا ، فإبراهيم عمل على تنظيمها وتقويتها ، وأشرف عليها إشرافاً دقيقا .

---

(١) سيرد ذكرها .

لقد أعطى التنظيم هذه الحركة صفتين جديدتين : أولاً : ذكر لدعاته وسمح لهم أن يذكروا بأن البيعة **للرضا من أهل البيت** ، أي لمن يرضى به الناقمون من أهل بيت الرسول عليه السلام ؛ وهو بيت يضم العباسيين والعلويين . وضع إبراهيم إلى جانب ذلك فكرة تثير حماس الشيعة ، فقال بأن العمل سيتم للثأر **لشهداء أهل البيت** . وهو بهذا وضع فكرة أو هدفاً لتلك البيعة ، هدفاً يثير روح الانتقام عند التابعين .

أعطى إبراهيم الدعوة فكرة جديدة في انتخابه **أبا مسلم الخراساني** قائداً عاماً لها في خراسان ، على أنه عهد إليه بأن يستشير **سليمان بن كثير الخزاعي** الذي قام على الدعوة بعد خدّاش ، وطلب إبراهيم من أبي مسلم أن يرجع إلى **سليمان بن كثير** في رأيه وألا يعمل إلا بمشورته . ويسميه الشيخ .

أبو مسلم كان في ذلك الوقت شاباً ؛ إذاً أراد إبراهيم أن يطعم الدعوة بالشباب فأرسل أبا مسلم . وأراد أن يعضدها بالشيخ ، فعهد إلى أبي مسلم بالرجوع إلى سليمان . كان سليمان بن كثير حذراً لم يسلم لأبي مسلم بالأمر حين وصل إلى خراسان ، وقال إنه شاب يُخشى من قيامه على الأمر ، ولكنّ أبا مسلم أظهر كفاية ومقدرة . فانسحب مع أصحابه من مرو . وبذا يجد سليمان وغيره من الشيعة أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً كبيراً دون أبي مسلم ، حتى إذا رجع هذا إلى خراسان استتبت له القيادة ، وتمّ له الأمر فيها ، وأصبح الزعيم الأوحد . وكان ذلك عام ١٢٨ للهجرة .

ميثاق الدعوة

في هذا العام أعلن أبو مسلم صورة الدعوة الآتية :

« أبايعكم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ، والطاعة للرضـ

من أهل بيت رسول الله ﷺ ، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي إلى بيت الله ، وعلى ألا تسألوا رزقا ولا طمعا حتى يبدأكم به ولاتكم ، وإن كان عدو أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم » (الطبري ٦ / ٤٥ ـ ٤٦) .

وظاهر من هذا الميثاق أن الطاعة للولاة واجبة دون سؤال أو استفهام ، ولا ريب أن شكل هذه الدعوة وشكل هذا الميثاق يتفق مع العقلية الفارسية أكثر مما يتفق مع العقلية العربية ، فالفرس معتادون على الطاعة لولاتهم دون سؤال أو استيضاح .

انفجار الثورة

شرع أبو مسلم في تحقيق غايته . فأوقع بين العرب ، وكانت قبائل العرب مختلفة تتقاتل في خراسان ، حتى إذا شعرت بأن أبا مسلم يحاول أن يكون له الأمر في خراسان استطاعت أن تضم شملها : وهنا تبدو مقدرة أبي مسلم فيفرّق بينها من جديد ، وذلك بإبراز أسباب خلافها ، فتعود إلى التنازع والتخاصم ، وقد اضطرت في آخر الأمر إلى أن ترجع إليه ليفصل بينها ويستميل صديقاً محالفاً له منها . وقد وجد أبو مسلم أن صديقه منها هم اليمانيون ، فأقرّ لهم بالحق في خلافهم ، وخرج المضريون وعليهم الكآبة والمذلة . ثم عمد أبو مسلم إلى الاستيلاء على خراسان ، فتمّ له ذلك ، وتغلّب على نصر بن سيار الوالي الأموي في ذلك العهد .

بعد أن تم له الاستيلاء على خراسان تغيرت الأمور وأتت على شكل جديد . لا يذكر المؤرخون ذلك بإشارة خاصة بل يدرجونه بالحوادث ، لكن ينبغي أن نبين قيمة هذا التغيير ، فإبراهيم بن محمد غيّر القيادة ، فعهد بقيادة الجيش الذي اتجه إلى العراق إلى قحطبة ، وقحطبة عربي طائي . إن

هذا التغيير يُظهر لنا طريقة إبراهيم في إدارة الأمور وذكاءه فيها ، فهو قد عهد لخراساني (أبي مسلم) في قيادة الدعوة في خراسان ، وعهد إلى عربي في قيادة الحرب في العراق ، ثم عهد بعد ذلك ـ كما سنرى ـ إلى عباسي (وهو عبد الله بن علي) في قيادة الحرب في الشام . وتلك خطة واضحة ظاهرة وإن لم يشر إليها المؤرخون . رضي أبو مسلم بتعيين قحطبة وسلّم له به ، فتقدم قحطبة منتصراً على ابن هبيرة والي الأمويين على العراق حتى قُتل في إحدى المواقع ، بعد أن أيّد قوة بني العباس ، وأظهر أنهم لا يغلبون . واستمر ابنه الحسن في الفتوح حتى دخل الكوفة .

أما إبراهيم فقد ألقي القبض عليه بأمر من مروان ثم قتل . يقال إن إبراهيم عهد بالأمر إلى أخيه **أبي العباس** ، فسار أبو العباس مع إخوته وأعمامه إلى الكوفة . وهناك أخذت البيعة للعباسيين بالرغم من معارضة أبي سَلَمة الخَلال الذي كان قائماً على الدعوة في الكوفة .

ووجّه أبو العباس (الذي دعا نفسه بالسفاح) عمه عبد الله بن علي إلى حرب بني أمية في ديارهم بالشام . فسار هذا مظفراً ، وطرد مروان بن محمد من الشام في موقعة الزاب . فرّ مروان ملاحقاً إلى مصر ، ثم وقع في الأسر ببوصير وقتل . وتتبع العباسيون الأمويين في كل مكان وأعملوا فيهم السيف قوة أو غدراً حتى قضوا عليهم ، إلا فرداً منهم هرب إلى الأندلس فأقام الدولة الأموية فيها .

هذه هي الوقائع المعروفة في كيفية نشر الدعوة وفي الانتصار على الأمويين حرباً .

☆ ☆ ☆

مناقشة لون الثورة العباسية

ولنعد الآن إلى فكرتنا السابقة في البحث عما ذكر من تغلب الفرس على العرب في هذا الأمر ، وعن كونهم هم الموجّهين لها . في الواقع إنا لا نجد شيئاً من ذلك ثابتاً ، لأن المدبر الأول للأمر إنما هم بنو العباس : محمد بن علي أولا ، وإبراهيم بن محمد ثانياً ، وفي آخر الأمر أبو العباس السفاح . وكانت لهم طريقتهم التي ذكرناها ، فهم الذين يولّون ولاتهم وهم الذين يضعون شكل الدعوة ، ويعينون القواد ، وكانت الشيعة تطيعهم في ذلك ، ثم إن بين النقباء الذين أرسلوهم للدعوة ثمانية من العرب (ولهاوزن ص / ٤٠٧) أما أصدقاء الدعوة فهم أعداء بني أمية . ومن أعداء بني أمية اليمانيون وهم عرب . وسنرى أن محمد بن علي يخصّهم بالذكر فيعدّهم حلفاء له . ويتخذهم أبو مسلم الخراساني أصدقاء له . أما القواد فهم فرس في خراسان ، عرب في العراق ، عباسيون في الشام ، وذلك طبيعي : فالعنصر الفارسي في خراسان أكبر عدداً من العنصر العربي . وفي العراق العنصر الفارسي قليل العدد ، أما في الشام فلم يقتل الخليفة الأموي ولم يحاربه إلا أصحاب الدعوة أنفسهم وهم قواد الحركة . كل ذلك واضح جلي لا يسعنا معه أن نقول إن عنصر الدعوة العباسية عنصر فارسي ؛ وإن الفرس هم الذين حرّكوا تلك الدعوة وقاموا بها دون غيرهم .

هناك وصية إبراهيم بن محمد لأبي مسلم وهي تخالف ما اتجهنا إليه في نص من نصوصها فما شأنها ؟ لندرس تلك الوصية أولاً وهذا نصها :

« يا عبد الرحمن[1] إنك رجل منّا أهل البيت ، فاحتفظ وصيتي ، وانظر هذا الحي من اليمن ، فأكرمهم وحِلّ بين أظهرهم ، فإن الله لايتمّ هذا

---

(١) عبد الرحمن بن مسلم هو اسم أبي مسلم الخراساني ـ المنقح .

الأمر إلا بهم ، وانظر هذا الحي من ربيعة ، فاتهمهم في أمرهم ، وانظر هذا الحي من مضر فإنهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت في أمره ، ومن كان في أمره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء . وإن استطعت ألا تدع بخراسان **لساناً عربياً** فافعل . فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ، ولا تخالف هذا الشيخ « يعني سليمان بن كثير الخزاعي » ولا تَعْصِه وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني » . (الطبري ٦ / ١٤) .

هذه الوصية واضحة في أن إبراهيم بن محمد يودّ أن يحسن أبو مسلم معاملة أهل اليمن ، وهم عرب لا شك في ذلك ، ونصّها واضح أيضاً في عبارته « وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل » إنه واضح في الحضّ على قتل العرب ، ومن بينهم اليمانيون . وفي هذين النصين تناقض ظاهر لا ريب في ذلك ، وليس من المعقول أن يحضّ إبراهيم على العناية ببعض العرب وعلى قتل كل عربي في الوقت نفسه ، لا سيا وأن بين الدعاة كما ذكرنا عدداً من العرب ، وبين القواد أيضاً عدداً من العرب . فما هو شأن هذا التناقض ؟ .

لقد نظر المؤرخون فيه وحاولوا أن يعلّلوه . فقال بعضهم : إن كلمة (عربياً) هي (مضريا) في الأصل وبذلك يستقيم المعنى ، ولا يقع التناقض . إلاّ أن هذا التفسير لا يمكن الأخذ به ، فليس هناك لسان مضري ولسان غير مضري فقد توحدت الألسنة منذ عهد بعيد . وقال بعض المؤرخين ينبغي أن نستبعد هذا النص الأخير ، ونحذفه من العبارة العامة ، لأنه مخالف له ؛ بل قال بعضهم يجب أن لا نثق بهذه الوصية التي يناقض بعضها بعضا .

ما هو موقفنا من ذلك ؟

علينـا أن نرجع إلى نص هـذه الوصيـة ، ولنحـاول أن نزيل تنـاقضهـا بصورة عملية عقليـة بيِّنـة ، إن نص العبـارة التي تسبق « وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربيـاً فـافعل » أي قولـه « فـاقتل من شككت في أمره ومن كان في أمره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء » إن هذه العبارة تـدل على الشبهـة والتشكـك ومـا في هـذا المعنى ، والحضّ على قتل من يقع ذلـك عليه ، والعبارة التي تتلوها تدل أيضاً على الريبة والشك والشبهة ، « فـأيمـا غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله » ؛ وبناءً على ذلك ، فـإن سيـاق الكلام يقضي أن تكون الجملة المتوسطة بين هاتين الجملتين بمعنى التهمة أيضاً . وذلك يوافق منطق اللغة العربيـة ومنطق الكلام ، وإذا كان الأمر كـذلـك ، فهل نستطيع أن نضع تلك العبـارة على شكل يـدل على معنى التهمـة ؟ لا ريب أننـا إذا رجعنـا إلى معرفتنـا عن الخـط العربي والكتـابـة العربيـة ، وعن التصحيف الذي يقع ، أدركنا أنه من الممكن أن يكون قـد وقع تصحيف في العبارة بحيث أخـذت معنى جـديـداً غير المعنى الأسـاسي الـذي هو التهمـة كيف يمكن إذاً أن نردّ هذه العبارة إلى أصلها ، وأن نرفع عنهـا التصحيف ؟ إن هذا الرد يجب أن يعطي العبارة معنى التهمة فلنأخـذ إذاً كلمتي « لسـانـاً عربياً » فنرى أن كلمة « لسـانـاً » على الشكل الـذي كانت تكتب فيـه دون تنقيط تصحفت عن « إنساناً » وأما كلمة « عربياً » فقـد تصحفت عن كلمـة « مريباً » . وبناءً على ذلك فإن العبارة « لسـانـاً عربيـاً » تقـابل « إنسـانـاً مريبـاً »[1] وتصحيف إحـداهمـا عن الآخر ممكن . فيكـون نص العبـارة إذن

(١) المنقح الذي درّس هذه المادة خلفاً للمرحوم الدكتور يوسف العش ، وهذّب هـذه المحـاضرات ، وأشرف على تنقيحها وإخراج طبعها ، لـه رأي آخر في تقـدير أصل هـاتين الكلمتين . فهو يرى أن الكلمتين همـا (لسـانـاً غريباً) . أما كلمة (لسان) فهي في رأيه تعني (داعية) كما يقال عن الجاسوس (عين) ؛ وإن كلمة (غريبـاً) لا تختلف في كتابتها بدون تنقيط عن كلمة (عربياً) ؛ وأن التعبير بمجموعه يعني (داعية غريباً عن الدعوة) .

« وإن استطعت ألا تدع بخراسان إنساناً مريباً فافعل » وهذا يجري مع سياق الوصية ويجري مع العبارة السابقة واللاحقة فهو بمعنى الريبة والشك والتهمة كتينك العبارتين .

هذا التفسير إذن يرفع التناقض من الوصية ، ويعيدها إلى سابق عهدها وبديهي أننا فيما يتعلق بأمور العلم لا يمكن أن نجزم جزماً فيما انتهينا إليه ، إلا بعد أن نرى تحريف هذا النص في كتبه الأصلية ، عندئذ نجزم أنه محرف ومصحف : هذا مع العلم أنكم ترون أن إمكان وقوع التصحيف وارد ، وأن إعادة النص إلى أصله يرفع تصحيفه ، ويقضي على التناقض قضاءً عاماً .

فيما تقدم إذاً بيان عن وضع بني العباس وعن الثورة التي قاموا بها ، وهذا البيان يعطينا فكرة واضحة عن ميول تلك الثورة واتجاهاتها ، ويبدو منه واضحاً أن على رأس تلك الثورة رجالاً من بني العباس « دهاة أقوياء » منظمين عارفين بما يقومون به : أولهم محمد بن علي وأقرباؤه وابنه إبراهيم ، ثم تبعهم عدد من إخوة إبراهيم ومن أعمامه وأقاربه . وقد اشتركوا جميعاً في تنظيم الثورة ووضعوا خططها . وأشرفوا عليها ووجّهوها كما يجب أن توجه . نعم ، إنهم تحالفوا مع أعداء بني أمية جميعاً ، واستفادوا منهم كل الاستفادة ، لكنهم هم الموجهون ، وهم أصحاب الأمر ، أما الدعاة والقواد فإنهم يتلقون أوامرهم منهم فيتبعونها بحذافيرها . نعم إنهم استفادوا من العناصر المعادية لبني أمية ، وكانت تلك العناصر يجمعها هدف واحد هو إزالة بني أمية ، وتجمعها فكرة موحدة ، وهي أن بني أمية أعداء الدين ، لذا وجب القضاء عليهم ، وكانت حركة الفرس تدعى بـ « عصا الكفار » : « كافر كوبات » وكان الثوار يحملون عصيا على طريقة ثوار المختار بن أبي

عبيد . استفاد العباسيون إذاً من أن الثورة كانت موجهة ضد الكفار ، والكفار على زعم ثوارهم هم بنو أمية ، ولا ريب أيضاً أن العباسيين اتخذوا الخراسانيين عضدا أول ، لا لأن خراسان معادية للعرب وخالية منهم ـ لا ، فخراسان كان فيها عدد كبير من العرب وقد عاشوا مع أهلها الفرس عيشة تزاوج وتقارب . ولبسوا لباسهم وتزيّوا بزيّهم ، وشاركوهم في أعيادهم وحفلاتهم ، وكأنهم من أهل البلد . وزبدة القول إن تحالف العباسيين مع خراسان لم يتم لأن خراسان غير عربية ، أو لأنها مخالفة للحكم العربي ، بل لما ذكرناه من أنها بعيدة ، لا تصل إليها يد بني أمية بسهولة ، ولأن الشيعة فيها أقوى ، واليانيين عددهم كبير . وبناء على ما سبق ينبغي لنا أن نقول : إن الحركة اعتمدت على الخراسانيين الفرس بصورة خاصة أكثر من اعتمادها على العرب الذين في خراسان لسبب طبيعي ، هو أن هؤلاء الخراسانيين كانوا متحمسين ضد الأمويين أكثر من العرب أنفسهم ، وكانت جراحهم من الأمويين أعمق من جراح اليانيين في خراسان ، فكان من قبيل وضع الشيء في محله أن يُقبل العباسيون على الخراسانيين ، ويمدوا إليهم أيديهم قبل غيرهم . أضف إلى ذلك أن الخراسانيين يفهمون الدعوة السرية ووسائلها وعقلية تلك الدعوة أكثر من العرب ، فقد اعتادوا في زمن الكسرويين على الطاعة التامة والولاء ، وفهموا ألا يسألوا أولياءهم عما يفعلون .

وخلاصة القول إن الدعوة العباسية يمكن أن يقال إنها دعوة لقلب نظام الحكم وليست دعوة قومية ، هي دعوة لبست لباس الدين للقضاء على بني أمية الذين اتُّهموا بأنهم كفار . وهي دعوة نودي بها ليعود الأمر إلى نصابه . . هي دعوة إلى الرضا من أهل البيت ، أصحاب الحق بالخلافة ، أولئك الذين ينادون بإقامة شعائر الدين قياما لم يحققه الأمويون .

توطيد الحكم العبّاسي

ما ذكرناه سابقاً يمكن أن يظهر أيضاً في البحث الذي نقدمه الآن عن توطيد الحكم العباسي . ففي خلال مراحل هذا التوطيد يظهر لنا ماذا قصدُ العباسيون من حركتهم وأي اتجاه كانوا يتجهون إليه . ويظهر ذلك واضحاً حين نرى العباسيين الأولين يقاتلون أعداء دولتهم ، ويستبعدونهم الواحد بعد الآخر ، لا يبالون أكانوا فرساً أم عرباً ؟ ويجب أن لا نهتم كثيراً بالبواعث الظاهرية التي تبدو من خلال الحوادث التي سنذكرها ، فإن لكل حادثة سبباً مباشراً ، وسبباً غير مباشر ، وقد لا يكون السبب المباشر هو الأصل ، وقد يكون السبب غير المباشر هو الذي دعا إلى حدوث الأمر من بعيد ، فلحقه السبب المباشر ، والظروف والبواعث تخفي دائماً السبب الحقيقي . وسنرى هذا السبب .

سننظر في توطيد الحكم العباسي بمراحله التاريخية ، أي أننا سنستعرض تلك الحوادث كلما وقعت الواحد بعد الآخر في الزمن والتاريخ ، وهي حوادث تؤول بمجموعها إلى إزاحة أعداء الخلافة العباسية وإلى تثبيت قدم بني العباس ، ومنهم بصورة خاصة الخليفتان : أبو العباس السفاح ، وأبو جعفر المنصور .

أبو سَلَمة الخلال

أول مرحلة من مراحل توطيد الحكم حصلت في عهد أبي العباس السفاح وهي إزاحة أبي سلمة الخلال عن مسرح الحوادث ، فأبو سلمة كان

قائد الدعوة ، أوصى به **بكير بن ماهان** لمحمد بن علي ، فعيّنه قائداً له . واستبدّ بالأمر ، وحين ورد العباسيون الكوفة بعد أخذها من الأمويين ، لم يرد أبو سلمة أن يعلن أمرهم ، وأن يسلمهم الخلافة . ويقال إنه كان يبغي أن يدع الخلافة لآل عليّ ، لكن **أبا الجهم** - موفد أبي مسلم الخراساني - استطاع أن يقضي على تلك الرغبة وأن يعلن عن مجيء العباسيين ، وبذلك تمت المبايعة لهم بالرغم من أبي سلمة .

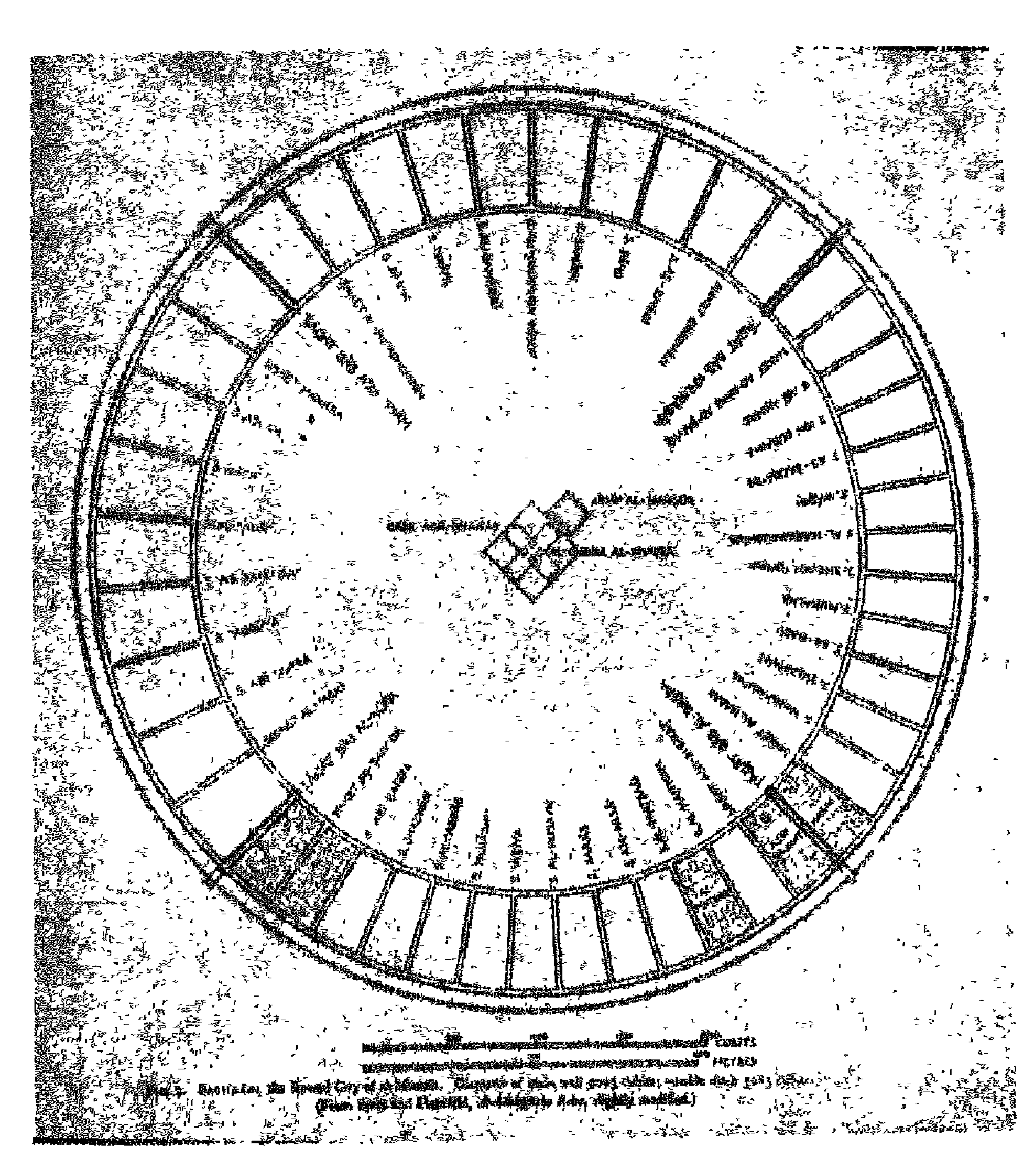
وقيل بعد ذلك إن أبا سلمة اتصل بآل عليّ في المدينة وطلب إليهم تسلّم الخلافة فلم يقبلوا ، وانتهى ذلك إلى العباسيين : فأخفاها أبو العباس في نفسه ودبّر وسيلة قتله ؛ وكان من غير الحكمة أن يقتله بواسطة أتباعه من بني العباس ، فالعقل يقتضي بأن يقتل أبا سلمة رجل من طائفته وبلده (من خراسان) ؛ عملاً بهذا الرأي أرسل أبو العباس إلى أبي مسلم كتاباً يحضّه فيه على قتل أبي سلمة . ووجد أبو مسلم في ذلك فرصة سانحة للانتقام من سليمان بن كثير اليمني الذي وقف في وجهه حينما قدم خراسان أول مرة ، فأعرب أبو مسلم عن استعداده للقيام بهذه المهمة على أن يترك له التصرف برأس سليمان . حصل شبه اتفاق ضمني على ذلك ، فأرسل أبو مسلم رجالاً من أتباعه إلى الكوفة . ولما دبرت المؤامرة وحيكت خيوطها ، أعلن أبو العباس السفاح أنه راض عن أبي سلمة كل الرضا ، وفي ليلة ذلك الإعلان هوجم أبو سلمة وقتل ، فحزن عليه الناس ، وشاع أن الخوارج قد اغتالوه .

القضاء على بني أمية

وعلى هذا النحو أزيح منافس عن مسرح الحوادث ، وبقي العدو الأكبر الذي يجب أن يُقضى عليه قضاء مبرماً ، وهم بنو أمية أنفسهم ، وقد رأينا أن مروان قُتل في بوصير ، لكن قسماً من الأمويين لا يزالون في الشام

والعراق ومصر . تتبع بنو العباس هؤلاء الأمويين تتبعاً دقيقـا ، وأعملوا فيهم السيف حيلة وغدراً وخداعا ، أو ما شابه ذلك من نكث العهود .

والمهم أنهم قتلوهم حتى اطمأنوا إلى أنـه ليس في بلادهم منهم أحـد ، ولم أن عدداً قليلاً جداً قد هرب من أيديهم إلى مكان سحيق .



مخطط عام لمدينة السلام (بغداد) كما وضع أيام المنصور (عن كرزويل : العمارة الإسلامية)

عبد الله بن علي

واستمر توطيد الحكم في عهد المنصور ، وابتدأ بالقضاء على رجل خرج على الخليفة وادعى لنفسه الخلافة ، وكان من بني العباس أنفسهم ، وهو عبد الله بن علي عم المنصور ؛ فقد ظن عبد الله أنه وَلي عهد أبي العباس السفاح ، ذلك لأن أبا العباس طلب من بني العباس رجلاً ليحارب مروان ، وقال « إن من حاربه وغلبه لحقيق أن يكون وليّ العهد فلم يتقدم إلا عبد الله ، وهو من أدهى بني العباس » . بل يقال : إنه أدهاهم وأكثرهم حيلة وحكمة وكيداً ، فلما قضى على مروان ، واستتب الأمر لبني العباس ؛ ثم توفي السفاح رأى عبد الله أن الأمر فاته بانتقاله إلى المنصور ، فغضب لذلك ، وأعلن أن الأمر له . وطلب من جنوده أن يبايعوه ، ففعلوا ، وفيهم الخراسانيون وغيرهم ، والخراسانيون ألفوا أن ينقادوا لقائدهم أيا كان ، وبويع بالخلافة في عام ١٣٧ للهجرة ، وأعلن فيها العصيان .

كان في هذا العصيان خطر على خلافة بني العباس ؛ ونظر المنصور في إزالة هذا الخطر ، فوجد أن الذي يستطيع أن يكفيه هذا الأمر هو أبو مسلم الخراساني ، فإن لم يستطع أن يكفيه ومات ، فإن موته يكون أيضاً في مصلحة العباسيين . دعا المنصور أبا مسلم إلى حرب عمه عبد الله ، واستمر القتال بين القائدين مدة من الزمن ، ولم يستطع أحدهما التغلب على الآخر ، غير أن أبا مسلم وجد ثغرة في صف عبد الله ، هي ثغرة الخراسانيين فهم أميل إلى أبي مسلم منهم إلى عبد الله ، هم أميل له في الظاهر والباطن ، فكان عبد الله يخشاهم ويخاف أن يرتدوا عليه ؛ وهذه الخشية هي التي أودت به ، فوقع أسيراً في يد أبي مسلم ، فسلمه إلى المنصور قيل إن المنصور

وضعه في بيت بني أساسه من الملح ، وكان الماء يجري من تحته فيذوب الملح حتى انقض البناء يوماً من الأيام على عبد الله فقتله .

القضاء على أبي مسلم الخراساني

بعد أن ارتاح بال أبي جعفر من عمه ، ما زال في قلبه همّ كبير ، هو ذلك القائد الخراساني الذي مهّد الحكم لبني العباس وأبلغهم سدة الخلافة ، وكان لا يزال أبو مسلم حاضراً على رأس جيش كبير من أتباعه الخراسانيين الذين كانوا يؤمنون به من وجهات نظر مختلفة : يؤمنون به ، لأنه خراساني ، ويؤمنون به لأنه قائدهم ، ويؤمن به بعضهم من ناحية دينية أيضاً ، فهو يمثل رمزاً دينياً قومياً كبيرا : هذا القائد هو أبو مسلم الخراساني ، ذلك الرجل الداهية القوي ، الذي بلغ أعلى مركز في الدولة بانتصاراته العديدة ، فصار قادراً على أن يقف أمام الخليفة وقفة الند للند ، وقد أظهر دالّة على الخليفة وعلى أخيه ، حتى إنه طلب أن يكون أمير الحجاج في عهد السفاح ؛ فاضطرب أمر الخليفة ولم يجد إلا أن يرسل أخاه أبا جعفر أميراً للحج ليبطل رغبته ، فاستاء أبو مسلم لذلك وقال : « ألم يجد أبو جعفر أن يحج إلا هذا العام ؟ » .

ولما توفي السفاح في وقت الحج لم يستطع أبو مسلم إلا أن يبايع أبا جعفر المنصور خليفة ، وأبو جعفر هذا كان قد حضّ أخاه على قتل أبي مسلم ، فلم يفعل السفاح ، لأنه لم يجد إذ ذاك إلى ذلك سبيلاً . هذا هو الآن أبو جعفر يصبح خليفة ، فماذا يفعل ؟ إنه يتربص بأبي مسلم وينتظر حدوث مناسبة ينقضّ بها عليه . وبالرغم من أن أبا جعفر استثمر أبا مسلم في القضاء على خصومه ، لكنه شعر أن نفوذ أبي مسلم وصل إلى قمته وصار أبو جعفر يخشى منه على الخلافة نفسها ؛ فأرسل إليه ، وكان أبو مسلم آنئذ في

الشام ، وكان يريد أبو جعفر أن يعهد إليه بولاية الشام ومصر ليبعده عن مركز نفوذه (خراسان) : فلم يرض أبو مسلم بذلك مدعياً بأن خراسان موطنه ، يؤثرها على الشام ومصر ، وكان طبيعياً أن يفضل بقاءه بين شيعته وأتباعه . جرت بين الخليفة وبينه مراسلات ، لم يقتنع أبو مسلم بعدها بالبقاء في الشام ، بل قصد أن يرجع إلى خراسان ، فأرسل إليه أبو جعفر جرير[1] بن يزيد البَجَلي ، وهو داهية من الدهاة ، بل قيل إنه أدهى أهل عصره ، وعهد إليه بأن يقنعه بجميع الوسائل ، فحاول معه كل المحاولات ، حتى إذا لم يفلح فيما حاول ، انتقل إلى آخر أمر اتفق عليه مع الخليفة ، فاختلى بأبي مسلم وقال له بأنه إن لم يقبل بالحضور إلى أبي جعفر ، فإن أبا جعفر سيجعل همّه كله أن يفتك بأبي مسلم ، وسيتجه إليه بجيوش الخلافة جمعاء وإنه يقسم ويقسم ويعزز أيمانه بأنه لن يتوانى عن الفتك به مهما كانت الحال . فأوجس أبو مسلم خيفة ورضي بالذهاب إلى أبي جعفر ، وذهب إليه مع بضعة آلاف من جنوده . ترك الجيش قريباً منه ، ووصل إلى الهاشمية ، فاستُقبل استقبالاً حسنا ، وأزيل عنه كل خوف . ثم دعي يوماً وحده إلى الخليفة ، فدخل عليه ، فعزّره الخليفة وعاتبه ، فاعتذر وأقبل على يدي أبي جعفر يقبلها ، فقال له الخليفة : « قتلني الله إن لم أقتلك » وصفق بيديه : فدخل من قتل أبا مسلم . وكان أبو جعفر قد أعدّ صُرر المال . فما أن فرغ من قتل أبي مسلم حتى خرج الخزانون بالمال ونثروه على الخراسانيين ، فالتهى هؤلاء بالمال وقضي على أبي مسلم .

القضاء على أصحاب النزعات المنحرفة

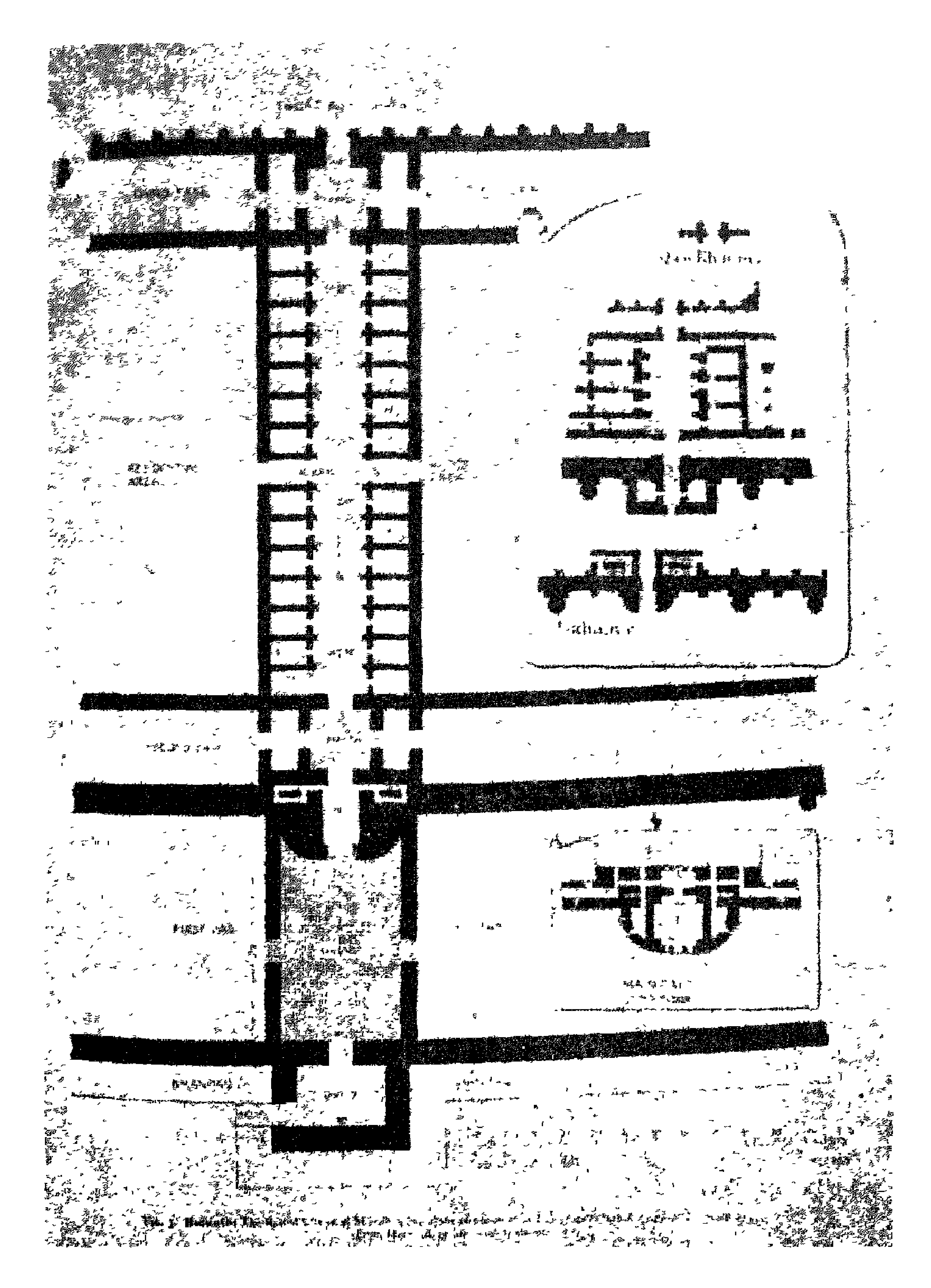
ومما يدخل في توطيد حكم بني العباس القضاء على الحركات الفارسية

(١) ذكر ابن الأثير (ج ٥ ـ ص ١٧٦) أن أبا جعفر أرسل إلى أبي مسلم أبا حميد المروروذي ـ المنقح .

ذات النزعة الدينية المنحرفة عن الإسلام . وقد ظهرت أولاً الراوندية ، والراوندية طائفة اعتقدوا أن أبا جعفر المنصور هو ربُّهم يؤتيهم رزقهم ، ويطعمهم ، ويسقيهم . جاهروا بآرائهم هذه ، وقدموا إلى الهاشمية مركز الخلافة ، وأعلنوا عقيدتهم واضحة ، فأخذ أبو جعفر المنصور في إقناعهم لإعادتهم عن رأيهم ، لكنهم لم يقتنعوا . فألقى القبض على عدد كبير منهم ، ووضعهم في السجون ؛ فغضب لذلك الباقون ، واحتالوا لإخراج رفاقهم ، فساروا في جنازة وهمية إلى السجن بعددهم وعدتهم . فهاجموا السجن ، وأخرجوا رفاقهم منه ؛ ثم توجهوا نحو قصر المنصور ، فأراد أن يفرقهم وخرج إليهم بحرسه وكان عددهم قليلاً . كاد الثوار أن يتمكنوا منه ، لولا أن رجلاً مطارَداً من المنصور هو **معن بن زائدة الشيباني** حمى فرسه ووقف بين يديه . وقاتل قتال الجبابرة ، حتى أزاحهم عنه ، ومكنه منهم . وقضى على فتنتهم .

ومن القضاء على الحركات ذات النزعة غير الإسلامية القضاء على ثورة سُنباذ ، إن سنباذا خرج غضبا على مقتل أبي مسلم الخراساني ، وصمم أن يثأر له . جمع حوله عدداً كبيراً من الخرّمية الإباحيّة أصحاب خدّاش ، ومن المزدكية ومن غيرهم ، وجاهر بالعداء للإسلام وقصد السير إلى مكة لنقض الكعبة : فأرسل إليه أبو جعفر المنصور جَهْوَر[1] بن مرّار العجلي فقابله وقضى على جيشه الكثيف .

(١) ذكر الطبري (سنة ١٣٧ هـ) اسمه على هذا النحو ؛ أما ابن الأثير فقد ذكر اسمه (جهور) ـ المنقح .



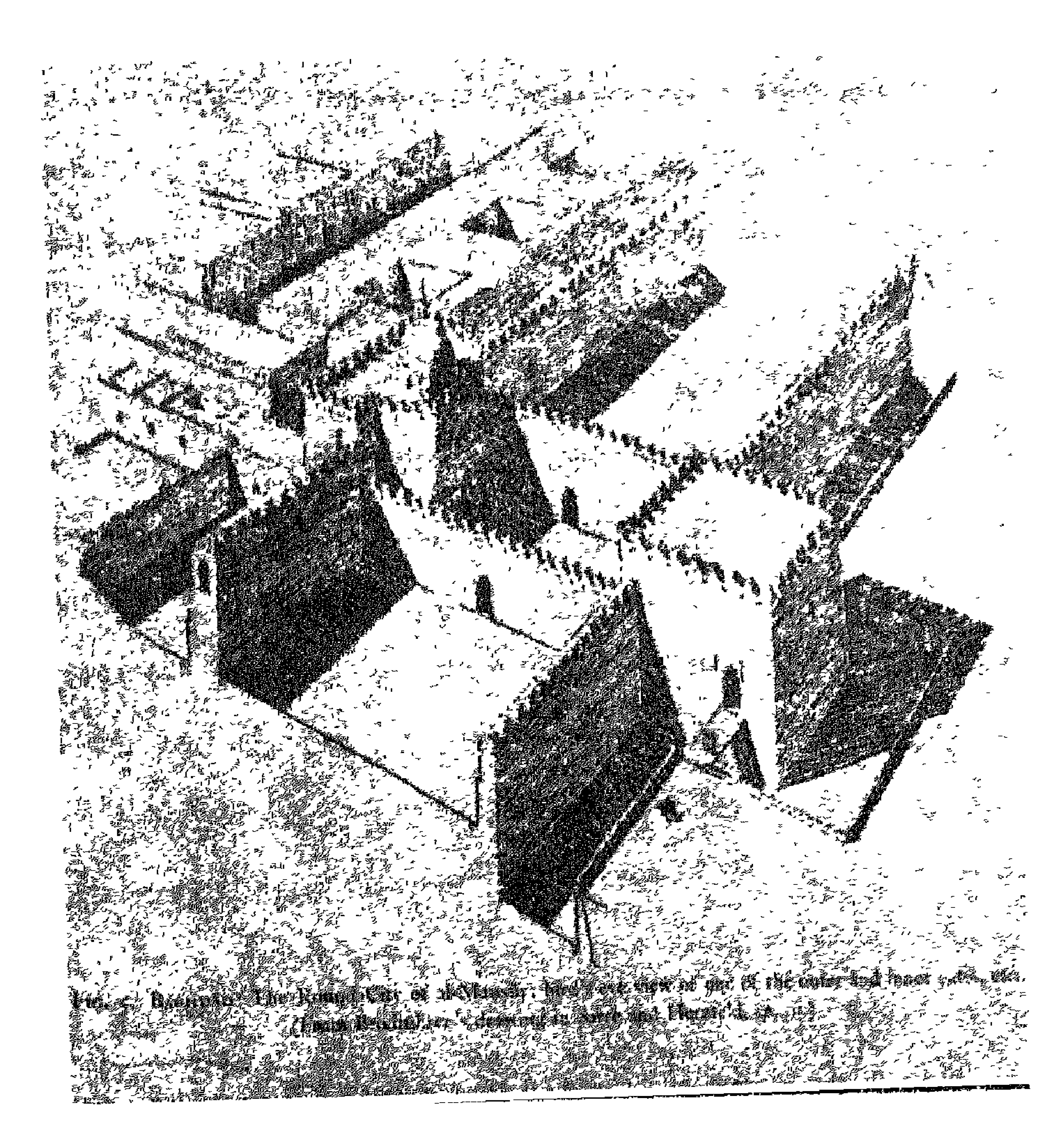
تفصيل أحد مداخل أبواب مدينة بغداد

القضاء على ثورة آل عليّ :

وأمر آخر أقضّ مضجع أبي جعفر المنصور وأتعبه وهو أمر آل علي ، فأبناء علي بن أبي طالب لهم دعوى في الخلافة وطيدة ، وعلى دعوتهم قامت دعوة العباسيين ، وبنى العباسيون حكمهم على وصية أوصاها لهم أحد بني علي . وكان أبو جعفر المنصور حذراً يتوقع حركة من آل عليّ وأصحابهم وشيعتهم ، وكان دوماً خائفاً يترقب ، يضع عليهم الأرصاد والجواسيس ، ويتتبع أعمالهم . وكان يريد أن يقف على نشاطهم فيقضي عليهم قضاء مبرما . ويقال إن أهل البيت من العلويين والعباسيين اجتمعوا يوما (قبل العهد العباسي بالطبع) ، فقرروا أن ينتخبوا عليهم إماماً يدعون له ، **وهو محمد النفس الزكية** بن عبد الله من بني الحسن بن علي ؛ لكن هذا القول يبدو موضوعاً أو ضعيفاً لا يؤخذ به ، وعلى كل كان محمد النفس الزكية يعتبر نفسه صاحب الأمر وصاحب الدعوة ، حتى إذا أقام العباسيون دولتهم غضب غضباً شديداً ، لأنهم لم يولّوه الأمر ، وصار يدعو دعوته متحدياً أسلوب الدعوة العباسية (أعني الشكل السري المنظم الموجّه) ، فاستطاع أن يجمع عدداً كبيراً من الأتباع ، من بينهم من قد خيبتهم أعمال الخلافة العباسية ومنهم الشيعة العلويون خاصة ، ومنهم بعض من يستفيدون من هذه الحركات الثورية . واختفى محمد النفس الزكية ، فصار أبو جعفر المنصور يسأل عنه فلا يجده ، فألقى القبض على والده ، وتحرّى شأن ابنه ، فلم يفز منه بطائل . وصار يراقب الأمور مراقبة الحذر المدقق ، وصار يتعجّل الأمور حتى لا يفاجأ بها مفاجأة ، فكان يجعل قواده يرسلون الكتب إلى من يتوسمون فيهم أنهم من أهل الشيعة ، فيدعونهم إلى القيام بالثورة ويطمئنونهم أنهم إلى جانبهم إن اشتعلت الثورة ، وهكذا شعر

النفس الزكية أن أمره قد يخرج من طي الخفاء والكتمان إلى الظهور دون إرادته ، فعجّل بالظهور ، عجّل في وقت لم يكن من مصلحته أن يظهر فيه ، فقد كان أعدّ الأمر على أن يثب هو بالحجاز ، وأخوه إبراهيم بالبصرة في وقت واحد ، فيشغل جيش الخليفة المنصور بحركتين في آن واحد فيضيع بينهما ، لكن إبراهيم كان مريضاً لا يستطيع أن يظهر . فثار النفس الزكية قبله ، ورجاه أن يعجل بالظهور ، وكان النفس الزكية شجاعاً كل الشجاعة ، قوياً كل القوة ، ورأى أن يحتاط لنفسه بالمدينة فحفر خندقاً حولها ، كما فعل ذلك من قبلُ جده الرسول ﷺ ، وقد نصحه عدد من أصحابه بألا يفعل ، لكنه لم يرض ؛ وكان حفر الخندق مانعاً للتجار وأصحاب الميرة من أن يوصلوا بضاعتهم إلى المدينة ، فخفت الميرة عن المدينة . وانتظر هو أن يأتيه العدو إلى دياره . إن أبا جعفر المنصور راسله مرات ، ولم يكن آنئذ مستعداً تماماً لإرسال الجيش في الحال . أدلى كل الفريقين بحججه في رسائله ، تعدّ هذه الرسائل من أجلى وأروع ما كتب من الرسائل السياسية ، وهي تبرز حجج كل من الفريقين إبرازاً قوياً ، وردت هذه الرسائل في الطبري (٦/ ١٩٥) . لم تنته هذه الرسائل إلى شيء كما كان مقدّراً لها . وعجم أبو جعفر عيدانه ليرسل قائداً إلى القتال ، فوجد بدهائه أن أصلح شيء له هو أن يرسل ابن عمه عيسى بن موسى بن علي . وكان عيسى بن موسى وليّ العهد بعد أبي جعفر ، وكان أبو جعفر راغباً في أن يزيحه من طريقه ليعطي الخلافة إلى ابنه المهدي . وإذا دارت الدائرة على أحد الاثنين : محمد النفس الزكية أو عيسى بن موسى ، فأيها قتل كان خيراً له ، ويوافق مصلحته . تمكن عيسى بن موسى بعد قتال مرير من النفس الزكية ، فشتت جيشه ، وقتله ، وأرسل برأسه إلى أبي جعفر المنصور . ظهر إبراهيم في البصرة ، ولكن بعد فوات الأوان، وقد كان

عيسى قد أشرف على الانتهاء من محاربة النفس الزكية ، وعاد إلى البصرة حين ظهر إبراهيم ، فالتحم جيشاهما ، وكان إبراهيم قد جمع حوله في البصرة عدداً كبيراً من مختلف النزعات وقوي بهم ، لكنه قُهر في المعركة التي وقعت بينه وبين عيسى بن موسى ؛ وبذلك اطمأن بال أبي جعفر المنصور ، وألقى عصا التسيار واستقر به النوى .



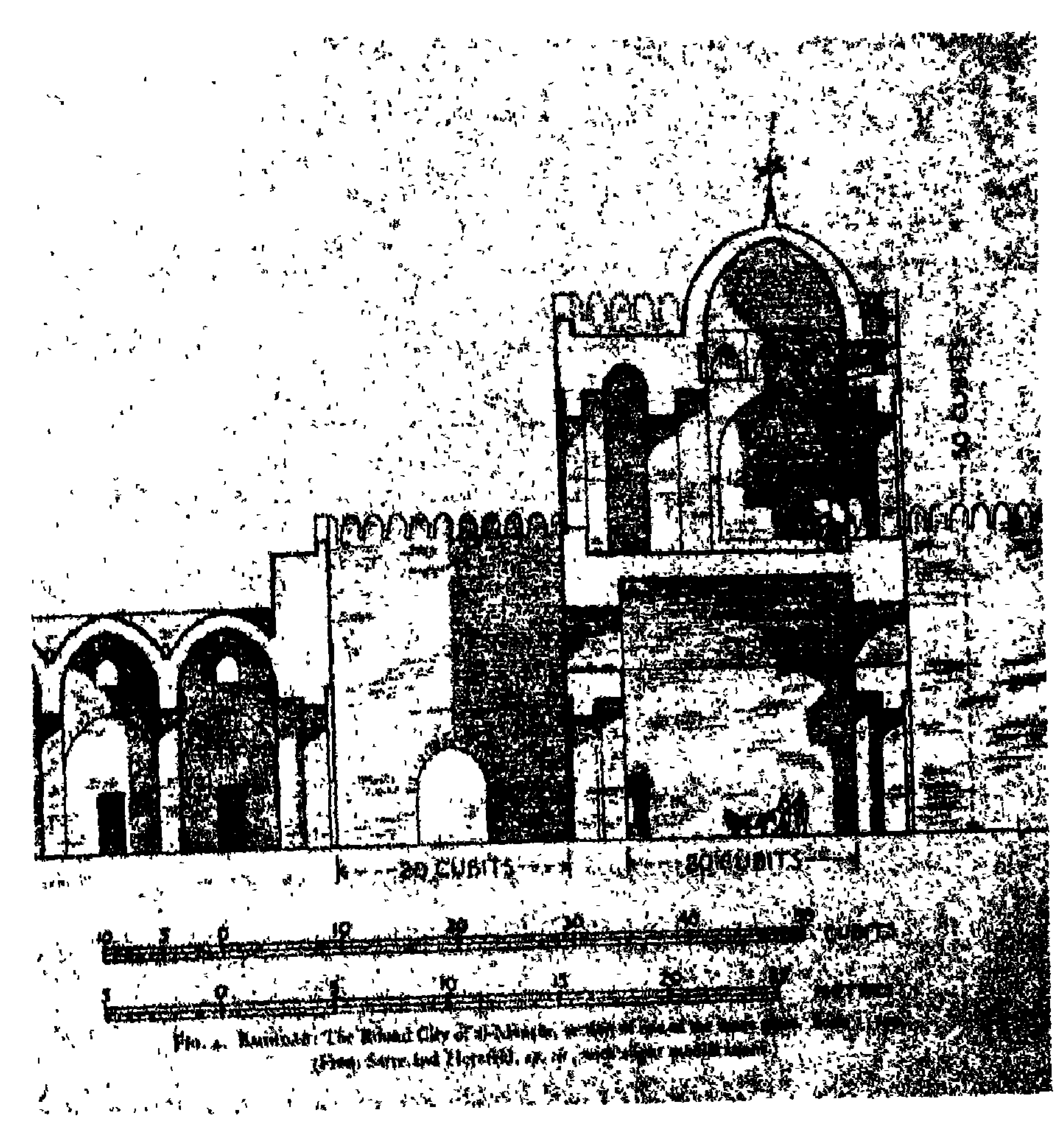
منظور أحد مداخل مدينة السلام

بناء مدينة السلام (بغداد)

اختتم أبو جعفر المنصور توطيده للحكم ببناء عاصمة له ، وأراد أن يبعد هذه العاصمة عن تأثيرات البلدان الأخرى . فقد رأينا أن العباسيين حالفوا خراسان في أول الأمر ، لكنهم لم يجعلوا مقرهم فيه ، فابتعدوا عن القطر الذي قوّى شأنهم وعضد أمرهم ، ثم إنهم لم يستقروا في الكوفة ، وكانت الكوفة قد عاضدتهم أيضاً في الاستيلاء على الأمر . لم يستقروا في الكوفة ولا في خراسان ، بل أسسوا لأنفسهم مدينة قرب الأنبار دعوها الهاشمية نسبة إلى جدهم الأعلى هاشم ، وبذلك ابتعدوا عن أهل البلدين اللذين قوي أمرهم بهما ، ولم يُبقوا حلفهم معهما قائماً . لم ترق الهاشمية لهم أيضاً ، فأخذ أبو جعفر المنصور يبحث عن مكان يبني فيه مدينة جديدة تكون مقر حكمه وعاصمة ملكه ، فوجد بعد البحث الشديد مقراً لتلك المدينة يحوي شرائط ملائمة كل الملاءمة ، بل كانت تلك البلدة كأنها خلقت لتكون عاصمته . اختار أبو جعفر المنصور موضعا لمدينة أسماها مدينة السلام في مكان يدعى ببغداد أو الزوراء . وهو يقع على الضفة الغربية من دجلة في مكان تكون المسافة بين دجلة والفرات أقرب ما تكون ، فأقام عاصمته على الطرف الأيمن من دجلة . في هذا المكان يستطيع أن يحصل على الميرة والتجارة التي تأتي من الجنوب ، تلك التجارة إما أن تمر في الفرات أو في دجلة وكلاهما قريب من بغداد . إن موقع بغداد في وسط العراق يجعل اتصالها بمدنه سهلة سريعة وهي تقع في أرض خصبة ، الهواء فيها طيب عليل . أما من الناحية الحربية ، فالمدينة بعيدة عن متناول العدو ، اللهم إلا إذا اجتاز للوصول إليها نهراً ، يمكن أهلها أن يهدموا الجسور فيمنعوه منها .

هذا من حيث موقع المدينة ، أما من حيث تخططها ، ففيه يتجلّى

ذكاء كبير ، جعل أبو جعفر المدينة مدورة ، وأقام في مركزها قصر الخلافة ، وإلى جانبه الجامع الذي سمي بجامع المنصور . يخرج الخليفة من قصره إلى الجامع القريب فلا يتعرض في أثناء سيره لأشياء مفاجئة . جعل المنصور الدواوين حول القصر ، وخطّط حولها (وكل ذلك بشكل مدور) دور القواد ورجال الحاشية وأمثالهم ، ثم أنشأ حولها سوراً مدوراً مركزه القصر ، ثم سوراً مدوّراً آخر ، وخصص ما بين السورين سكن عامّة الناس وأعمالهم



مقطع القبة في أحد مداخل مدينة السلام

البسيطة ؛ إلا أن الخليفة أخرج فيما بعد الأسواق إلى خارج المدينة حيث نشأ حي الكرخ . وكان يدعى القسم الذي يسكنه عامّة الناس (بين السورين) . أنشأ بعد السور الثاني سوراً ثالثاً يفصله عن الثاني ميدان فسيح ؛ وحفر خارج السور الثالث خندقاً حوله . ومن أطراف القصر الأربعة تبدأ شوارع تمتد فتخترق الأسوار الثلاثة بأبواب : باب منها اسمه باب الشام ، والآخر باب خراسان فباب البصرة ثم باب الكوفة . ويستطيع الخليفة من قصره أن يراقب هذه الشوارع جميعاً وأن يعرف ما يجري فيها ، وهي شوارع تفضي إلى قصره وإلى المسجد الجامع . وفق أبو جعفر المنصور كل التوفيق في وضع مخطط المدينة فكان من السهل الإشراف عليها ومعرفة ما يجري فيها .



نظام الحكم في العهد الأول العباسي

بعد أن رأينا توطيد الحكم والوسائل التي اتخذت لذلك ننتقل إلى البحث عن نظام ذلك الحكم في العهد الأول العباسي ذلك العهد الذي يمتدّ حتى عصر المأمون . هذا النظام وضع أسسه أبو جعفر المنصور ، وحكم الدولة على رأيه وفكره ، واستمرت على هذا الشكل مع تغيير قليل حتى عصر المأمون . بعد عصر المأمون لم يطرأ عليها تبدل كبير إلا في أشياء سنراها .

هذا النظام هو نظام الحكم الفردي المقيد بشريعة القرآن الكريم ؛ وهو نظام يستند إلى الفكرة الدينية فقد قال المنصور : « إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ؛ وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه » فركيزة هذا السلطان هي الدين ، والسلطان يستمد قوته منه ، ويعتبر نفسه في شؤون الحكم ممثلاً لسلطان الله . وهذا الحكم لا يفرق بين عربي وأعجمي ، فهم يستوون جميعاً . وإنما هم رعية يسوسهم السلطان بحكمه وإرادته ، وللدين مذهب معين هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وهو يحارب كل زندقة ، ويحارب الفرق المنشقة على السنّة والجماعة ، هذا التمذهب في الحكم لا يسري على الدور العباسي الأول وحده ، بل ينطبق على جميع أدوار الحكم العباسي ، ولو أن السلطان صاحب القوة[١] كان يختلف من حين إلى آخر .

---

(١) القصد من هذا الكلام أن التمذهب ظل سارياً حتى عندما انتقلت السلطة الحقيقية من يد الخليفة إلى أمير الأمراء ثم إلى البويهيين ثم إلى السلاجقة ـ المنقح .

أثر الدين في الحكم

والدين هو الذي ينظم شؤوناً كثيرة فيتبعه الخليفة فيها ، وهي شؤون **العدل** أولاً وما يتبعها من قضاء ومظالم ، فالحكم فيها للدين وللمذهب الذي يمثله ، والدين ينظم شؤون **الخراج** ثانياً ، وقد وضع علماء بني العباس في شؤون الخراج كتباً اشتقوها من الأصول الدينية ؛ وأول من ألف في الخراج وزير من أول وزرائهم ، ثم ألف فيه قاضيهم أبو يوسف . ومن الشؤون التي تعتمد على الأصول الدينية شؤون **الحسبة** ثالثا . والحسبة خطة دينية تقتضي بأن يقام العدل ويصان الدين ويطبق الشرع في الأسواق وفي معاملات الناس ، التجارة والصناعة والحرف . وقد سار العباسيون في الحسبة سيرة من سبقهم واتبعوا ما ورد من أقوال في الأحاديث والأخبار والآثار .

الخليفة يصرّف أمور الدولة

هذه هي إجمالا الشؤون التي يتبع فيها المذهب السني والحكم الديني ، أما ما سوى ذلك من أنظمة الدولة ، فأمره عائد إلى الخليفة يسوّيه كما يريد ، فهو الذي يضع أصول الحكم في الأمصار وفي العاصمة نفسها ، ويعين كل من يقوم على الإدارة . وهو الذي يعين ولي العهد والعمال والوزراء والقضاة وأصحاب الخراج وأصحاب البريد . لنتحدث إذاً عن هذه الأعمال وكيف يتصرف بها الخليفة واحداً بعد آخر : من ذلك **ولاية العهد** فقد استنّ سنّتها معاوية فجعلها في ولده ، وجعل لنفسه الحق في أن يأخذ العهد له ، واستمرت ولاية العهد تنتقل بين أولاد الخلفاء وإخوتهم وأقربائهم الأقربين ، أما في العهد العباسي الأول فهي في الأولاد والأخوة وابن الأخ ، لكنها تأخذ شكلاً جديدا ، فقد يبايع بعهد الخليفة بولاية العهد إلى

الأخوين معاً ، حتى إذا استولى الأول منهما على الخلافة دعا الثاني إلى التخلي عن حقه ، وأجبره على ذلك إن لم يقبل بادئ ذي بدء . . . وهكذا لم يفكر أبو جعفر المنصور في أن يحدث في شأن ولاية العهد شيئاً يصلح به ما يقع بين الأهل من بلابل وخلافات .

الوزارة

والجديد في نظم الحكم عند بني العباس هو خطة الوزراء ، **فالوزير** لم يكن معروفاً عند بني أمية باسمه ، إلا أنه كان موجوداً بعمله ، فقد كان الكاتب والمستشار للخليفة . أما العباسيون فهم قبل أن يستولوا على الأمر كان لهم وزير هو **أبو سلمة الخلال** ولعل هذه التسمية أتت من الآية ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي ﴾ على أن عمل الوزير في عهد العباسيين الأول يشابه عمل الكاتب في عهد بني أمية . إلا أنه يأخذ مع الزمن بعض السلطان والأبّهة ، وحين يأخذ ذلك ويستبد بعض الاستبداد بالأفراد ، وتتوسع سلطته ينقم منه الخليفة فيقضي عليه ، أو يعزله ، وقد يصادر أمواله . وقد يعذبه ويضطهده .

الجيش

الجيش في عهد الخلفاء العباسيين الأُوَل خليط من أفراد مختلفين ، ففيه العربي ، وفيه الفارسي وفيه غيرهما ، وقواده مختلطون أيضاً إلا أن قسماً كبيراً منهم عرب ، وقسما منهم عباسيون بالذات ، على أن أقوى نواة في الجيش هم الخراسانيون ؛ فالخراسانيون هم الذين أعطوا النصر لبني العباس ، وبقوا جيشهم المفضّل على أننا نعود فنقول : إن جيش خراسان ليس فارسيا محضاً ، بل يدخله العربي أيضاً فقد ذكرنا أن خراسان إنما هو اسم للإقليم لا للعصبية ، فإذا كان أصل موطن الجيش خراسان ، فأفراده ليسوا بأجمعهم

خراسانيين . قسم المنصور الجيش إلى فرق أربع ، المضرية والربيعية واليمنية والخراسانية ، منها ثلاث فرق عربية ، وفرقة يتخللها فرس ، وقد أراد أبو جعفر أن يستقيم الأمر له في هذا التقسيم ، فضرب بين فرق الجيش بعضها ببعض ، وجعل بعضها يراقب بعضها الآخر ، ووضع قسما منها ببغداد ، وقسما آخر بالرصافة في الطرف الآخر من الدجلة ، أما **الشرطة** فهي حرس الخليفة ، وهي تتبع إمرته وهي خليط فيها الموالي وفيها العرب .

الولاية

إنّ الأمصار تدار من قبل الولاة ، وقد نظمت خطة الولاية بحيث لا يكون للوالي سلطة كبيرة تنجيه من قبضة يد الخليفة ، ففي الأقطار ولاة أو أمراء أو عمال ولكنهم لا يمسكون بزمام الأمر جميعه ، فهم على الأغلب أمراء حرب وصلاة ، يديرون شؤون الناس إلى حدّ ما ، وإلى جانبهم **أصحاب الخراج** ، وهؤلاء عمال يعينهم الخليفة نفسه في أكثر الأحيان وهم الذين يجمعون الأموال ، فلا يستطيع الأمراء أن يتصرفوا بها ، وإلى جانب الولاة **قضاة** يعينهم الخليفة أيضاً ، ولا يتّبعون الوالي ، ومن هؤلاء **أصحاب البريد** ، وهم عمال لهم شأنهم وقوتهم ونفوذهم ، فهم الذين ينقلون إلى الخليفة أخبار الولاة والقواد والقضاة والجباة وغيرهم ، وهم الذين يشرفون على الطرقات والأمن فيها . وينقلون الأموال والودائع ، فسلطانهم قوي ، وهم عيون للخليفة ، وظيفتهم أصلها ساساني ، لكن مهمة التجسس فيها ونقل الأخبار إنما هو عباسي ، فهي إذاً مؤسسة ساسانية عباسية .

وهكذا نرى أن الأمصار قد وزع الحكم فيها بين أشخاص مختلفين ، فليس الوالي والأمير هو صاحب الأمر في كل شيء ، نعم إنه مع الزمن يكتسب سلطة واسعة ، ويحاول أن يستقل عن الخلافة ، لكن هذا يحدث

فيما بعد ، لا في العصر الذي نتكلم عنه . والعمال والموظفون المختلفون في مصر من الأمصار يكادون أن يكونوا مستقلين الواحد عن الآخر ، ولكل منهم سلطة محدودة ، ويراقب أحدهم الآخر ، فلا يستتب الأمر لواحد منهم .

الجديد في نظام الحكم العباسي الأول

هذا هو بإجماله النظام الذي وضعه المنصور ، وأخذه عمن سبقه ، وأحدث فيه أشياء جديدة . هذا النظام ليس فارسياً محضاً بل هو مطعم بأشياء لم يعرفها الفرس ، لأنه أولاً يستند إلى الدين الإسلامي مما لم يعرفه الفرس ، هذا النظام أقرب أن يكون أموياً من أن يكون فارسياً ، فالأمويون عرفوا نوعاً من النظام مشابهاً لهذا دون بعض الجديد الذي فيه ؛ وكانت غاية هذا النظام جمع السلطات في يد الخليفة ، فهو الحاكم الفرد ، وكل الأمور يجب أن تجري بمعرفته وتوجيهه . قد يتخذ له نواباً ، إلا أنهم بين يديه يتصرف بهم كما يشاء ، فالحكم مركّز في شخصه بالذات .

من يسند الحكم العباسي ؟

والخليفة عربي عباسي وعصبيته لا يمكن أن تكون إلا عربية ، هذا مع أن الحكم يستند إلى قوميات مختلفة ، فهو يحكم بقاعاً من الأرض فيها عدد كبير من الأقوام ، والدين يحضّ أن يكون حكمهم حكماً عادلاً لا تمييز فيه بين الأقوام ، والدين هو الذي وحّد هذه الأقوام ، فهي تعيش في كنفه ولا غلبة لأحدها على الآخر في العصر الذي نذكره . هذه الأقوام ثقافتها عربية على الإجمال ، ولغتها عربية ، وهي تحكم من عاصمة عربية ذات ثقافة عربية ؛ ومع ذلك فإن هذا الحكم لا يعتمد على عصبية قومية . (عربية أو فارسية أو إقليمية) ، إنما اعتماده وسنده على الدين ، وإلى جانب الدين حكم

الفرد الذي يسيّر كل شيء بسلطانه ، وبناءً على ذلك فلا يصدق كلام الجاحظ عن العصر الذي نبحثه حين يقول : « دولة بني العباس أعجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية » . فدولة بني العباس في هذا العهد ليست أعجمية خراسانية ، وليست عصبيتها خراسانية فارسية ، كما أنها ليست عصبية عربية ، ولعل حكم الجاحظ يصدق على العصر الذي عاش فيه ـ أي عصر المأمون ـ فقد وضح فيه الحكم الأعجمي الفارسي في أغلب الأحوال .

كلامنا عن نظام الحكم يؤيد ما رأيناه عن توطيد الحكم ، فكلا الأمرين يسير باتجاه واحد هو إقامة حكم عباسي قويّ ، لا تسلط فيه لعصبية ما ، إنما السلطان فيه للخليفة العباسي نفسه وحكمه هو حكم الفرد ، أو حكم السلطان ، وقولنا : حكم السلطان يسري على أدوار الحكم العباسي جميعاً ، وقد يكون السلطان غير الخليفة في الحقبات التالية .

وإذا أردنا أن نخرج مما قلناه برأي ملخص ومقارنة بين الدول الإسلامية التي سبقت والدولة التي نتكلم عنها قلنا : إن حكم الخلفاء الراشدين هو حكم الشورى في دولة دينية ، وحكم الخلفاء الأمويين هو حكم الفرد في دولة عربية ، أما حكم العباسيين فهو حكم السلطان في دولة إسلامية .



استدراك المنقح :

١ ـ حذفت كلمة **المطلق** من بعد **حكم الفرد** ووضعت بدلاً عنها **المقيد** بشريعة القرآن الكريم . لأن الخليفة مهما قوي نفوذه وعلا سلطانه فإنه لا يمكن أن يحكم حكماً مطلقاً ، ما دام حكم الله قائماً . وقد رأينا في حالات كثيرة رجوع الخليفة إلى جادة الصواب ! إذا نبّه إلى خطئه الذي تجاوز به حدود الشرع .

٢ ـ إني لا أستطيع أن أدرك أن الخليفة العباسي في الدور الأول تمكن أن يحكم حكماً فردياً معتمداً على الدين فقط دون أن تكون له عصبية تسنده وتحميه . نعم لم تكن العصبية قومية في هذا الدور (عربية أو فارسية) ، وإنما كانت عصبية مسلمة اتسعت قاعدتها وصار لها رأي سياسي . وسنرى أن بنية هذه العصبية ستصبح فارسية في عهد المأمون ، ثم تصبح تركية في عهد المعتصم ؛ وستتحول من عصبية ذات رأي سياسي إلى عصبية ذات قوة عسكرية تحمي الحكم بقوة السلاح .

إذاً من الصعب أن ننكر وجود العصبية .



عصر المهدي والهادي

هذا العصر استمرار لعصر المنصور

رأينا في البحث السابق ما قام به أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور من توطيد الحكم العباسي ، ورأينا اتجاهها وفكرتها الأساسية ، ثم رأينا تنظيم أبي جعفر المنصور للحكم العباسي ، وما كان له من رأي وترتيب ، وننتقل اليوم إلى البحث عن خليفتين تبعا أبا جعفر المنصور واستفادا مما فعله ، وأكملا عصره مع اختلاف يسير في الاتجاه ، وهما المهدي والهادي .

شغَل عصر هذين الخليفتين بقضية عامة وهامة ، وهي ملاحقة الزنادقة ومحاربتهم ومحاولة إبادتهم : هذه القضية العامة وسَمت عصرهما وجعلت عصر الهادي صلة لعصر المهدي واستمراراً لنمط الحكم : إلا أن كل عهد منهما يتميز بما ينعكس عليه من أخلاق كل منهما ، فالمهدي كان ليّن الطبع متسامحاً ، بينما كان الهادي قاسي الطبع جافياً .

عهد المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ)

نتناول أول الأمر البحث عن خلافة المهدي وعن صفة حكمه واتجاهه وأعماله . إن المهدي استفاد كل الاستفادة مما قام به والده أبو جعفر المنصور ، فقد وجد الخزائن مليئة بالمال ووجد الأمن مستتباً مستقيما ، ووجد الناس خاضعين للخليفة يأتمرون بأمره ويهابونه . استفاد المهدي من

كل ذلك ، ثم برزت شخصيته في حوادث عصره وترتيباته ، هذه الشخصية هي شخصية الرجل اللين الجانب ، المحب للناس ، ينشد ودّ الناس له وإقبالهم عليه ، يستحي منهم ويحرص على محبتهم . هذه الصفة طبعت بطابعها أعمال[1] المهدي وشكل السياسة التي اتسمت بها ؛ إلا أن هذه الصفة لم تكن ذات أثر خاص في معاملته للزنادقة ، فقد كان في هذا الأمر قويّ الجانب ، يبطش بطش من لا يخاف ولا يخجل .

سنرى أثر كل من هذين الاتجاهين : أما لين جانبه ومحبته للناس وطلبه ودّهم ، فقد كانت سياسته تبغي تألّف القلوب والتودد إلى الناس والحصول على رضاهم ومحبتهم . وقد استطاع المهدي أن يصل إلى بغيته في ذلك . فكان محبباً إلى الناس ، مقرباً إليهم . والذي فعله في ذلك هو أنه قبل كل شيء تودّد إلى الأعداء ، فأطلق سراح المسجونين الذين سجنهم والده لأسباب سياسية ، لا لأسباب شرعية ، أطلق هؤلاء وأعطاهم الحرية بعد أن كانوا معذبين في السجون ؛ ثم إنه استعمل السياسة نفسها ، سياسة الود مع أتباعه وقواده وأهله ، فهو قد فرّق المال على أصحابه ، أخذه من الخزائن المليئة ووزع منه بسخاء . وقد ذكر عنه أنه جلس يعطي جوائز تقسم بحضرته في خاصته من أهل بيته والقواد ، فكانت تقرأ عليه الأسماء ، فيأمر بزيادة العشرة الآلاف والعشرين ألفاً ، وما أشبه ذلك (الطبري ٦ / ٣٩٤) وكان هذا سنة ١٦٩هـ . ثم إنه ردّ القطائع لأهله من البيت العباسي ، وكانت قد صودرت منهم (وهي كبيرة جداً) . أما مع الشعب فقد اتخذ طريقة صالحة في معرفة آراء الشعب .

(١) يبدو أن المنصور وجه المهدي هذه الوجهة الحسنة وأراد أن يهيئ للمهدي عهداً مريحاً ، فقد ذكر ابن الأثير (٦ : ١٠) النص التالي : « قال [المنصور] للمهدي : قد هيأت لك شيئاً ، فإذا أنا متّ فادع من أخذت ماله فاردده عليه ، فإنك تستحمد بذلك إليهم وإلى العامة » - المنقح .

فقد فتح سجلاً للمظالم ، وأسس ديواناً له ، وفتح شبّاكا خاصا في قصره للرقاع ، تقدم إليه شكاوى ومطالب . وكان يجلس للمظالم في كل يوم ، وكان يحضر مجلسه القضاة ، وكان يقول : « إن لم أستح من أحد فإنما أستحي من هؤلاء » . وكان يرد المظالم إلى أهلها .

انتهاج سياسة الودّ

واستعمل سياسة التودد مع أهل الحجاز بصفة خاصة ، فالحجاز موطن آل عليّ[1] والأنصار . وكان الأنصار ميالين إلى آل علي ؛ وكانوا جميعاً متذمّرين من عصر أبي جعفر المنصور لشدته ، وإذا بالمهدي يجود عليهم بالمال بسخاء . يقول الطبري : « وقسم المهدي بمكة في أهلها فيا ذُكر مالا عظيما ، وفي أهل المدينة كذلك ، فذُكر أنه نظر فيا قسم في تلك السفرة ، فوجد ثلاثين ألف درهم ، حُملت معه ، ووصلت إليه من مصر ثلاثمائة ألف دينار ، ومن اليمن مائتا ألف دينار ، وقسم ذلك كله ، وفرض من الثياب مائة ألف ثوب » . (الطبري ٦ / ٣٦٦ من حوادث سنة ١٦٠ للهجرة) . إنه بنى المنازل على طريق مكة ، وسهل الوصول إليها . وأقام المصانع[2] في طريقها ، ووسع أعماله في ذلك كل التوسيع .

إنه تودّد إلى **الأنصار** ، فاصطفى لنفسه منهم خمسمئة رجل وألحقهم بشرطته وحرسه ، يدافعون عنه ويحرسونه ؛ وأغدق عليهم العطاء والأموال ، وبكل ذلك دان له الحجاز . فأرسل عدداً من الزيدية ولاة في الأمصار ، وكان هذا الأمر لا يحدث لهم من قبل ؛ ودامت صلاته حسنة مع آل علي حتى آخر حياته .

---

(١) سيلاحظ القارئ أنني وضعت (آل علي) عوضاً عن (العلويين) حيثما وردت : فعلت ذلك لأميز بين المفهوم القديم والمفهوم المتأخر لهذه الكلمة ـ المنقح .

(٢) المصانع : يقصد بها صهاريج الماء .

محاربة الزندقة

هذه سياسته في التودد وتألّف القلوب ، وقد نجح بها كل النجاح ، وقاده إليها طبعه اللين وحبه للناس بقصده ورغبته في محبتهم له ، أحبه هؤلاء ورأوا فيه خليفة صالحاً كل الصلاح . غير أن هذا اللين في الجانب ينقلب فيصبح شدة وقسوة على الزنادقة ، الذين كثروا في عصره . وأخذت حركاتهم أشكالا عديدة : فهي تارة إلحاد ، وطوراً تهكّم بالدين وأهله ، وطوراً اعتقاد خاطئ . ويُلاحظ أن الزندقة تتجه نحو الإلحاد أكثر مما تتجه نحو الأطوار الأخرى .

نتحدث فيا يلي عن بعض فئات الزنادقة :

المانوية : دين وضعه **ماني** في القرن الثالث الميلادي ، وضعه على أساس التثنية ، الإيمان بالتثنية [النور والظلمة] . ولسنا هنا بصدد البحث عن المانوية بحثاً مفصلاً ، فذلك يأتي في برنامج آخر ، عند البحث في تاريخ الأديان ، لكن الذي يجب أن نقوله هنا : إن المانوية في عصر المهدي كانت تتجه اتجاهاً خاصاً ، ولها تعاليم وطقوس خاصة ، ولعل بعض هذه التعاليم ليس له أصل في عصر ماني نفسه . نجد المهدي نفسه يحدد أمر الزنادقة حين يوصي ولده الهادي في شأنهم ؛ وإليكم ما قاله الطبري في ذلك على لسانه (٦ / ٣٤٣ سنة ١٦٤هـ) : « تجرّد لهذه العصابة فانها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم وعدم مسّ الماء الطهور ، وترك قتل الهوامّ تورّعا وخشية ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأمهات والبنات ، والاغتسال بالبول ، وسرقة الأطفال من الطرق لينقذوهم من ضلال الظلمة إلى هداية

النور ، فارفع فيها الخشب وجرّد فيها السيف » . فالمانوية إذاً في عصر المهدي تقوم على **الزهد والرهبنة** ، ولكنّ فيها نوعاً من انتهاك الحرمات إلى جانب خروجها عن التوحيد .

وقد حارب المهدي هذه الفئة محاربة شديدة ، وشملت تدابير القمع والإبادة كل متزندق ملحد منتهك للحرمات . الذين انتموا إلى الزندقة كان أكثرهم فرسا ، ولم تكن غايتهم دينية فحسب ، بل كانوا إلى جانب ذلك يدعون إلى **الشعوبية** ومحاربة العرب والعروبة ، ويسلكون إلى ذلك سبيل السخرية والضحك من كل ما هو عربي . إن تهكمات بشار بن برد وصالح ابن عبد القدوس وأمثالها يمكن أن تؤخذ مثلاً على ذلك . حارب المهدي هذه النزعة محاربة شديدة ، ونظم ملاحقة الزندقة تنظيماً دائماً ؛ فعهد إلى أحد أصحابه بتتبعهم وسماه **صاحب الزنادقة** وهو عمر الكلواذي [1] ، ويذكر لنا الطبري (٦ : ٣٨٩ حوادث ١٦٧ للهجرة) : « جدّ المهدي في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم ، وولّى أمرهم عمر ، فأخذ [2] يزيد بن الفيض كاتب المنصور ، فأقرّ فيما ذُكر [3] ، فحُبس ، فهرب من الحبس ، فلم يقدر عليه » .

لعل هذه الحركة كانت لها صلة بما كان يحدث من مؤامرات في بلاد فارس وخاصة في **مرو** فإلى هذه البلدة بعث المهدي **عبد الجبار المحتسب** لجذب من بتلك الناحية من الزنادقة ، ففعل وأتاه بهم وهو بدانق ، فقتل جماعة منهم وصلبهم ، وأُتي بكتب من كتبهم فقطعت بالسكاكين ، وذلك بعد أن انتهى أمر المقنّع .

---

(١) ذكره ابن الأثير (الكلوذاني) ـ المنقح .

(٢) (كذا) والقصد : أخذه بالزندقة أو أخذه ـ المنقح .

(٣) القصد من هذه الكلمة : « ذكر عنه من أمر الزندقة » ـ المنقح .

ثورة المقنع

أمــا المقنّـع[1] فهـو رجـل قصير دميم خرج بمرو وادّعى **الألـوهيــة** ، فقال : « إن الله خلق آدم على صورته ، ثم انتقلت هذه الصورة إلى الأنبيـاء واحداً فواحدا ، وانتقلت إلى أبي مسلم ثم إليه » . ولما كان دميم الخلقة ، فقد وضع قناعاً من الذهب على وجهه ، أخفى به وجهـه حتى لا يراه أتبـاعـه . قال بالتناسخ ، وتبعه خلق كثير وخضعوا له وآمنوا به ، فأرسل إليه الخليفة جيشاً بقيادة **معاذ بن مسلم** ، فحاصره في مدينة سبام ، فتحصن بها ولما لم يجد مخرجـا ، جمع كل الأموال والمؤن التي كانت في تلـك المـدينـة من ثيـاب وغيرهـا ، وأحرقها في النـار ، وطلب من أتبـاعـه وأهلـه وأولاده أن يلقـوا بـأنفسهم معـه في تلــك النــار ، وقــال لهم : « من أراد النعيم فليلحقني إلى النار » ورمى بنفسه فيها ، فرمى أصحـابـه بـأنفسهم واحترقوا جميعـاً ، ولمـا دخل المسلمون المدينة لم يجدوا فيها شيئا .

ومن أعمال المهدي التي قد ننسبها إلى محبته للدين وإلى القضاء على كل انتهـاك لـه ، هـو أنـه ردّ نسب آل أبي بكر من ثقيف إلى ولاء رسـول الله ، وردّ نسب آل زيـاد بن أبيـه إلى سميّـة وألحقهم ببني ثقيف ، وأبطـل نسبتهم إلى أبي سفيان[2] .

هذا ما نقوله في المهدي وفي الأعمـال التي قـام بهـا من سيـاسـة داخليـة تودد بها إلى الناس وحببهم بالخلافة العباسية ، فقضى على الضيق الـذي كان في عصر والده ، واستقبل الناس الخلافة العباسية باستبشار بعد كبت .

---

(١) راجع قصته في ابن الأثير (٦ : ص ١٣ و ١٧) ـ المنقح .

(٢) ابن الأثير (٦ : ص ١٦) ـ المنقح .

الهادي (١٦٩ ـ ١٧٠هـ)

ملاحقة الزنادقة

أما ابنه الهادي الذي أصبح خليفة بعد وفاة أبيه عام ١٦٩ للهجرة فقد تتبع الزنادقة على طريقة والده وبوصية منه خاصة ، تتبعهم بشدة كبيرة ، يقول الطبري (٦ / ٤٠٨) : « وفي هذه السنة اشتد طلب موسى الزنادقة ، فقتل منهم جماعة فكان ممن قتل منهم يزدان بن باذان كاتب يقطين ، وابنه علي بن يقطين من أهل النهروان . ذُكر عنه أنه حج ، فنظر إلى الناس في الطواف يهرولون ، فقال : « ما أشبِّهم إلا ببقر تدوس في البيدر » . فقتله موسى ثم صلبه . وقتل من بني هاشم **يعقوب بن الفضل** وقد اعترف بالزندقة ، ووجدت فاطمة ابنة يعقوب حُبلى منه وأقرَّت بذلك ؛ ففي الحادثة الأولى قتل من امتهن الحرمات وضحك واستهزأ بها ، وفي الثانية قتل من أعضاء أسرته وأهله من أُخذ بالزندقة .

معاملته :

سياسته في الزندقة إذاً صلة لسياسة والده ، إلا أنه اختلف عنه في معاملته للناس ، فقد كان طبعه مختلفاً عن طبع والده ، كان والده لين الجانب محبباً إلى الناس ، وكان هو شرساً في معاملته ، جريئاً قاسياً شديدا ، لا يهتم بالناس ، ولا يهتم بما يقولون عنه ؛ وكانت سياسته متمشية مع أخلاقه وطبعه ، خالف سياسة والده في تألّف قلوب آل عليّ ، فتتبعهم وقسا عليهم ، وقطع عنهم الصلات والعطاء وجفاهم ، وجفاهم عماله أيضاً . فكان من ذلك ومن غيره أن خرج **الحسين بن علي** (من سلالة الحسن بن علي) في المدينة عليه ، واستولى على بيت مالها وتبعه خلق ؛ فأرسل إليه

من حاربه في فخ[1] فقُتل فيها . يذكّرنا مقتله فيها بمقتل الحسين بن علي[2] في كربلاء .

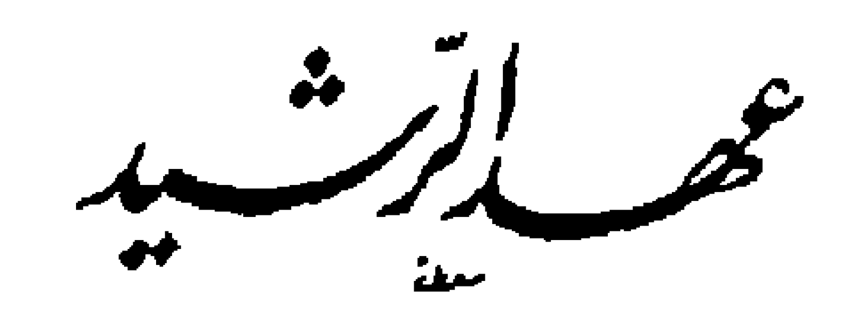
كان طبع الهادي هو الذي يملي عليه سياسته ، لكنه يمثل مجمل السياسة العباسية في ذلك ، فهي سياسة تتبّع آل عليّ ومنعهم من إظهار أمرهم .



---

(١) فخ : واد في طريق مكة ، يبعد عنها ستة أميال ـ المنقح .

(٢) لقد قيل كثير من القصائد في الرثاء وتذكر فاجعة كربلاء ـ المنقح .



١٧٠ ـ ١٩٣هـ

ازدهار الحضارة

يمثل عهد الرشيد في التاريخ العربي الإسلامي أزهى عصرٍ وأجمل زمنٍ وصلت فيه الدولة إلى أوسع رقعة . انصبت فيه التيارات الثقافية المختلفة الناشئة قبل ذلك العصر ، فاجتمعت متحدة متوائمة ، وبدت في أجود مراحل حسنها وبهائها ، فكان عصره حقاً أبهى العصور ، مثّل لنا الكمال والبهاء في التاريخ العربي الاسلامي ، ومثّله أيضاً على هذا المستوى في التاريخ العالمي ، فالغربيون حين ينظرون إلى تاريخنا ، يرون هذه الفترة أجمل مراحل تاريخنا .

منحى التطور التاريخي

ومع ذلك يجب أن نلاحظ أيضاً أن هذا العصر على حسنه وبهائه هو عصر انطلقت فيه تيارات منافية جديدة هي تيارات الانخذال والانشقاق ؛ ومنذ هذا العصر بدأ نجم التاريخ عندنا يسير نحو الأفول . يبدو ذلك غريباً إلا أنه واقع صحيح : فمنذ عصر الرشيد أخذت المملكة تنشق ، وأخذت الدويلات تتأسس في مشرق الدولة ومغربها مستقلة متباعدة عن المركز . ما الذي جعل هذا العصر يأخذ هاتين الصفتين : يعلو حتى يبلغ أعلى نقطة في الارتفاع ، ثم يبدأ في الهبوط وكان جديراً به ألا يهبط ؟ .

لنبحث عن معنى هاتين الصفتين وعن أسبابها ، وعما دعا إلى أن تكونا كذلك . يبدو أنه ليس من الغريب أن يكون هذا العصر زاهياً ، فقد كان كل شيء يدعو إلى أن يكون كذلك ، فالخلافة العباسية قد استقرت واتزنت ، وزال أعداؤها ؛ وتوطدت أركانها ، وسمت أحكامها ، فهي فيما يتعلق بالعمران أصبحت عامرة بمدنها وطرقاتها ووسائل النقل فيها ؛ امتلأت بالبضائع تأتيها من أنحاء العالم . عمرت خزائنها بالخراج يجمع ، والضرائب تحصّل ، فلا توقُّف في ذلك ولا اضطراب . أما في ميدان السياسة فقد تمهدت الأمور تماماً ، كما رأينا فليس من نزاع خطير بين الجماعات ظاهر ، وها هم أولاء العرب والفرس كفّوا تقريباً عن النزاع بعد أن كان الواحد منهم ينظر إلى الآخر شذرا . ثم ها هم أولاء المخاصمون للدولة والخارجون عليها قد استكانوا إلى حدّ ما ، بما فعله المهدي من تودد وتآلف . وقد يظن أن الهادي قد ضرب هذا الهدوء في موقفه من آل علي ، ذلك الموقف المتشدد ، ولكن مع ذلك فإن دولة الهادي لم تستمر طويلا ، فلم يفسد ما أحدثه والده . أما الخوارج الذين كانوا يقضّون مضجع الدولة من حين لآخر ، فقد أفل نجمهم وخفّ أثرهم ؛ وهم إذا خرجوا ، فإنما يفعلون ذلك بدافع من شدتهم ؛ وصار أملهم بالنجاح ضعيفاً .

الحركات الثورية

عصر الرشيد إذاً هادئ تقريباً من حيث الخروج على طاعة الدولة ، ومن حيث الثورات الأهلية والقلاقل . اللهم إلا ما يحدث في كل عصر مما لا بدّ منه . وقد حدث فعلا أن خرج **يحيى بن عبد الله** العلوي في الديلم . ثم اشتبه الرشيد في موقف موسى الكاظم بن جعفر الصادق في المدينة فحبسه . وحصل في هذا الدور نزاعات بين المضرية واليمانية في

الشام ، لكن هذه الحوادث جميعها لم تكن تهدد الحكم مباشرة . فهي نزاعات محلية ، وثورات مؤقتة .

وضوح نظام الحكم

أما من حيث التنظيم الإداري فقد استتب الأمر بالوزارة والدواوين ترتيباً وتنظيماً ، وإن عصر هارون الرشيد في ذلك يبلغ الشأو ، توضحت فيه أعمال الوزارة وتحددت صلاحيات الوزير ، وصارت الدواوين تسجّل وتراقب ، ولها أصحاب مختصون وفروع منسقة .

التقدم العلمي

أما من حيث العلم ، فإن هذا العصر يرى نهراً من تيارات في الرقي العلمي . وليس صحيحاً ما قيل إن عصر بني أمية غير زاهٍ من حيث الرقي العلمي ، فقد دفع إلى العصر العباسي بقدر هائل من المعرفة ونظر واسع في العلوم الدينية والعربية والتاريخ . ثم دفع الدور العباسي الأول إلى عصر هارون الرشيد ثروة كبيرة من العلم والمعرفة في اللغة والأدب وترجمة علوم الأوائل . فانصبَّ إذاً في بحر هذا العهد أنهار من العلم ، ونتج عن ذلك بحر هائل من المعرفة ، فظهرت محاسن التأليف ؛ وهذه هي البصرة وبغداد والكوفة تخلد عدداً كبيراً من العلماء ، تعدادهم يطول .

أما في شؤون الدين فقد استتب الأمر أيضاً فالزنادقة قد كُبحوا ، فوقف أمرهم . ولم يعودوا بقادرين على الظهور ، وأصبح للدين كلمته بين الشعب ، وخفت الاستهزاء بالمتدينين عما كان عليه قبل عدد من الأعوام .

بدء تفكك الدولة العباسية

كل هذا يدلنا دلالة واضحة على أن هذا العصر عصر خالد باهر زاهٍ إلاّ أن التفكك بدأ في هذا العصر أيضاً . وأسبابه أتت من عاملين :

١) طبيعة اتساع رقعة الدولة العباسية .

٢) أثر سياسة الرشيد في الحكم .

أما طبيعة الوطن العربي الإسلامي فقد كان من الصعب أن تستمر الوحدة في أرجاء تلك الدولة التي امتدت إلى الأصقاع النائية . فهل يستطيع الخليفة ووزراء الخليفة أن يراقبوا المغرب الأقصى وأن يستعيدوا أمرهم في الأندلس ، وهما بعيدان كل البعد عن بغداد . إذا ظهرت فتنة في هذين القطرين وأراد الخليفة أن يرسل جيشا ؛ فالجيش لا يبلغها إلا بعد شهور وشهور . وإن أراد أن يراقب الأحوال فيها عن طريق عيونه أو عماله ، فإن الأخبار لا تبلغه إلا بعد أمد طويل . فمركز الخلافة البعيد عن الأطراف يفرض استحالة تطبيق النظام المركزي في الأصقاع النائية ؛ وإنّ كل ما يستطيع أن يفعله هو أن يرسل عمالا له يثق بهم ، فيراقبهم بين الحين والحين ليبقوا مخلصين له ؛ ولكن متى شعروا بقوتهم في عزلتهم هذه ، فإنهم لا محالة يطمحون إلى التمتع بالحكم الذاتي . طلب إليه واليه من الأغالبة أن يترك له جباية الأموال وإدارة الأعمال في المغرب . وهذا يعني استقلاله عن المركز ؛ فرضي الخليفة به مضطراً[1] .

أما أثر أسلوب حكم هارون في تفكك الدولة ، فقد أتى من حادثة

(١) اضطر الخليفة للاستجابة قاصداً أن ينشئ دولة على حدوده تكون بمثابة الدرع تجاه الدولة الأموية في الأندلس والأدارسة في المغرب . (المنقح) .

سنورد تفصيلها فيما بعد : وهي أنه قسم الدولة بين أولاده فجعل كل واحد منهم مستقلا عن الآخر : شعرت خراسان في عهده وعهد ابنه المأمون باستقلالها ، فكان أن تمسكت بهذا الاستقلال في كنف الدولة الطاهرية . وهذا الحادث بالذات حادث توزيع الحكم بين ولدين من أولاد الرشيد أعاد النزاع بين الفرس والعرب ، وقسم الأمر بينهم : فعادت الأمور إلى أسوأ مما كانت عليه في أول عهد الدولة العباسية .

نقول إن الرشيد ليس مسؤولا عن اتساع رقعة المملكة ، وصعوبة مراقبتها ، لكنه إلى جانب هذا الوضع الدقيق فإنه ساعد على تشققها ، ولم يفعل شيئاً في المحافظة على وحدتها ، بل ترك الأمور تجري في أعنّتها ، وساعد الظروف على نيل امتدادها ؛ فكانت مسؤوليته في ذلك مسؤولية واضحة . لكن الحق يقضي أن نقول إنه لم يكن يقصد ما حصل ولم يتعمده ؛ والسر في الأمر أن لشخصيته أثراً قوياً في تطور عهده ، وأن عهده يتسم بشخصيته وطبعه[1] .

في طبع هارون الرشيد أشياء متناقضة ، فيها السمو والرفعة ، وفيها ما يخالف ذلك ، هارون الرشيد رجل لطيف غاية اللطف ، يعامل الناس برفق وتودد ، ويحب من الناس أن يعاملوه بمحبة وإقبال . إنه متواضع كل التواضع ، حتى أنه صبّ الماء على يدي أبي معاوية الضرير بعد الطعام ، وأبو معاوية لا يدري أن الخليفة يصب الماء على يديه . والرشيد خجول حيي غاية الحياء ، عندما عزم على قتل جعفر بن يحيى البرمكي . طلب جعفر من مسرور أن يجمعه بالخليفة ، وأن تراه عينه ، فعاد مسرور إليه

---

(١) لست مع المؤلف في المبالغة بأثر شخصية الرشيد في تطور الأحوال السياسية في عهده ، لأني أعتقد أن الظروف أقوى بكثير من أن يحول أحد في الحد من مداها ـ المنقح .

وطلب ذلك منه فلم يقبل . وقال بعد ذلك : « لو اجتمعت به ووقعت عيني على عينه لما قتلته حياء » . والرشيد متدين كل التدين كان يحج عاما ويغزو عاما . وهو أول من حج ماشياً على الأقدام . وكان يصلي صلاة في الليل غير مفروضة عليه . ثم هو إلى جانب ذلك يحضر مجالس الشرب ، ولعله كان يشرب النبيذ[1] على طريقة العراقيين . والرشيد يحب المظاهر والزهو ، وكان يعيش في قصره أرفه عيشة . وكانت أبهة الملك عليه في أقوى أشكالها . وكان فن البناء في عهده مزدهراً ، والمجالس عامرة بالتحف والبخور ووسائل الترف التي لم تجتمع لملك كما اجتمعت له .

وبعد كل هذا فهو رجل له نزوات غضب ، عاطفته جامحة قوية ، تضطرب في نفسه فيوقفها حياؤه وخجله ؛ إلا أنها متى استقرت في نفسه جمحت به ، فثار وضرب . قام بالشدائد واضطهد ، كانت حساسيته قوية جداً ، يثور للقول ، ويثور للفعل ، مع سعي منه بكبح جماح تلك الحساسية ؛ وعلى ذلك فهارون الرشيد يبدو لنا على حقيقته جامعا صفتين متناقضتين : صفة والده المهدي في حبه للناس وتودده إليهم وفي حبه مديحهم وفي دفاعه عن الدين وأخذه به ، وصفة أخيه موسى الهادي في شدته وغضبه وسرعة حساسيته وعنفه . وأرى أن عصره يمثل مجموعا من عصريها . ولعلنا لو أردنا أن نجلو عصره بهاتين النزعتين المختلفتين لوجدنا أنه يمكن تقسيمه إلى قسمين : قسم أول تتغلب فيه صفة التودد والحب ، وقسم تتغلب فيه صفة الغضب والجبروت ينتهي القسم الأول بمقتل البرامكة ، ويبدأ القسم الثاني من مقتلهم .

---

(١) النبيذ غير الخمر ، فهو يحصل من نبذ الفواكه في إناء ، يترك لمدة أيام قليلة ، فيفور ، يصفى ويبرد ويشرب ، وهو ليس بمسكر تماماً ـ المنقح .

وحينما استولى الرشيد على الخلافة ظهرت عاطفته ولطفه ووفاؤه . فقد حفظ ليحيي البرمكي موقفه الحكيم حين دافع عنه أمام الهادي عندما استشاره هذا في أن ينحي أخاه عن ولاية العهد ، وأن يعطيها ابنه ؛ فنصحه يحي بألا يفعل ، وقدم لذلك حجة جيدة فقال : « إن ابنك صغير السن ، وإذا دنا أجلك يا أمير المؤمنين لا يؤمن عليه من بني هاشم ، ولا يؤمن عليه من نفسه لصغره . والأحسن أن تنتظر حتى يكبر ، وأن تؤكد الأيمان على هارون في أن يرعى ابنك وفي أن يسلّمه ولاية العهد ، فإن فعلت حفظت الأمر له من بعدك » . حفظ الرشيد ليحيي فعلته هذه . فما أن استولى على الخلافة حتى فوّض إلى يحي كل شيء . وقال له ـ كما جاء في الطبري ٦ / ٤٤٤ ـ « لقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقي إليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت » وفي سنة ١٧٨هـ كما يروي الطبري (٦ / ٤٦١) عاد فكرر هذا الأمر ، وفوّض شؤونه كلها إلى يحي بن خالد البرمكي ، فهو إذاً كان في وفائه مغالياً كل المغالاة ، فقد ترك الأمور كلها في يد يحي . وبقي هو الخليفة بالاسم . تجلت له حقيقة الأمور يوماً من الأيام ، وإذا به يقتل جعفر بن يحي ـ كما سنرى ـ ، ويلقي القبض على كل البرامكة ما عدا واحداً منهم . وإذا به ينقلب منذ ذلك الحين فيستعمل البطش ويصادر الأموال ، حتى من غير البرامكة . ولو أنه قصر الأمر عليهم لكان له عذره الذي لم يوضحه ، لكنه تعدى هذا إلى غيرهم ، ففي السنة التي قتل فيها جعفر ، اضطهد الرشيد **عبد الملك بن صالح** قائده وواليه الوفي له ، اضطهده اضطهاداً شديداً وكاد يقتله ، وقتل في الحبس يحي بن عبد الله من آل الحسن وموسى بن جعفر الصادق أو تركهما يموتان بعلة ما . وهذا ما لم يفعله قبل نكبة البرامكة . تغير إذاً بعد تلك النكبة ، وأمسك بزمام الأمور

بيده ، وصار لا يعتمد إلا على نفسه . ويراقب كل شيء وبدت نزواته . خفّ إلى قتال الروم مرتين ، وخفّ بنفسه إلى قتال الخارجين عليه . سنرى في البحث القادم ما حصل خلال عصره ، وكيف اتجهت الأمور . نستطيع أن نقول منذ الآن إن للرشيد شخصيتين ، تطغى إحداهما على الأخرى . وهما شخصيتان متناقضتان كل واحدة منها قوية شديدة طبعت أعماله بطابعها الخاص .

العهد الأول للرشيد

ابتدأ هذا العهد عام ١٧٠ هـ باستيلاء الرشيد على الحكم بعد أخيه موسى الهادي ، وانتهى بنكبة البرامكة سنة ١٨٧هـ .

نكبة البرامكة

رأينا أن الرشيد في هذا العهد ترك الحكم للبرامكة وتخلى لهم عنه . فقد قلد يحيى بن خالد البرمكي الوزارة وخوّله فيها كل سلطان ، يفعل ما يريد ، يعزل ويعين ويجمع ويفرق كيفما شاء . فالعهد الأول للرشيد يتّسم بحكم البرامكة ويأخذ صفاته منهم ، لأن لهم التحكم به وهم أصحاب أمره ؛ وهارون الرشيد إنما يجاريهم فيه ويوافقهم على ما يتخذونه من أعمال . نعم ، إن ما حدث في هذا العهد يوافق طبع الرشيد ويوافق ميوله في الرفق بالناس ومحبتهم والعفو عنهم والرغبة في إرضائهم . كل ذلك صحيح لكن ما فعل في هذا العهد ، إنما هو عمل البرامكة بالذات ، فهم الذين يحلّون المشاكل ، وهم الذين يتصدون للأعمال ، وهم الذين يسيّرون الملك .

وانتهى العهد بزوالهم . لكن زوالهم إنما سببه الأساسي هو عهدهم بالذات ، إنه سياستهم نفسها ، وقد اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً حول أسباب نكبة البرامكة ـ وسنذكر ما قالوه في ذلك ـ لكنا نرى بادئ ذي بدء أن تفسير النكبة مرتبط بسياسة البرامكة نفسها ، وإذا بحثنا هذه السياسة وجلونا نواحيها ، تمكنا أن نفهم كيف آل الأمر بالرشيد إلى أن ينكب البرامكة وإلى أن يفعل فيهم ما فعل..

سياسة البرامكة مع آل علي

ونتناول سياسة البرامكة في جوانبها المتعددة ، فنتكلم أول ما نتكلم عن سياستهم مع آل علي ، تلك السياسة كانت سياسة رفق وشفقة ولين وعدم شدة . ففي أول الأمر في سنة ١٧١ للهجرة أمر هارون الرشيد بإخراج من كان في بغداد من آل علي وإعادتهم إلى المدينة إلا عدداً يسيراً منهم (الطبري ٦ / ٤٤٥) والمؤرخون عندما يقولون (أمر هارون الرشيد) إنما يريدون القول إن البرامكة هم الذين قضوا بالأمر . هذا الرفق بآل علي تبعه عمل آخر فيه اللين الكثير ، فقد خرج يحي بن عبد الله ، [وكان قد فرّ من موقعة فخّ] ، فسار إلى بلاد الديلم ، وهنالك اجتمع حوله عدد من الأصحاب والشيعة ، فصار يدعو لنفسه حتى تمكن من الأمر ؛ واشتدت شوكته وقوي أمره ، فأعلن عصيانه وخرج على الدولة ، فسار إليه الفضل بن يحي البرمكي بأمر الرشيد مزوّداً بالأموال والسلاح ، فسار إلى يحي وصار يراسله ويترفق به ، ولم يحدث اصطدام كبير بين الطرفين ، بل آل الأمر إلى أن اقتنع يحي بن عبد الله بأن يطلب الأمان من الخليفة ، وضمن الفضل ليحي ذلك الأمان من الرشيد بأيمان مغلظة أداها الرشيد ليحي ، فسلّم يحي نفسه ، فاستقبله الرشيد استقبالا حسنا ، وأكرمه إكراماً جميلاً . وقع ذلك

عام ١٧٦ هـ . وفي عام ١٧٩ للهجرة ألقى هارون الرشيد القبض على **موسى الكاظم بن جعفر الصادق** . وكان قد سمع أنه يتلقى من شيعته خمس المال وأنه يهيئ نفسه للخروج . فألقى القبض عليه ، وأتى به إلى بغداد ، وسلّمه إلى البرامكة ، فاحتفى به البرامكة ، وأكرموه إكراماً جزيلاً ، فلقي عندهم أحسن ما يتمنى . وهكذا نرى أن سياسة البرامكة مع آل عليّ سياسة رفق ولين ، ولعلها سياسة محبة وميل ؛ إلا أننا لا نقطع بذلك .

سياسة البرامكة مع العصبية العربية

أما سياستهم مع العصبية العربية ، فهي سياسة إخماد للفتنة ، إلا أنها لم تستطع أن تقضي عليها قضاء مبرما ، فهذه فتنة بين المضرية واليمانية في الشام . قيل إنها من أجل بطيخة ، فقد تعدى أحد المضريين على بستان يماني وأخذ بطيخة منه ، فتقاتل الاثنان ، وأدى ذلك إلى فتنة استمرت حيناً من الزمن ، وجهز الرشيد جعفر بن يحي لتسوية الأمور فسواها ، لكن الفتنة لم يقض عليها تماماً . وعادت مرة أخرى بعد ذلك .

سياسة البرامكة في المال والتنظيم

هذا والسياسة المالية للبرامكة تعطينا فكرة واضحة عن العمل الذي قاموا به وعن اتجاههم ، فهي سياسة جمع للمال لا ريب . وهي سياسة تنظيم للدواوين ولجمع المال .

والبرامكة أحسنوا إدارة المال ، لكنهم كانوا ينفقونه إنفاقاً واسعاً جداً ، بحيث كان المال يأتي إليهم ثم يخرج منهم ، ويكاد أن يتم ذلك في ساعة واحدة . والذي يقع تحت أيديهم من المال كان أكثر مما يقع تحت يد الخليفة نفسه ، وكأن مال الدولة مالهم ، وكأن ضياع الدولة ضياعهم ، والبرامكة لم

يكونوا أصحاب ثروة طائلة قبل الحصول على الوزارة ، وإذا بهم في عهد حكمهم يمتلكون أحسن الضياع ويعمرون أجمل البناء ، وهذا جعفر يعمر قصراً في بغداد لم يدخل في بنائه لبنة واحدة . ومعنى ذلك أنه لم يستعمل

مادة البناء التي كانت تستعمل في العراق ، وأنفق على بيته هذا أموالاً هائلة لا تعدّ ولا تحصى ، وكأنّ لسان حاله يقول فيه : إن كل شيء في هذا البيت حسن إلا أن صاحبه زال من الوجود . وتقصّ علينا الأقاصيص عن كرم البرامكة وعن بذلهم المال ، والمتأمل في بغداد كان يستطيع أن يرى أكثر محاسن بغداد من عمل البرامكة . وأن الخليفة وأبناءه وأقاربه ليس لهم في بغداد إلا القليل من الكثير الذي يعود للبرامكة .

سياسة البرامكة القومية

هذا والسياسة القومية التي اتبعها البرامكة في هذا العهد سياسة لها معناها عند من يختبر الأمور ، فقد كان لهم الأمر في التعيين ـ كما قلنا ـ ، فعينوا أقاربهم وأصحابهم وأبناء جلدتهم من العنصر الفارسي ، وكانوا يحيطون أنفسهم بالفرس ، ومن الفرس من كانوا من الشعوبية **كسهل بن هارون** ، وكان كاتبهم ، ثم أدخلوه في خدمة الرشيد في بيت الحكمة . وكان يكتب وينقد العرب وهو في خدمة الرشيد ؛ ثم هذا هو **الفضل بن يحيي** يذهب إلى خراسان سنة مئة وثمان وسبعين للهجرة ويكون عاملاً عليها للرشيد ، فيتخذ ـ على ما يقوله الطبري (٦ / ٤٦٤) ـ جنداً من العجم سماهم **العباسية** وجعل ولاءه له ـ أو للبرامكة ـ وبلغت عدتهم خمسمئة ألف رجل . وأحضر منهم إلى بغداد عشرين ألفاً . وهو جيش يدين للبرامكة ، ويعيش لهم ولأجلهم . بل قيل إن **موسى بن يحيي** كانت له شيعة في خراسان يراسلهم من بغداد نفسها . ويعلم بذلك الرشيد فيوقفه ويعزّره ،

ولا يطلقه إلا بعد أن تتوسط والدته ، وكانت عزيزة على الرشيد لأنها والدته من الرضاع . ولعل الرشيد شعر أن البرامكة يقومون بأمر في خراسان فاستبعده منها ، وأرسل إليها والياً هو **علي بن عيسى بن ماهان** حوالي عام ١٧٨ للهجرة ، وكان هذا الوالي خصماً للبرامكة ، ولو أنه فارسي مثلهم ، وكان البرامكة يعطفون على خراسان ، ويخفضون الضرائب عنها . وبذلك يقل الوارد منها ، وفي هذا ميل ظاهر وتفضيل لذلك القطر ، وبالتالي للعصبية الفارسية .

سياسة البرامكة الداخلية

خلاصة سياستهم الداخلية في هذا العهد أنها ميل إلى العنصر الفارسي ، ورفق بآل علي ، وإشفاق على خراسان وتقرّب من أهلها ، وهي أكثر من كل ذلك استبداد البرامكة بالدولة وبأموالها . استمروا على هذه السياسة من سنة ١٧٠ إلى سنة ١٨٧ هـ أي سبعة عشر عاماً كانوا هم فيها أصحاب الأمر في الدولة الإسلامية . والخليفة يصدر عن رأيهم ، ويعقدون الألوية باسمه ، ويكتبون الرسائل باسمهم ، وكل شيء يتم بمعرفتهم وبتوجيههم . كل ذلك والرشيد يراقب الأمور وهو ساكت أو لعله راض ، إن لم يكن في الباطن ففي الظاهر . وقد حمد لهم أنهم وقفوا إلى جانبه ، ولا سيا منهم يحيى عندما أراد أخوه الهادي إزاحته عن الحكم وتولية ابنه مكانه ، فاستمر في لطفه وحبه لهم سبعة عشر عاماً ، لكن من الطبيعي والعادي والبديهي ألا تستمر الأحوال على ذلك فالرشيد مهما طال به الأمر ، فلا بدّ أن يأتي عليه يوم يفكر فيه في حاله ويشعر أنه بلا سلطان ، وأنه خاضع لهؤلاء الوزراء . ولا بد أن يسمع من ألسنة الناس شيئاً يدل على الوضع . وحساد البرامكة كثيرون . فلا بد من أن يذكروا للرشيد ما استتر من أعمالهم ، وإن لم يكن

قد قيل له شعر يحرّك فيه عنصر القسوة : « إنما العاجز من لا يستبد » فقد قيل له مثل هذا وما حدث في عصر المنصور كان لا بد من أن يحدث في عصر الرشيد . فالمنصور تحمل أبا مسلم الخراساني ، ورأى أن الأمر سيخرج من يده إلى أبي مسلم ، وخشي على الخلافة منه ، وكذا كان الأمر عند الرشيد ، فكان لا بد من أن يزيح هذه الأسرة يوما . ويبحث المؤرخون عن أسباب نكبة البرامكة ... وأسبابها هي ما تقدم من القول في سياستهم نفسها ، فقد كانت حريّة بأن تؤدي إلى النكبة ، وإلا ظلّ الرشيد مغلوباً على أمره . وكان السبب في حدوثه هو السبب البعيد غير المباشر الذي ذكرناه .

ليست النكبة تعني أن الرشيد قد فقد عاطفته نحوهم ، وأنه أنكر جميلهم . لا ، وإنما كان الحادث إنقاذاً للموقف المتدهور .

السبب المباشر

ومع ذلك فإن هناك سبباً مباشراً أدى إلى الحادثة نفسها ، فما هو هذا السبب المباشر ؟ - راح المؤرخون يفسرون هذا السبب ويستخرجون خفاياه ، وقالوا أقوالاً كثيرة : فمنهم من ادعى بأن الأصل زواج جعفر بن يحي بالعباسة أخت الرشيد ؛ فادعوا أن الرشيد لا يستطيع أن يفارق أخته ، ولا يستطيع أن يفارق جعفرا ، فعقد الزواج بينهما على ألا يكون بينهما ما يكون بين الزوجين ، لكنهما - على ما تقول الرواية - خالفا هذا الشرط ، فكان ذلك سببا في مقتل جعفر . هذا السبب غير حقيقي ، حتى ولو صح أن العباسة كانت قد خالفت وصية الرشيد بأن لا يكون الزواج حقيقياً .

يذهب مؤرخون آخرون إلى ذكر أسباب أخرى يعددونها فيقولون :

كانت وشاية الفضل بن الربيع لدى الرشيد في قضية إطلاق سراح يحي بن عبد الله من آل علي ، لها الأثر الأكبر ، وكانت أموال البرامكة وضياعهم سبباً أيضاً ، وكانت قصائد المديح التي تقال في حقهم سبباً .. ويعدون الكثير من الأسباب الأخرى .

وقد يكون كل ما ذكروه ذا أثر في النكبة ، وقد تكون تضافرت جميع الأسباب فأدت إلى النكبة ، لكنا لا نعلم بالضبط والتأكيد كيف فكر الرشيد بقتل جعفر ؟ وكيف انتهى به الأمر إلى ذلك ؟ إن هنالك صعوبة ولا ريب في كشف الأمر ، فهارون قد استمر بقية حياته وهو غير نادم على نكبتهم ، فهو لم يطلق سراحهم حتى بعد أن قتل جعفراً بزمن بعيد ، وأبقاهم في الحبس وصادر أموالهم إلى آخر عهده ، فتصميمه على إنزال النكبة فيهم لم يكن نزوة أو طيشاً ، وإنما كان صادراً عن سبب عميق ، لم يشأ أن يبوح به الرشيد لإنسان[1] ، بل أخفاه حتى عن ولديه الأمين والمأمون ، فلم يكن إنسان يدري لماذا قتل الرشيد جعفر بن يحي ؟ ولماذا نكب البرامكة ؟ مهمة المؤرخ إذاً صعبة في اجتلاء الأمر ، وكان يكفينا أن نقول إن الأسباب غير المباشرة هي التي دعت إلى ذلك ـ وقد ذكرناها من قبل ـ لكن التاريخ يتطلب منا في حادثة كهذه أن نبذل جهدنا في استجلاء الحقيقة ، وأن ندلي بدلونا بين دلاء من حاولوا التعرف على الأسباب الأصيلة ؛ ومع ذلك فإني مع علمي بأنه من الصعب اجتلاء الأمر سأحاول محاولة في ذلك ، لعلها تنير بعض الشيء سبيل الباحث إلى ما حصل

قد يكون في الظروف التي حدثت فيها النكبة دليل على ما كان يخامر

---

(١) يورد ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٠ : ١٨٩) رواية عن تكلم الرشيد في هذا الأمر مفادها : « لو أعلم أن قميصي يعلم ذلك لأحرقته » ـ المنقح .

الرشيد من أفكار وما يواجهه من مشاكل . والمؤرخون بأجمعهم لم يدرسوا هذه الظروف ، ولم يرجعوا إلى الحادثة التاريخية نفسها وما سبقها [1] من أمور . ولو درسنا حادثة النكبة في مكانها من حوادث عصر هارون لوجدنا أن لها صلة بحادثة أخرى ، وهذه الصلة قد تكون صلة المسبب بالسبب .

كتابة العهد وتعليقه في الكعبة .

نحن الآن في عام مئة وستة وثمانين للهجرة ، وفي هذا العام يحج هارون الرشيد ، وفي مكة يكتب ثلاثة عهود لأبنائه ، أو بالأحرى ثلاثة عهود بأسماء أبنائه ، وكان الرشيد قبل ذلك قد عهدبولاية العهد بعد الأمين إلى المأمون ثم إلى القاسم بعد المأمون ، حتى إذا حج عام ١٨٦ هـ جعل كلا من الأمين والمأمون يكتب عهداً على نفسه في قيامه بواجبات عهده وفي قبوله بما اشترط عليه ، وعلق هذه العهود في الكعبة بعد أن أشهد عليها القضاة والقواد والعمال .

أحد هذين العقدين بتوقيع محمد الأمين وبلسانه ، والآخر بتوقيع المأمون ، يشهد كل منهما على نفسه أمام الشهود العدول والقضاة والقواد بوفائهما لما في الكتابين . وأول هذين الكتابين يرد في الطبري (٦/ ٤٧٦) ونقتطف منه بعض الأقوال ، يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين كتبه محمد [2] بن هارون أمير المؤمنين في صحة من عقله وجواز من أمره ، طائعاً غير مكره ، أن أمير المؤمنين ولاّني العهد من بعده وصيّر البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً ، وولى عبد الله [3] بن

---

(١) أرى أيضاً أن ينتبه الباحث إلى ما تلاها من الحوادث ـ المنقح .

(٢) أي الأمين .

(٣) أي المأمون .

هـارون أمير المؤمنين العهـد والخلافـة وجميع أمـور المسلمين بعـدي برضى مني وتسليم طائعاً غير مكره ، وولاه خراسان وثغورها وكورها وحربها وجندهـا وخراجها وطرزها وبريدها وبيوت أموالها وصدقاتها وعشرهـا وجميع أعمـالها في حياته وبعـده ...[1] فـإن حـدث بـأمير المؤمنين حـدث الموت ، وأفضت الخلافة إلى محمد بن أمير المؤمنين فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هـارون ... ليس لمحمد بن أمير المؤمنين أن يحول عنه (عن أخيه المأمون) قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن انضم إليه من أصحابه الـذين ضمهم إليـه أمير المؤمنين ؛ ولا يحوّل عبد الله عن ولايته التي ولاه إياها هارون من ثغور خراسان وأعمـالها كلها .. ولا يفرق أحداً من أصحابه وقواده عنه ، ولا يولي عليه أحـداً . ولا يبعث عليـه ولا على أحـد من عمـالـه وولاة أموره ، بنـدارا (مفتشـاً) ولا محاسباً ، ولا عاملاً ، ولا يدخل عليـه في صغير من أمره ولا كبير ضرراً ... فإن أراد محمد بن أمير المؤمنين خلع عبد الله بن أمير المؤمنين ولاية العهد من بعـده ، أو عـزل عبـد الله بن أمير المـؤمنين عن ولايـة خراسـان وثغـورهـا وأعمـالهـا ... أو صرْفَ أحـدٍ من قـواده .. أو أن ينتقصـه قليـلاً أو كثيراً ممـا جعله له أمير المؤمنين ... فلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين ، وهو المقدم على محمد بن أمير المؤمنين ، وهو ولي الأمر من بعد أمير المؤمنين و [لـه] الطـاعـةُ من جميـع قـواد أمير المـؤمنين ، وأنتم في حِـلٍ من البيعة التي في أعناقكم لمحمد بن أمير المؤمنين هارون إن نقص شيئاً ممـا جعلـه له أمير المؤمنين هارون ... » إلى آخر ما ورد في هذا الكتاب .

ويظهر من هذا النص واضحاً التشـديـد على الأمين في القيـام بـالوفـاء

---

(١) النقاط المتتالية تشير إلى انقطاع في النص . لم يثبت هنا من النص إلا ما له علاقة وثيقة بالموضوع . المنقح

للمأمون ، وذلك التشديد يذهب إلى درجة يجعل فيها الأمين خارجا على الخلافة بعيداً عنها إن هو انتقص شيئاً مما في الكتاب . أما الكتاب الآخر ، ففيه التشديد أيضاً ، إلا أنه مبني على قيام الأمين بوفاء عهده ، يقول في الكتاب (الطبري ٦/ ٤٧٩) عن لسان عبد الله المأمون : « فشرطت لأمير المؤمنين وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد وأطيع .. وأنفذ كتبه وأموره ، وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه في ناحيتي ، ما وفى لي بما شرط لأمير المؤمنين من أمري .. فإن احتاج محمد بن أمير المؤمنين إلى جند وكتب إليّ يأمرني بإشخاصه إليه .. فعليّ أن أنفذ أمره ولا أخالفه .. الخ » هذا ملخص ما كتبه المأمون للأمين . وظاهر أن الرشيد شدد البيعة لكلا الأخوين على الصورة التي ذكرناها ، وكتب كتاباً بعد ذلك عندما عاد إلى الأنبار . كتبه إلى الولاة والعمال يخبرهم بما تمّ . ويذكر فيه أنه عمل هذا ، ليمنع كيد الحاسدين ، وليوقف حقد وسعاية من يحرّك بين الأخوين ، وليحدّ من أثر الشغب الذي قد يثيره بعض الناس .

ما هو غرض الرشيد من كتابة العهد ؟

والسؤال الآن : ما الذي دعا الرشيد إلى عمل هذين الكتابين ، وإلى الوقوف هذا الموقف ؟ إن الحوادث التي جرت قبل ذلك تفسر لنا الأمر . ففي عام ١٧٣ هـ كان الرشيد قد اشتمّ من بعض بني العباس رغبتهم في أن تكون الخلافة لهم من بعده ، وكان بنو العباس قد بلغوا في عهد الرشيد عدداً كبيراً ، وليس بين أيدينا إحصاءات عنهم في هذا العهد . إلا أن المأمون أحصاهم بعد ذلك . فكان عددهم جميعاً ثلاثة وثلاثين ألف شخص بين ذكر وأنثى ، ولو أن عددهم في عصر الرشيد كان نصف هذا العدد ولكن مع ذلك فهم كثيرون وذوو بأس . وأراد الرشيد أن يوقف اجتماعهم فبحث عن ولي

للعهد ، فأقبلوا عليه مع زبيدة يرجونه بأن تكون ولاية العهد للأمين دون المأمون . وكان الأمين في الخامسة من العمر ، ثم تفاقم بعد ذلك أمر البرامكة كما نعرف . وأصبحت الدولة في أيديهم وصار كل شيء لهم ، فثارت ثائرة العباسيين ، إلا أنهم لم يكونوا يستطيعون شيئاً ، فكونوا لأنفسهم نوعاً من العصبية ، والتفوا حول زبيدة امرأة الرشيد ، والتفوا حول الأمين . ففيه أملهم ، فهو ابن هاشمي من الأب والأم ، وزبيدة ما كانت تحب البرامكة شعر البرامكة بهذا الخطر ، فوسوسوا للرشيد بأن يولي ولاية العهد من بعد الأمين للمأمون ، أخذ الرشيد برأيهم . فولاه ذلك سنة مئة وثلاث وثمانين للهجرة ، وصار كل من الحزبين يجتمع حول ولي العهد ، ويوجهه وجهته . فالعباسيون ومعهم زبيدة التفوا حول الأمين ، ومعهم الفضل بن الربيع عدو البرامكة ؛ أما المأمون فحوله جعفر بن يحي البرمكي ، وحوله البرامكة . تفاقم الأمر بين الحزبين وأضمر الشر كل منهما لصاحبه ، وشعر بذلك الرشيد ، والحزبان هما أولاً : حزب عباسي ، وثانياً حزب برمكي . غير أن الحزب البرمكي له ميول خاصة ، ظهرت ميوله للرشيد في شأن آل عليّ ، فالبرامكة كانوا يعطفون عليهم ، وقد ذكرنا من قبل قصة خروج يحي بن عبد الله في الديلم ، وموقف الفضل وأخيه جعفر البرمكي منه ، وموقفهم مرة أخرى من موسى بن جعفر الذي أسلمه الرشيد إليهم ، فإن هذا الحزب إذاً حزب (برمكي - علوي) إن صحّ هذا التعبير . شعر الرشيد بتغلبهم على الدولة كما ذكرنا ، وشعر بميلهم العلوي ، وشعر بأنهم يوجهون المأمون وجهتهم ، حتى تشرب بحب آل علي ونقل ولاية العهد إليهم ، كما سنرى ذلك في عهده . لقد اعتمد الرشيد عليهم اعتماداً كبيراً وماذا يفعل ؟ إن أمامه أمرين لتحقيق رغبته : أولهما : أن يزيح من الطريق عوامل الفساد بين الأخوين ، وهو لا يستطيع أن يزيح العباسيين ، وامرأته من حزبهم ، وهم

لم يبدوا نحوه أي عمل سيئ ، لكنه يستطيع أن يزيح البرامكة وقلبه ممتلئ منهم ، فإذا أزاحهم ، فلن يكون هناك من يوغر صدر المأمون على الأمين ، ولا يجد حزب الأمين في المأمون عدواً ، وبإزاحتهم أيضاً يبعد السيل العلوي ، وبإزاحتهم أيضاً يعود الأمر إلى يديه . فيصبح الخليفة الفعلي بعد أن غدا الخليفة الاسمي . وثاني الأمرين آت من أن المأمون سيبقى وحيداً أمام أخيه دون حزب يعاضده إذا أزيح البرامكة ، فعلى الرشيد (إذا قوي المأمون بأخذ عهد شديد وأيمان موثقة على الأمين) أن يوازن بين الأخوين ، ويكون ذلك بعدم إعطاء المأمون قوة يواجه بها الأمين .

كان الرشيد قد ولّى المأمون خراسان ، لكن ماذا يستطيع المامون أن يفعل بخراسان إذا استولى أخوه الأمين على الخلافة ؟ فكر الرشيد فرأى أن يضم إليه جيشه ، وهو في معظمه جيش خراساني ، ورأى أن يؤكد على الأمين أن هذا الجيش بكامله (قواده وأمواله) للمأمون ، ولا يستطيع الأمين أن يأخذ منه شيئاً ، وبذلك تتساوى الكفتان ولا ترجح إحداهما على الأخرى ، فللأمين العراق إلى المغرب ، وللمأمون خراسان وجيش خراسان ، فكر الرشيد بذلك وحققه وأكد العهد على الأمين والمأمون .

ينتهي من كل ذلك ثم يعود إلى العراق فلا يدخل بغداد ، بل يسير إلى ناحية الأنبار ، وهناك يرسل كتباً إلى عماله في أقطار دولته يعلمهم فيها بما فعل في مكة . ويؤرخ هذه الكتب ليلة السبت لسبع بقين من المحرم سنة مئة وسبع وثمانين ، ويضمن هذه الكتب الإشارة إلى كيد الأعداء وتخييب آمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها ، فيقول : « ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك ويسأله العزيمة له على ما فيه الخيرة لهما ولجميع الأمة والقوة في أمر الله وحقه ، وائتلاف أهوائهما وصلاح ذات بينهما ، وتحصينهما من كيد

أعداء النعم ورد حسدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما » (الطبري ٦ : ٤٨١) من هم هؤلاء الحاسدون المكيدون الذين يوقعون بين الأخوين ؟ - الذي يخطر بالبال أنهم البرامكة ، ويظهر ذلك من الظروف التي أحاطت بإرسال الكتب إلى العمال . فلنذكر أن هذه الكتب وفيها التنديد بالأعداء الذين يتربصون الفرص قد أرسلت دون أن تحمل اسم جعفر البرمكي مع أن الكتب كانت تصدر دوماً باسمه . ولنضف إلى أنه لم يمض على إرسال هذه الكتب أسبوع واحد حتى قتل جعفر وذلك يوم السبت أول ليلة من صفر سنة ١٨٧ هـ

أليس كل ذلك بيِّن الاتجاه ، واضح المغزى ، في أن البرامكة من الحاسدين الساعين بالفساد بين الأمين والمأمون . ولنا في نكبة أخرى مشابهة وقعت في الزمن نفسه تقريباً بيان ودليل على ذلك الاتجاه . فهذا هو الرشيد ينكب ا بن عمه عبد الملك بن صالح . ولما سئل لماذا نكبه قال : « بلغني عنه ما أوحشني ، ولم آمنه أن يضرب بين ابنيَّ هذين » (الطبري ٦/ ٤٩٨) فإذا كان لابد من سبب مباشر لنكبة البرامكة ، فأحرى أن يكون الخوف من سعي البرامكة في الإيقاع بين الأخوين كما خيف من عبد الملك بن صالح . ويظهر لنا موقف الرشيد من البرامكة في شأن أولاده وخوفه منهم عليهم في قوله عن البرامكة : « أغنيناهم وأفقروا أولادنا ، ولم تكن لأحد من أولادنا ضيعة من ضيع البرامكة » .

وحين نقابل هذه الكلمة ذات الدلالة بتنديده بالبرامكة في كتابه للعمال بقوله : « كيد أعداء النعم » فإنا نجد الصلة بين الرأيين واضحة .

فالرشيد لا يأمن على أولاده من البرامكة ، ويعتقد أنهم يريدون إفقارهم ، وهم أعداء نعمتهم ، ولئن نكب ابن عمه عبد الملك بن صالح لأنه

خشي أن يوقع بين أولاده ، وكان عبد الملك بن صالح هو القائم بأمر ابنه القاسم صاحب العهد الثالث ، فحريّ به أن يدفعه خوفه على أولاده من التفرقة إلى أن يحقق رغبة كامنة في نفسه منذ أمد بعيد ، وهي إزاحة البرامكة ، ولعله خيّل إليه في أعماق ضميره وأمام الله أن نكبتهم هي لصالح خلافة المسلمين ، فأقدم عليها بحزم ، وفي كتابه إلى العمال قول يستفاد منه لذلك حين يقول : « ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك ، ويسأله العزيمة على ما فيه الخيرة لهما ولجميع الأمة والقوة في أمر الله وحقه » . يقول هذا القول ويرسل الكتاب ثم يقتل جعفرا في الأسبوع نفسه . أقدم على القتل إذاً بعد أن نظم ولاية العهد تنظيماً يمنع الفساد ، ومن أسباب الفساد أعداء النعم (البرامكة) .

وغني عن البيان أننا حين نورد هذا السبب المباشر والظروف المحيطة به لا نقصد أن نجعله الأصل ، ولا نميل إلى أن نعتمد عليه دون غيره في تفسير نكبة البرامكة . لا ، فالأسباب غير المباشرة التي ذكرناها في الأصل هي التي جعلت فكرة النكبة تختمر في نفس الرشيد ، لكنه هو الذي يشكل الإطار الزمني الذي حدثت فيه النكبة ، وهو إطار يتصل بها ، ويفسر كيف حدثت وكيف نظمت .

ولنتصور الآن حادث النكبة كيف حصل فنقول : كان في نفس هارون نقمة من البرامكة لأسباب عديدة شرحناها ؛ لكن هذه الأسباب لم تكن تخوّله قتلهم أو نكبتهم ، فهم لم تبدر منهم بادرة خيانة ظاهرة نحوه ، أو نحو ملكه ، ولم يغشوه في أمر ما غشاً يستطيع أن يؤاخذهم عليه ، ويجابههم به ؛ وكل مايأخذه عليهم تخرصات واتجاهات لم يحمدها لهم ، لكنها لاتحمل على محمل الجرم أو الغش أو الخيانة ؛ ولو أنه آخذهم عليها وجهاً

لوجه لأحسنوا التخلص منها والدفاع عن أنفسهم فيها . ثم مضت الأيام وإذا به يتبين (أويُوسوس له) أنهم يوقعون بين الأمين والمأمون ، ولا يقصدون الخير بالاثنين ، ويعملون على الكيد لهما ويجدّون في إفقارهما . فماذا يحصل لو توفي الرشيد ووقعت الوقيعة بين الأمين والمأمون ؟ أفلا تسوء حال المسلمين وحال الأمة جميعاً ؟ إذاً فقد أصبح من واجبه أن يوقف كيدهم ويمنع فسادهم ، فيستخير الله ويسأله العزيمة له على ما فيه الخيرة لهما ولجميع الأمة والقوة في أمر الله وحقه ، ويلهمه الله سبيل تحصين الأمة من كيد أعداء النعم ورد حسدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما . فيسير إلى مكة فيعقد عهوده على كل من الأخوين بحيث يمنعهما من التفكير بالغدر فيما بينهما ، ويعود إلى العراق ليستأصل شأفة أولئك الكائدين الماكرين الحاسدين المفسدين ، ويرسل كتبه بالعهود إلى عماله على الأمصار - ويؤكد عليهم المبايعة بولاية العهد قبل أن يصل إليهم أخبار النكبة ، ولا يمضي على ذلك أيام ، حتى يرسل في طلب جعفر ، وجعفر لاهٍ عن مصائب الزمان ، ويأمر بقتله دون انتظار ، ولا يقبل أن يراه لئلا يستحيي منه فيوقف قتله . ويحتاط خلال ذلك ، فيلقي القبض على البرامكة كلهم إلا واحداً[1] منهم لا خطر منه . ويظل مصماً على عزمه ، لا يقبل فيهم شفاعة شفيع ، فهو يرى أنهم إذا أطلقوا أوقعوا بين أولاده ، وعادوا إلى سيرتهم الأولى . ويزمع ألا يشيع ما دفعه إلى نكبتهم ، لأن أسبابها يجب ألا تعرف ، فهي مسائل شخصية تجرحه وتجرح أولاده في عزتهم وكبريائهم .

---

(١) يظن أن هذا الواحد هو يحيى بن خالد البرمكي لكن ابن كثير ذكر في « البداية والنهاية » (١٠ / ٢٠٥) فقال : « وقد كانت وفاة يحيى بن خالد رحمه الله في الحبس في الرافقة لثلاث خلون من المحرم من هذه السنة (١٩٠ هـ) عن سبعين سنة » .

ذكر في الحاشية (٦) من كتاب « معجم الأنساب والأسرات الحاكمة » لزمباور (المعرب) ص ١٣ ، وهي المتعلقة بمحمد بن خالد بن برمك مايلي « نجا من مذبحة أسرته » - المنقح .

والأمر الذي يصعب تفسيره في كل ذلك هو مقتل جعفر ، وكان من الممكن سجنه أو نفيه ، ولعله قتله لأنه يعرف سراً يجب أن يبقى في طيّ الكتمان ، أو لأنه أراد أن يقضي على كل إمكان في الصلح أو الندم أو التراجع ، مع اعتقاده أن قتله واجب لينقذ الأمة من فتنة .

* * *

العهد الثاني للرشيد

سياسته في حكم الأطراف :

بعد نكبة البرامكة دخل الرشيد وحكمه في طور جديد ، طور يظهر فيه الخليفة قوته ونشاطه وحماسته وإقباله على الأمر إقبالاً كليا ، على أن هذا الطور أيضاً يظهر نظر الرشيد إلى الأمور نظرة سريعة ، لا تحقيق فيها ولا تبصر في المستقبل ، ففي هذا العهد يستقل المغرب[1] بعض الاستقلال عن مركز الدولة ، وبيان ذلك أن ثورات الخوارج ومن انتهى إليهم كانت لا تزال مستمرة ، وكان الولاة يحاولون إيقاف هذه الثورات ، فيوقفونها حينا ، ويعجزون عنها حيناً آخر . تستمر هذه الولاية البعيدة تقلق بال الخليفة وبال ذوي الأمر ، حتى أن ثورة اتقدت في المغرب[1] فاضطر الخليفة إلى إرسال قائد من أحسن قواده هو **هرثمة بن أعين** ، فسار وأخمد الثورة مؤقتا ، ثم إن الخليفة كان بحاجة إليه ، فاستدعاه من المغرب[1] سنة ١٨٠ ، فعاد وعادت الثورة تارة أخرى ، وانتهى الأمر بأن

---

(١) المغرب (يعني المغرب الأقصى) وقد استقل عن الدولة العباسية حين شكل فيه الأدارسة دولتهم . القصد هنا إقليم **إفريقية** وهو يتألف من تونس والجزائر وبعض أراضي ليبيا ، فقد سمح الرشيد بأن تقوم فيه دولة بني الأغلب ـ المنقح .

ظهر للخليفة صعوبة ربط الأصقاع البعيدة بمركز الدولة ، وعجز الوالي عن تسوية الأمور بالمغرب ، حتى أتاه يوماً كتاب من **إبراهيم بن الأغلب**[1] يطلب فيه أن يسميه والياً على إفريقية ، وأن يدعه يسوي الأمر بنفسه ، ويعاهده على أن يستغني عن المال الذي كان يرسل إليه من خراج مصر ومقداره مئة ألف دينار كل عام . فهو باستطاعته أن يقوم بالأمر دون ذلك المال ويطلب مقابل ذلك مكافأة ، وهي أن يصبح العامل الدائم الذي لا يعزل ، وأن يطلق يده في الحكم ، ويجعل لأبنائه حق وراثة الأمر من بعده . في هذا ـ كما هو بيّن ـ استقلال واضح عن مركز الدولة ، مهما قيل إن التبعية لا تزال باقية فيه . شاور الرشيد هرثمة بن أعين ، فنصح له بالإجابة إلى طلب إبراهيم ؛ فأجابه إلى ما أراد ، وبذلك مهد الأمور لأن يستقل المغرب عن مركز الدولة في بغداد ، وكان ذلك خطأ من الأخطاء ، وقع فيه الرشيد ، لأنه كان عاجزاً عن الإشراف عليه لبعده[2]

علاقاته مع البيزنطيين :

أظهر الرشيد في علاقاته مع الروم قوة بأس شديدة . نعم إن الفتوح في بلاد الروم كانت غير منظمة ، ولم يكن الخلفاء العباسيون يسعون إلى زحزحة الروم عن مراكزهم وفتح بلادهم ، وإنما كانوا يقصدون أن تثبت

---

(١) كان شمالي إفريقية مضطرباً باستمرار في العهد العباسي ، أكثر الولاة قتلوا قتلاً . وكان آخرهم الوالي محمد العكي (وهو أخو الرشيد من الرضاع) اضطر أن يغادر القيروان قهراً سنة ١٨٢ هـ . انتهز إبراهيم بن الأغلب هذه الفرصة ، فأعاد العكي إلى مركزه ، ووطد إبراهيم أمور الدولة ، ثم أفصح عن رغبته بالولاية . واعداً الخليفة بالاستقرار وإرسال الأموال بانتظام ، وطلب قطع المعونة عنه ، تلك المعونة التي كانت ترسل لتقوية مركز الوالي ـ المنقح .

(٢) هناك سبب آخر جعله يسمح بقيام دولة بني الأغلب وهو إنشاء دولة قوية موالية للمركز تكون له درءاً من الدعوة العلوية المتفشية في المغرب تحت لواء دولة الأدارسة ـ المنقح .

العواصم والثغور في حـدود الروم . كان على الخليفـة أن يغزو ، ولكن الغزو اقتصر على تقدم قليل في أرض العدو ثم العودة إلى الثغور . يقال إن الرشيـد كان يحج سنة ويغزو سنـة ، فهو إذاً لم يتقـاعس ، عن الغزو وعن الفتوح ، ولا سيا في الفترة الثانية من حكمه ولكن بالشكل الذي ذكرنـاه . وفي السنـة التي ابتدأ فيها الدور الجديد أي من عـام ١٨٧ هـ خفـة هـارون للسير مظهراً البأس الشديد ، فقد كانت « إيريني[1] » ملكة الروم تدفع الجزية للرشيد ، وكانت تقرّ بأنه أقدر منها ، وأنها تحت طاعتـه ، ولكن انقلابـاً أقيم عليهـا ، فتـولى الحكم في بـلاد بيزنطـة نقفـور الأول (٨٠٢ ـ ٨١١ م) ؛ ويقـال إن نقفور كان أصلـه عربيـاً من قبيلـة بني جفنـة ، وكان ذا بـأس شـديـد وقوة وحماسة ، فكتب إلى الرشيد كتاباً أقامـه وأقعـده . الطبري (٦/ ٥٠١) قـال في الكتاب : « من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد فان الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقـام الرخ ، وأقـامت نفسهـا مقـام البيـدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً أن تحمل أمثالها إليها ، لكن ذلـك ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصّل قِبَلكَ من أموالها ، وأنقذ نفسك بما يقع به للمصادرةلك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك » فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزّه الغضب ، حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليـه ، وتفرّق جلسـاؤه خوفـاً من زيـادة قول أو فعـل يكـون منهم ، واستعجم الرأي على الوزير بين أن يشير عليه ، أو يتركه يستبـد برأيـه دونـه . فـدعـا الرشيـد بدواة ، وكتب على ظهر الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام » ثم هيأ الرشيد نفسه للشخوص إلى بلاد الروم .

---

(١) يسميها الطبري (ريني) ـ المنقح .

ويقال إنه شخص من يومه آنذاك . وسار إلى هرقلة واستولى عليها . ثم بلغ أنقرة ، وغلب نقفور في صدام وقع بينهما ؛ وجد نقفور نفسه مهزوماً فطلب الصلح ، وكان قد حلّ الشتاء ، فقبل هارون بالصلح على أن يؤدي ملك الروم عن كل إنسان بلغ الحلم دينارا ، إلا عن نقفورا[1] وابنه ، وعاد الرشيد إلى عاصمته .

نقض نقفور الصلح بعد ذلك . ولم يستطع القواد والأتباع أن يعلموا الرشيد عن نقضه الصلح . فبقي مدة يجهل ذلك حتى أعلمه الأمر شاعر من الشعراء ببيتين من الشعر ، فغضب غضبة شديدة ، وجمع جيشاً كثيفاً ، بلغ عدد المرتزقة فيه خمسة وثلاثين ألفاً ومئة ألف شخص ، وذلك سوى المتطوعة والأتباع ، وسار ذلك الجيش وضرب الروم ضربة شديدة ، فاضطر نقفور مرة أخرى إلى طلب الصلح فصالحه الرشيد . لكنه في هذه المرة طلب ثلاثمئة ألف دينار ، وجزية عن نقفور وابنه بحيث وقعت رقبة نقفور في صغار أهل الجزية . كذا كانت علاقات الرشيد مع الروم علاقات قوة وبأس شديدين . ظهر من هارون في هذه الفترة نوع من التحمس والقوة فكان يخشاه أتباعه ووزراؤه والمقربون إليه .

علاقاته مع الفرنجة :

وتقول لنا المصادر الغربية إن الرشيد كان له موقف آخر مع ملك الفرنجة**شارلمان** حسبما يدّعي مؤلفان : أولهما « **إرنهارد** » في كتاب له يقول فيه : « إن هارون الرشيد استقبل سفراء من شارلمان أتوه بهدايا ، فأجاب عنها بأن أرسل سفراءه بهدايا أيضاً ، ومن جملتها ساعة مائية

---

(١) لم يذكر الطبري ولا ابن الأثير هذا الاستثناء ـ المنقح .

دقاقة ، أعجب بها الفرنجة بل طرأت عليهم الدهشة منها » . ويعلمنا المصدر الآخر وهو القسيس سان غال saint - Gall : « إن بطريرك المقدس تلقى سفراء من شارلمان بهداياهم ، فأرسل هو بدوره هدايا ، ومعها مفتاح بيت المقدس ومفتاح كنيسة القيامة إلى شارلمان ، وذلك سنة ٨٠٠ م » هذان خبران يأتياننا من المصادر الأجنبية القديمة ، لكن المصادر العربية لا تذكر عنهما شيئاً ، وتعلق التواريخ الأجنبية الفرنسية على هذين الخبرين تعليقات شتى ، فتنسب إلى الرشيد رغبته في أن يضع أمام الخليفة الأموي الأندلسي عدواً حليفاً لبني العباس ، وتنسب إلى الحكم العباسي أيضاً الرضاء بأن يكون الإشراف على بيت المقدس لفرنسة ولملك الفرنجة ؛ ويتوسع المؤرخون في الاستنتاج وفي البحث . لكنا إن نظرنا إلى هذين الخبرين وجدناهما ضعيفين ، فصاحباهما أولا غير موثقين ، يخلطان في مسائل التاريخ ، ولا سيما القسيس سان غال ، فهو يخبط في تاريخه خبط عشواء . ولعلنا إن أردنا أن نستخلص من الخبرين شيئاً ، فإنا نقول ما قاله **بروكلمان** في تاريخ الشعوب الإسلامية من أن الخبر الأول عن سفراء لهارون لا يعدو أن يكون خبراً عن عدد من التجار اليهود الذين كانوا يحملون الهدايا ويدخلون إلى بلاط الخليفة . ولئن كانت هدايا ذهبت من الرشيد إلى شارلمان ، فهي أيضاً على أيدي تجار عاديين . أما خبر مفاتيح بيت المقدس وكنيسة القيامة ، فالظاهر فيه الوضع ، ولا يعقل بحال من الأحوال أن يعطي الرشيد وهو الخليفة الديّن التقى مفاتيح بلدة مقدسة إلى رجل غير مسلم . ومن الغريب الذي لا يصدق أن يعهد الرشيد وهو في أعظم سلطانه وأقوى سطوته لرجل مسيحي بحماية الأماكن المقدسة في بيت المقدس .

الثورات الداخلية :

ومن آخر الحوادث التي حدثت في الفترة الثانية من عهد الرشيد خروج **رافع بن الليث بن نصر بن سيار** بسمرقند ، خرج مخالفاً لهارون ، وخلع طاعة الخلافة ، وأعلن عصيانه . بيان ذلك أن رافعاً زيّن لاحدى المتزوجات أن تطلّق نفسها من زوجها بأن ترتد عن الإسلام ، ثم تعلن توبتها فيتزوجها هو ، وهذا مافعلته ، فعلم بذلك الرشيد فاشتد غضبه وأرسل إلى عامله **علي بن عيسى بن ماهان** بأن يقيم الحدّ على رافع بن الليث وأن يشهر به بحيث يكون مثلا لغيره ، فوضعه على حمار وطوّف بالحمار في خراسان ، ثم أطلقه بعد أن حبسه زمناً ، فسار إلى سمرقند ، واجتمع الناس حوله ممن في نفوسهم شيء ، فوثب على عامل المدينة . وأعلن خروجه ، وعلم بذلك الرشيد فلم يشأ إلا أن يذهب إليه بنفسه ، فجهز الجيش وأعد عدته وخرج ، فكانت منيته في الطريق ، في مدينة طوس ، توفي فيها سنة ١٩٣ هـ . وبذلك انتهى عصر مجيد من عصور الحضارة العربية الإسلامية .



الصراع بين الأمين والمأمون

نظرة عامة :

يذهب أكثر المؤرخين إلى أن الصراع بين الأمين والمأمون صراع بين العرب والفرس ، ويقولون إن العرب كانوا إلى جانب الأمين ، والفرس كانوا إلى جانب المأمون ، ويدعون أن الأمر انتهى بتغلب الفرس على العرب وتمكنهم من الحكم . هذا القول مضعف من جهات مختلفة : وإنه لم يكن الصراع بين العرب والفرس ، وإنما كان بين حزبين . نعم إننا نجد أيضاً مع المأمون ـ كما يقولون ـ عدداً من الفرس **كالفضل بن سهل** ، لكننا نجد أيضاً مع الأمين **الفضل بن الربيع** وهو مولى ، كان جده عند عثمان بن عفان واسمه أبو فروة كيسان « ابن خلكان ٢/ ١٥١ » . ونجد مع الأمين أيضاً **علي بن عيسى بن ماهان** ، وهو فارسي كما يدل عليه اسمه . وإذا كان إلى جانب المأمون عدد من الفرس ، فإن بين قواده **هَرْثَمة بن أعْيَن** ، واسمه يدل على أنه عربي ، هذا والحوادث نفسها تدل على أن العرب لم يكن لهم شأن خاص أكيد بالصراع . والصراع إنما كان بين طائفتين أو حزبين : أحدهما حزب العباسيين الهاشميين مع الأمين ، وثانيهما حزب الخراسانيين ذوي العلاقة العلوية مع المأمون . حصل التطاحن بين الحزبين وأدى إلى النزاع بين الأخوين ، وانتهت بقتل الأمين . لكنّا نجد أنفسنا على خلاف مع ما يقوله بعض المؤرخين . في رأينا أن النزاع لم ينته بانتصار الفرس ذوي النزعة العلوية ، بل كان النصر الأخير إلى جانب العباسيين الهاشميين الذين

خذلوا مع الأمين أولا ، ثم عاد الأمر[1] إليهم أخيراً . والتطاحن بين الحزبين يظهر واضحاً في الحوادث التي جرت ، ويظهر واضحاً بين الأخوين ، وما الكتابان اللذان علقهما هارون الرشيد في الكعبة عهداً على كل من الأخوين إلا دليلين واضحين على هذا التطاحن كما رأينا .

وأياً كان السبب فالغلطة فيما حصل تقع على عاتق الرشيد ، فهو قد بذر بذور انشقاق المملكة ، فقسمها بذلك إلى خراسان وغير خراسان ولعل الرشيد كان قد نسي أن خراسان طامحة إلى الاستقلال في الحكم ، فإنها تعتقد اعتقاداً جازماً أن ما فعلته مع العباسيين للوصول إلى الحكم ذهب هدراً ، وأنّ عليها أن تعيد حقها إلى نفسها ، ونسي أيضاً أن حول المأمون شخصاً خطراً ، هو الفضل بن سهل ، وهو رجل من صنائع البرامكة ، وممن يقولون بقولهم ، ويذهبون مذهبهم ؛ وهكذا رصف الرشيد الطريق بدون قصد إلى الخصام بين الأخوين وإلى تشتت المملكة ؛ وما كان يريد إلا الخير لولديه .

أسباب النزاع بين الأخوين :

١ ـ لم يُخلص[2] الحزبان أحدهما للآخر ، ولم يخلص الأخَوان النيّة في تنفيذ العهد : إذا نظرنا فيما فعل الرشيد وفي الحوادث التي جرت قبل ذلك ، فإنا لا نجد أثراً للخصام بين العرب والفرس . لعله حدث خصام بين الفرس والعباسيين ، بين خراسان والعراق بعد ذلك ، لكن الأمور حتى ذلك الوقت كانت تفسر باختلاف حزبين : حزب عباسي وحزب فارسي يميل إلى

(١) يقصد المرحوم الدكتور يوسف العش أن الأمر عاد إلى العباسيين أخيراً عندما أفاق المأمون إلى نفسه وإلى مستقبل الخلافة ، وصحح الأوضاع ، وعاد يتألف العباسيين ، وأعاد مركز عمله إلى بغداد ـ المنقح .

(٢) ليس متوقعاً أن يخلص حزب لحزب منافس ، وإنما المرتقب من الأحزاب أن يكون خصامهم محدوداً بحيث لا يمس المصلحة العامة ـ المنقح .

آل علي - كما رأينا - . وبعد أن وضعت العهود ، وأزيح البرامكة لم يُخلص كل حزب للحزب الآخر ، ولم يتهادن معه ، بل بقي الشقاق بين الأخوين ، يثيره من جهة ، الفضل بن الربيع ، ومن جهة الفضل بن سهل ، وكان المأمون خائفاً على نفسه من أخيه .

٢ - دور الفضل بن الربيع في تعكير العلاقة :

توفي الرشيد وكان المأمون في خراسان وأراد الفضل بن الربيع - وهو من حزب الأمين - أن يقوّي الأمين على أخيه ، فطلب من المأمون إرسال الجيش الذي كان مع هارون الرشيد - وكان ينبغي أن يعود هذا الجيش إلى المأمون حسب العهد - طلبه الفضل بن الربيع ووجّهه إلى بغداد ، وكان ذلك أول نقض للعهد .

٣ - تمادي ابن الربيع :

وبعد أن فعل الفضل بن الربيع ما فعل ، وجد أنه بذلك أعلن عداءه للمأمون ، فكان عليه أن يسير في خط ذلك العداء ، وإلا وقع بين فكي الأسد حين ينتقل الأمر إلى المأمون . فصار يوغر صدر الأمين على أخيه ، ويحسِّن له أن يعفي أخاه من ولاية العهد ، وأن يوليها ابنه موسى .

٤ - دور الفضل بن سهل :

وكان الفضل بن سهل يوغر صدر المأمون أيضاً على أخيه ، ويظهر له نقضه للعهد ؛ وصار الأمين يراسل المأمون ليخلع نفسه وكاد المأمون أن يرضى بخلع نفسه لولا أن الفضل بن سهل ضمن له الخلافة . وكيف يضمن الفضل بن سهل الخلافة للمأمون والجيش ليس بين يديه ، والأمين هو الخليفة وصاحب الأمر ؟ ليس بين أيدينا عن الفضل بن سهل قول يفيدنا بالكشف عن رأيه في ذلك الضمان ، لكننا نستطيع أن نستشف فكرته في

ذلك من مجرى الحوادث ؛ لعله أقنع المأمون برأيه على الوجه الآتي : إذا أقدم الأمين على محاربة المأمون ، فإن جيش خراسان الموجود عند الأمين لن يخلص له بأي حال ، فهو ميّال إلى شيعة المأمون ، لأن المأمون في خراسان بين أخواله ، وهو يحسن معاملة الشعب وله منزلة كبيرة عندهم . لذا فإن الجيش الخراساني في العراق لن يفيد الأمين ، وسيكون سنداً للمأمون في المستقبل . إن الأمين من جهة أخرى ليس صاحب سياسة وحنكة ، فهو رجل لعوب منطلق إلى لذاته ، فلا يستطيع أن يضمن الجيش إلى جانبه ، وسيضطرب أمره حتماً إذا حاول المأمون وأصحابه إفساد الجيش عليه . إن الأمين ليس محبوباً في الكوفة والبصرة والمدينة ، ففي هذه البلاد عدد كبير من أشياع آل عليّ . هؤلاء الأشياع هم أقرب إلى المأمون منهم إلى الأمين ، لأن حزب الأمين من العباسيين ، أما حزب المأمون فهم أهل خراسان ، نعم إن أهل خراسان ليسوا شيعة ، ولكنهم يستطيعون أن يلتفوا حول الشيعة . وإن يتقربوا إليهم . وبهذا الاتفاق يضمن المأمون إلى طرفه عدداً كبيراً ؛ ويجعل موقف الأمين حرجاً . هذا العرض للأمور مقنع للمأمون . لا سيما أن المأمون يعتمد على عهد صحيح أقامه له أخوه في عهد والده ، وهو ينصّ صراحة أن الأمر يكون للمأمون إذا أخلّ الأمين به .

٥ ـ امتنع المأمون من خلع نفسه ، وكتب كتاباً فيه تذكير للأمين بعهوده ومواثيقه . إن الأمين لم يتبصر عواقب الأمر ، بل وجد الوسيلة إلى نقض العهد وتمزيق الكتابين ، وإلى تولية ابنه موسى . يعني هذا أن الأمين والمأمون أعدّا نفسيهما للحرب .

المعركة بين الأمين والمأمون :

أخطأ الأمين خطأ كبيراً ، فإنه ـ بدلاً من أن يولي جيشه رجلاً قديراً

فاهماً عارفاً بالأمور ـ ولّى **علي بن عيسى بن ماهان** ، وهو قائد مكروه عند الخراسانيين الذين أقام عندهم والياً أمداً من الزمن ، وكان قد ظلمهم ، وجمع الأموال الكثيرة منهم . . هذا الرجل الفاشل المرتكب ولاّه الأمين قيادة الجيش ، وكان الجيش خراسانياً في معظمه ؛ وكان عدده يقرب من خمسين ألف مقاتل . أما المأمون فقد ولّى القيادة طاهر بن الحسين ، وكان من أعظم القواد أرسل معه جيشاً عدّته أربعة آلاف : يلاحظ أن الفرق بين الجيشين كبير جداً ، حتى إن بعض مؤرخينا المحدثين يشكون في صحة هذه الأرقام . التقى الجيشان وكان علي بن عيسى محتقراً طاهراً وجيشه ، معتزاً بعدد أفراد جيشه . وقع القتال وانتهى الأمر بمقتل علي بن عيسى . لا يذكر لنا المؤرخون كيف تمّ هذا النصر ، لكننا نستطيع أن نفهم أن جيش الأمين لم يكن يحارب عن قناعة مع علي بن عيسى ، بل قاتل قتالاً رخواً ، الأمر الذي مكّن جيش طاهر من التغلب عليه .

إن المأمون بعد أن ظفر جيشه بجيش الأمين ، جمع جيشاً كبيراً ووجّهه إلى بغداد لضرب الأمين والقبض عليه ، ولم يكن يدري الأمين أن ما حدث خطير للغاية . بل اضطرب أمره ، واقتصر على توزيع المال الكثير على الجيش ، لكن الجيش لم يكن مخلصاً له ، حتى أن الحسين بن علي بن ماهان ، وثب على الأمين وألقى القبض عليه ووضعه في السجن ، وكاد ينتهي أمره ، لولا أن أنصاراً له أنقذوه ، وألقوا القبض على الحسين . عاد الأمر للأمين مرة أخرى لكنه كان فاقد الإرادة ، مضطرباً ، لا حول له ولا قوة . . . وطبيعي في هذه الحال أن يستطيع جيش المأمون ، وعلى رأسه هرثمة بن أعين وطاهر بن الحسين ، دخول بغداد ، وإلقاء القبض على الأمين . انتهت الفتنة بمقتل الأمين على أيدي رجال أرسلهم طاهر بن الحسين ، وكان ذلك عام مئة وثمانية وتسعين للهجرة .

عصر المأمون

سيرة المأمون في عهده تشابه بعض الشيء سيرة والده هارون الرشيد يمكن أن نميّز في عهده دورين مختلفين : الدور الأول كان فيه المأمون تحت سلطان وزيره الفضل بن سهل ؛ يوجه الفضل بن سهل السياسة كما يريد ، ويّطلع المأمون من الأمور على ما يريد ، ويخفي عنه ما يشاء . هذا الدور ينتهي عام مئتين واثنين للهجرة . فمنذ عام مئتين وثلاثة يبدأ دور آخر كان المأمون فيه سيّد أمره ، قائماً بأمور الخلافة يوجهها كما ينبغي .

شخصية المأمون وأسلوبه في الحكم :

يشبه المأمون والده أيضاً في بعض طبعه ومزاجه ويخالفه في بعضه الآخر : المأمون حيي ، وفيّ ، كريم ، يحب الناس ، ويحب من الناس أن يحبوه . وهو في هذا يشبه والده . ولكنه إلى جانب الحياء والوفاء حليم متروٍّ في الأمور ، بعيد النظر كل البعد وهو في هذا يخالف والده . كان الرشيد يحلّ الأمور في ساعتها . أما المأمون فيبلغ منه التروّي أنه يؤجل حلّها حتى يستقر على رأي صحيح فيها ؛ وهو عميق في تفكيره عمق العالم ، وقد كان عالماً بالفعل ، كان ينظر إلى الأمور من القريب والبعيد ، وإن حلّت الآن فماذا ينتج عن ذلك ؟ وإن تأخر الحل فماذا يحدث ؟ فما كان يستقر على أمر إلا بعد أن يرى ظروفه وأبعد ما فيها ؛ وكان إذا فاجأته حادثة ، أخّر حلها حتى يستقيم له الرأي فيها ، وهو على كل حال يحل المسائل هادئاً ، دون أن يكون في الأمر إثارة أو استثارة ، ليس فيه عنف

ولا قسوة ، يرغب في أن يكون حلاً هادئاً ناعماً لطيفاً[1] . لعل الناس في عصره ما كانوا يشعرون بأهمية الحل ، ولا يقدرون قيمته قد يلجأ في هذا الحل إلى السم أو إلى قتل الناس . ولعله كان يفعل ذلك لصالح الدولة ، ولعله كان يفضل الحلول الهادئة هذه على إرسال الجيوش وقتال الناس . وكان بعد أن يوعز بالسم ويقتل من يقتل ، يتبرأ من هذا الفعل ، ويعلن سخطه عليه ، بل يحاول أن يخفي تدبيره وراء ترتيب جديد : ينعم على أهل الشخص المقتول ، ويضفي عطفه على اسم المسموم واسم ذويه . وفي هذا يخالف المأمون سيرة أبيه ، فالرشيد قتل جعفر بن يحي البرمكي جهاراً ، وألقى أهله في السجن ، وتركهم فيه حتى وفاتهم . الرشيد لم يذكر في لحظة من لحظات حياته بعد مقتل البرامكة أنه نادم على ما فعل . وكان يتتبع البرامكة وأصدقاءهم حتى آخر عمره . أما المأمون فلا تبدو منه رغبة في فجيعة أيّ إنسان ، ولا يظهر من وراء أولئك الذين يدسون السم ، أو الذين يقتلون ، وإذا رأى أنه سينكشف أمره ، فإنه لا يتردد أن يتخلص أيضاً من صنيعته الذي لعب دوراً في المؤامرة .

القضاء على الفضل بن سهل[2] :

بعد أن عهد المأمون إلى علي بن موسى الرضا بولاية العهد ولبس الخضرة ، ثار العباسيون في بغداد ، واستطاعوا بعد نقاش طويل أن يخلعوا طاعة المأمون ، وأن يولّوا إبراهيم بن المهدي خليفة . لم تستقر الأمور في العراق ، بل حصلت مؤامرات وانقسامات واضطرابات لم يعلم بها المأمون ؛ لأن الفضل بن سهل كان يخفي عنه حقائق الأخبار .

---

(١) إلا أنه لا يشترط بالحل أن يكون أخلاقياً ـ المنقح .

(٢) وضعت هذه الفقرة من أجل المحافظة على تسلسل الحوادث ـ المنقح .

عندما استفحل الأمر في بغداد ، أخبر علي الرضا المأمون بواقع الحال . ولما تأكد المأمون من الحقيقة ، جهّز نفسه للخروج من مرو يريد بغداد . لكنه قبل المبارحة رتَّب مؤامرة بأن أوعز إلى مماليكه أن يقتلوا الفضل بن سهل .

تظاهر المأمون بحزنه على الفضل بعد مقتله ، وكتب إلى أخيه والي العراق **الحسن بن سهل** يعزيه ؛ وأنعم عليه وتزوج ابنته إكراماً له . وفي الوقت نفسه أمر بالقبض على الفاعلين ، ولما تجرؤوا بأن قالوا : « إنا فعلنا هذا بأمرك » قتلهم .

استمر المأمون متوجهاً نحو بغداد ، ومرّ في طريقه بمدينة **طوس** حيث توفي الرشيد . وهناك دبَّر أمراً آخر .

القضاء على عليّ الرضا والعودة إلى بغداد :

ولعله كان من خطته أيضاً أن يفتدي نفسه بعلي الرضا بن موسى . فإنه ما مضى على وفاة الفضل بن سهل عدد من الأشهر حتى تناول عليّ الرضا بن موسى كمية كبيرة من العنب ، وكان يحبه ، فمات . لعلنا لا نصدق أن إنساناً يموت من أكل العنب ، إذا لم يكن في العنب ما يؤثر في الحياة كالسم مثلاً . أعلن المأمون حزنه على وفاة الرضا ، ولم يغيّر سياسته في الأمر ، بل استمر على لبس الخضرة ، ثم أرسل إلى أهل العراق يقول : « إن علي الرضا بن موسى قد توفي ، فما كان حاجزاً بيني وبينكم قد زال ، فعودوا إلى بيعتكم » فعادوا وسار إلى بغداد ليتم أموره فيها ، وهو يلبس الخضرة ودخلها . . . فأقبل عليه بعض العباسيين . وطلبوا منه أن يرفع الخضرة ، فأجابهم إلى مطلبهم دون تردد .

الدور الثاني من حكم المأمون .

ننتقل الآن إلى الدور الثاني من عصر المأمون ، وهو الدور الذي كان فيه الخليفة هو المتسلط الحقيقي ، والمدبر لأمور الدولة . سار في هذا الدور على سياسة الدهاء والحكمة والمعرفة والخبرة ، إلا أنه كانت أمامه صعوبات كثيرة ، وعهده ليس كعهد والده هارون الرشيد ، فالدور الثاني من حياة الرشيد كان عهداً سلساً بعض السلاسة ، أما الدور الثاني للمأمون فقد كان صعباً : فهذه هي الثورات والقلاقل لا تزال مستمرة منذ مقتل أخيه الأمين ، وقد كانت للثأر له ، فكان على المأمون أن يجابهها ويقضي عليها .

١) هذا **نصر بن سيار بن شبث** يخرج في جهات حلب ويستولي عليها وينشر أمره في جهاتها سنة ثمان وتسعين ومئة . لم يستطع الفضل بن سهل أن يوقف هذه الحركة . تمكن المأمون بعد القضاء على الفضل من إدارة دفة الدولة ؛ ثم أرسل إلى الثائر عبد الله بن طاهر ، فلوّح له بالصلح ، ومنّاه بالعفو عنه ، وأعطاه الأمان ، فرضي واستسلم سنة ٢٠٩ هـ[(١)] .

٢) خرج **ابن بيهس**[(٢)] **الكلابي** في جهات دمشق ، فأرسل إليه المأمون عبد الله بن طاهر فسوّى الأمور في هذه المنطقة وقضى على الثورة ، وأمّن ابن بيهس[(٣)] .

---

(١) من ذيول ثورة نصر بن شبث (وهي ثورة عباسية على انحراف المأمون وميله إلى الفرس) حركة (ابن عائشة) وهو إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام العباسي ، فقد كان وصحبه يريدون قطع الجسر إذا هاجم نصر بغداد وخرج الجند لمحاربته . قبض عليه المأمون وسجنه ثم قتله سنة ٢١٠ هـ ـ المنقح .

(٢) ورد اسم ابن بيهس سنة ٢٢٧ هـ عند الكلام عن ثورة المبرقع في الأردن ـ الطبري (الحسينية) ـ (١١ / ٥) ولم يرد اسمه في عهد المأمون ، لكن الدراهم المضروبة بدمشق في عصر المأمون تحمل اسمه حتى سنة ٢٠٩ هـ . لعل المذكور في الطبري شخص آخر ـ المنقح .

(٣) وصحبه معه إلى المأمون في بغداد ، وقتل هناك سنة ٢١٠ هـ على الأرجح ـ المنقح .

٣) ثارت في مصر ثورة أخرى ، وقامت فتنة بين القيسية واليمانية ، فالقيسية إلى جانب الأمين ، واليمانية إلى جانب المأمون . وهذا يدلنا على أن العرب أنفسهم كانوا منقسمين إلى شطرين : شطر مع الأمين وقد قيل إنه إلى جانب العرب ، وقسم إلى جانب المأمون ، وامتدت الفتنة إلى مصر ، فقضى عليها عبد الله بن طاهر قائد المأمون .

٤) نشبت فتنة في الاسكندرية : ذلك أن عدداً من الأندلسيين طردوا من الأندلس ، فحلّوا في الاسكندرية ، وأثاروا الفتنة فيها ، فطاردهم عبد الله بن طاهر ، وأخرجهم منها .

٥) ثورة الزط في الخليج العربي وامتدادها حتى البصرة سنة ٢٠٥ هـ . ظلت هذه الثورة مستفحلة حتى أخمدت في عهد المعتصم على يد عُجيف بن عنبسة سنة ٢١٩ هـ .

أسلوب المأمون في إخماد الفتن :

هذه الثورات جابهها المأمون بالجيش إلا أنه كان يفضل أن تنتهي دون سفك دماء . خرج عليه في الحجاز[1] ، مرة ومرتين ، علويان وفّق في أن يوقف خروجها بالتي هي أحسن ، ويعفو عنهما ، ويحاول في كل أمر أن تكون سياسته اللين والدهاء ؛ فما يفعله اللين لا تفعله القسوة ، ويجب أن يكون وراء اللين دهاء ليستتب الأمر ، وإلا أفلت من يد صاحبه ؛ والمأمون داهية وليّن في الوقت نفسه .

---

(١) وجه أبو السرايا شخصاً إلى مكة اسمه حسين بن حسن الأفطس . بعد مقتل أبي السرايا اتفق الأفطس مع محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ، ونادى به أميراً للمؤمنين . لكن الأفطس وعلي بن محمد أساءا معاملة الناس واضطرب الأمر ؛ فدخل إسحاق بن موسى بن عيسى (الذي كان والياً على اليمن) مكة . الطبري ـ الحسينية (١٠ / ٢٣٢ ـ ٢٣٥) ـ المنقح .

الثورات المحلية ونشوء الدويلات :

وتكثر الثورات فيدفعها :

١) قامت ثورة في اليمن واشتعلت بزعامة **إبراهيم بن موسى بن جعفر** ، فأهل اليمن كانوا غير راضين عن عماله . أرسل المأمون **محمد بن إبراهيم الزيادي** ليقمعها عام ٢٠٦ هـ[1] فقمعها ، لكن استولى على الأمر فيها . وأصبح هو الحاكم ، وخلفه من بعده أبناؤه يتداولون عليها ، ولا يفعل هو إلا الدعاء للخليفة على المنابر فقط ، وهو في غير ذلك صاحب الأمر المطلق . على هذا النحو تشكلت في اليمن **الدولة الزيادية** التي دامت حتى سنة ٤١٢ هـ (حسب ما جاء في كتاب زمباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة) .

ذكر الطبري (الحسينية ١٠ / ٢٦٤) خروج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد عكّ من اليمن يدعو إلى الرضا من آل محمد سنة ٢٠٧ هـ . فأرسل إليه المأمون دينار بن عبد الله ، فاستماله ، وأمّنه المأمون .

٢) تمكنت في خراسان أيضاً **السلالة الطاهرية** فهذا **طاهر بن** الحسين قائد مجرب محنك ، خدم المأمون في مصر ، وثارت خراسان بعد أن تركها المأمون ، فأرسله إليها بناء على نصح وزيره أحمد بن أبي خالد وضمانه

---

(١) لم أجد هذا الخبر في الطبري ولا ابن الأثير . إنما ذكره الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتاب « تاريخ الإسلام » جـ ٢ صـ ٧٢ وقال إن المأمون أرسل محمداً الزيادي سنة ٢٠٣ هـ لقمع حركة المتشيعين في تهامة .

ذكر زمباور في كتابه المعرب « معجم الأنساب » صـ ١٧٩ أن محمد بن إبراهيم (وهو سليل زياد بن أبيه) أسس هذه الدولة في زبيد سنة ٢٠٤ هـ وذلك اعتماداً على ابن خلدون (جـ ٤ ـ صـ ٢١٤) الذي يسميه محمد زياد ـ النقح .

للأمر له . ويقال : إن أحمد أرسل مع طاهر خادماً له أعطاه السم وقال له : إن حاول طاهر أن يستقل بالأمر ، وأن يخلع طاعة المأمون فناوله السم في الطعام ؛ والذي وقع هو أن طاهراً بعد أن قضى على الفتنة في خراسان واستمر والياً عليها ، انتهى به الأمر إلى أن أوقف الخطبة للمأمون ، فدُسّ له السم ومات به سنة ٢٠٧ هـ . ولما مات طاهر جاء المأمون بلطفه وظرفه ، فعيّن **طلحة بن طاهر** والياً على خراسان ، ولما توفي طلحة سنة ٢١٤ هـ ، عيّن الخليفة أخاه **عبد الله بن طاهر** قائده والياً على خراسان . وبعد المأمون استقل الطاهريون بخراسان ، لكنهم ظلوا موالين للخلافة .

٣) ومن الصعوبات الكبرى التي بدت أمام المأمون **ثورة البابكية** ، أو الخُرّمية ، وبابك ـ على ما يقال ـ من أولاد فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني ، والخرّمية هي مزدكية في الأصل . وهم يبيحون النساء والمحرّمات ، ويعتقدون أن الأرواح تنتقل بالتناسخ ، وأن بابك انتقلت إليه روح أحد الخرّمية . ومن رأي البابكيين أن توزع أموال الإقطاعيين على الفقراء . أما غايتهم الأساسية فهي التخلص من حكم بني العباس . اجتمع حول بابك عدد كبير من الناس وظهر في الجبال ، في منطقة يصعب فيها القتال كل الصعوبة . والواقع أنّ بابك أقضّ مضجع المأمون ، فما أرسل إليه جيشاً إلا مُني بالهزيمة ، وخسرت جيوش المأمون خسارة شديدة . وقيل إن بابك قتل من جند المأمون وحزبه ما ينوف على خمسين ومائتي ألف شخص . ولم يتمكن المأمون من بابك[1] إلا بعد أن جهز له جيشاً هائلاً بقيادة **إسحق بن إبراهيم** ، أنفق عليه المال الكثير فشتّت هذا الجيش أصحاب بابك في منطقة همذان عام ٢١٨ هـ ـ ودفع بابك إلى الجبال ،

---

[1] اشتد ساعد بابك وعصابته بسبب مساعدة الأفشين الخفية له ـ المنقح .

وحصره في أذربيجان ، وقُضي على بابك بشدة وبصعوبة بعد ذلك في عهد المعتصم .

محاربة الروم :

والذي كان يقوّي من شأن بابك هم الروم ، فقد كان بينه وبينهم حلف على أن يساعدهم برجاله ، وعلى أن يساعدوه حين حاجته إليهم . وشعر المأمون أن عدوه الأكبر هم الروم . وكان حتى عام ٢١٤ هـ لا يلقي إليهم بالاً كثيراً ، لكنه بعد أن رأى الثورات في مصر والشام وفي الجبال قرّر أن يزيح الروم عن مراكزهم المتقدمة ، فسار إليهم بنفسه بجيش كثيف ودخل بلادهم واستولى فيها على بعض الحصون . ثم عرض له عارض من خروج عليه في مصر وفي الشام ، فذهب وترك الروم في الشتاء ، وإذا بالروم يغدرون بجيشه ، فيأسرون خمسة وعشرين ألف إنسان ، ويسفكون الدم الكثير ، فعاد إليهم . وصمم على أن يقضي عليهم القضاء المبرم فسار في بلادهم ، وأحس ملكهم بأن المأمون جادّ في أمره ، فطلب منه الصلح على أن يدفع مئة ألف دينار ، وأن يعيد الأسرى الذين بين يديه ، لكن المأمون لم يرض بهذا واستقر قراره على أن يجلب الأعراب البدو ، ويدفعهم معه في بلاد الروم ، فما استولى على مكان إلا أقامهم فيه وجعله موطنهم ، وهكذا وضع خطة أراد أن ينفذها إلى أن يصل إلى القسطنطينية ، ويقضي فيها على الروم قضاء نهائياً ؛ لكن المنية عاجلته سنة ٢١٨ هـ فمات دون أن يحقق هدفه ، وعاد المعتصم أخوه بالجيش وقد أفضت الخلافة إليه من بعده .



تقلص سلطة الخلفاء العباسيين

محاولة الفرس السيطرة على الحكم :

تقدم معنا البحث عن الخلفاء العباسيين الأوائل حتى المأمون ، صنفناهم في دور مستقل هو عزّ الدولة العباسية وقوتها . ننتقل إلى دور تقلص قوة الخلافة العباسية وتمكُّن الأتراك من السلطان في هذه الفترة . هذا الموضوع تمتد جذوره إلى القسم الأول السابق من البحث ، فلننظر في النتائج التي انتهينا إليها من البحث السابق ، ولنعط الخطوط الرئيسية العامة عن هذا العهد . رأينا أن الفرس أرادوا أن يكون لهم مركز في الدولة وأن يكون السلطان في أيديهم ، حاولوا ذلك أولاً قاصدين جعل الخليفة العباسي تحت سلطانهم ، فساعدوا العباسيين على الاستيلاء على الحكم ووزروا لهم ، وتولوا أمورهم ؛ لكن العباسيين لم يشاؤوا أن يستسلموا للفرس فكانوا من حين إلى آخر يقتلون وزراءهم الفرس ، وينكّلون بهم ؛ إنَّ جُلَّ ما استطاع الفرس الوصول إليه هو الإشراف على المرافق الأساسية للدولة ، لكن إشرافهم هذا كان يضطرب مع نكبة وزرائهم ، فيتقلص نفوذهم إلى حين . وكانت آخر محاولة حاولوها هي الالتفاف حول المأمون والتأثير عليه ، فقد ظنوا أن الأمر استتب لهم معه ؛ لكنه كان كأمثاله من الخلفاء العباسيين ، ضربهم ضربة قضت على نفوذهم ، ولو أنه مالأهم في ظواهر الأمور على عادته ،

وانتهى الأمر بالفرس إلى أن فكروا أنه لا محالفة لهم مع العباسيين ، وأنهم إن حالفوهم فلن يصلوا إلى شيء كبير ، وستكون القضية معهم شخصية ، يستفيد الوزير منها إلى حين ؛ ففكروا ووصلوا إلى قرار : هو أن يستقلوا عن الحكم العباسي شيئاً فشيئاً ، فساروا في هذا الطريق ، وتشكلت **الدولة الطاهرية** في خراسان ، وتبعتها دول فارسية أخرى .

رد الفعل عند العرب :

أما العرب فقد رأيناهم غُلبوا على أمرهم في أول الحكم العباسي ، لكنهم حاولوا الرجوع إلى الحكم بمؤازرة الخليفة مثل الأمين ، فلم يستطيعوا أن يصلوا إلى الحكم ، والذي استقر عليه أمرهم هو العراق ، فكان في أيديهم لكن العامّة من جهة ، ورجال الدين من جهة أخرى كانوا يشغبون ، وكان عليهم أن يقبلوا بهذا الوضع الخطير ، فلعلّ الحظّ يسعفهم في يوم من الأيام ، فيسيطرون على الموقف . هذا وضعهم في العراق ، أما في الشام ، فهم يثورون على الحكم العباسي المرة بعد المرة ، لكنهم يضربون ، وتتوقف ثورتهم . أما الأعراب البدو ، فهؤلاء على شدتهم ومقدرتهم على القتال ، ما كانوا يستطيعون شيئاً كبيراً ، بل أنهكت قواهم الحزازات القديمة ، فهم يتقاتلون قتالاً قبلياً باستمرار ؛ فلم يكن إذاً للعباسيين أن يتحالفوا مع العرب ، وأن يعتمدوا عليهم اعتماداً كاملاً ليمكّنوا سلطانهم بهم .

حركات آل علي :

أما العنصر الثالث ، وهو آل علي فإنه لا بد أن يكون ذا شأن في الأمور . فالعباسيون قد حاربوه وحاولوا أن يقضوا على حركاته بقوة جيوشهم ، واستعانوا عليه أيضاً بتحالفهم مع رجال الدين الذين استطاعوا

أن يجعلوهم إلى جانبهم بأن اتخذوا سياسة دينية ، فلم يكن لآل علي مجال في النفوذ إليهم ؛ وكانوا قبل ذلك ينفذون إلى بني أمية عن طريق الدين والمتدينين . ولما رأى آل علي أنه ليس باستطاعتهم فعل شيء كبير ، أدخلوا رأيهم إلى قصور الخلفاء مع المعتزلة ، فالمعتزلة [1] ميالون إلى آل علي ، وإن لم يكونوا شيعيي المذهب ، وقد رأينا المأمون يقف إلى جانب آل علي والمعتزلة ، وسنرى أن من يتبعه من الخلفاء لا سيما المعتصم والواثق ، يتبعون السياسة نفسها .

خلافة المعتصم والعنصر التركي :

لم يكن للخليفة العباسي إذاً حليف قوي يستند عليه في تمكين سلطانه ، والمأمون في الدور الثاني من عهده استطاع أن يمكن ذلك السلطان بدهائه وقوته وحسن تفكيره . أما المعتصم الذي حلّ بعده فلم يستطع أن يفعل شيئاً من ذلك ، وقد خيّل إليه أنه سيكون في مهب الريح إن بقي بعيداً عن التحالف ، وكان ابن أم تركية ، فوجد حلفاءه الطبيعيين بين الأتراك ، فاتخذهم خدماً له وعبيداً وجيشاً وقواداً [2].

---

(١) نشأت فرقة المعتزلة في أواخر العهد الأموي ، وهي تتبنى فلسفة دينية تقوم على فكرة الاعتقاد بعدل الله الذي منح الإنسان إرادة شخصية ، فهو - في رأيهم مخيّر في عمله : يعمل الخير ويعمل الشر في حدود إمكانه . يستدلون على ذلك بآيات قرآنية ، بينما كان كثير من الناس يعتقدون أن الإنسان مسيّر ، لا يسيطر على أفعاله . أما القضية الكبرى التي شغلت الناس هي قضية خلق القرآن ، فهم يعتقدون أن القرآن نقله جبريل إلى الرسول ﷺ فهو إذاً منقول ومخلوق ، بينما أهل السنة يعتبرون القرآن صفة من صفات الله وينزهونه عن الخلق - المنقح .

(٢) لم يكن المعتصم أول من اشترى الغلمان الأتراك واستخدمهم في الحرس والجيش ، بل إن المأمون سبقه إلى ذلك ، ولكن على نطاق ضيق ، وذلك بعد عودته إلى بغداد ـ المنقح .

وهنا ندخل في دور جديد من أدوار الخلافة العباسية ، وعلينا أن نبحث قليلاً في الأتراك ، فهم عنصر كان في ذلك العهد قوي الشكيمة كل القوة ، وكانوا متمرنين على أعمال الغزو ، وعلى ركوب الخيل ، وعلى الأسلحة والفروسية . أصلهم من شمالي الصين ، أتوا إلى ما وراء النهر ، فكانت لهم حصونهم وقلاعهم ، وقد أتوا إليها للكسب مهاجرين من الأمكنة التي لا يستطيعون أن يعيشوا فيها . هؤلاء الأتراك لم يكونوا مثقفين أبداً ؛ بل كانوا شبه أميين وكانت مقدرتهم الفكرية ضعيفة ، ولم يكونوا متحضرين كما كان العرب والفرس ، وجلُّ شأنهم السلاح والمقدرة الحربية ، فظن المعتصم أنهم محالفون غير خطرين ، فاستقدمهم وأكثر من شرائهم ، وأرسل في طلبهم ، حتى كان له ـ على ما يقال ـ سبعون ألف فارس تركي في خدمته . وهكذا تخيل المعتصم أنه ركّز قوته على عنصر مهمّ ، وأن الأمر سيستقيم له بهذا العنصر .

وكان المعتصم قويّ الشكيمة ، قوي الجسم قوة هائلة ، بحيث كان يحمل الأرطال الهائلة ، وكان يقاتل بأحسن أنواع القتال ، وكان يمسك بالعود من الحديد ، فيثنيه مرات إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة التي اشتهر بها في ميدان القوة .

كان يحب الترك لقوتهم أيضاً ، لكنه لم يكن يدع لهم مجالاً في السيطرة عليه ، وبقي هو المسيطر عليهم ، إنما هم عنده عبيد وخدم ؛ غير أنه شعر بخطرهم عندما أخذ أهل بغداد يتذمرون منهم ، فقد كانوا ينزلون بخيولهم إلى الأسواق فيطؤون الصبيان والعَجَزَة ، فيثور عليهم العامّة ، ويقتلون منهم ، ويذهب دم المقتولين هدراً . زاد استياء الناس منهم حتى

وجد المعتصم أن الحالة لا يمكن أن تستمر ففكر ، وأدى به تفكيره إلى أمر خطير وهو أنه رأى أن من واجبه أن ينتقل من بغداد إلى مدينة أخرى يقرّ فيها أتباعه ، فيكون قد أبعد جنده عن كافة الناس وتحصن هو من الفرس ، وتحصن من آل علي .

بناء مدينة سُرَّ من رأى :

شرع في بناء مدينة سرَّ من رأى (سامراء[1]) . بناها على مسافة من بغداد (على بُعد مئة وأربعين كيلو متراً تقريباً) ، وانتخب لها مكاناً عالياً حصيناً ، أوصل إليه الماء وزوّده بأسباب الدفاع والصمود . وسع المدينة وعرَّض طرقاتها ، كيلا يصطدم الجيش بالشعب ، وجعل في سامراء شارعاً (اسمه الشارع العظيم) ، وهو طويل جداً وعريض جداً ، وبنى في سامراء القصور ، وأقطعها لأصحابه وجيشه وأتراكه ، فصار للأتراك أراض يقيمون فيها وبيوت ومساكن ، وتمكنوا من المكان الذي هم فيه ، فأصبحوا أسياد المدينة ، وأصبحت المدينة لهم ، فلأجلهم عمرت وبهم تقوم . من الطبيعي أنهم في عهد المعتصم لا يقدرون أن ينقلبوا على الخليفة ، لكنهم في سامراء في بلدهم ، والزمن يتقدم وسلطانهم يتقدم أيضاً .

---

(١) يقال إن اسم المدينة تحوّر إلى (ساء من رأى) بعد خرابها ، فأصبحت الكلمة (سامراء) ـ المنقح .

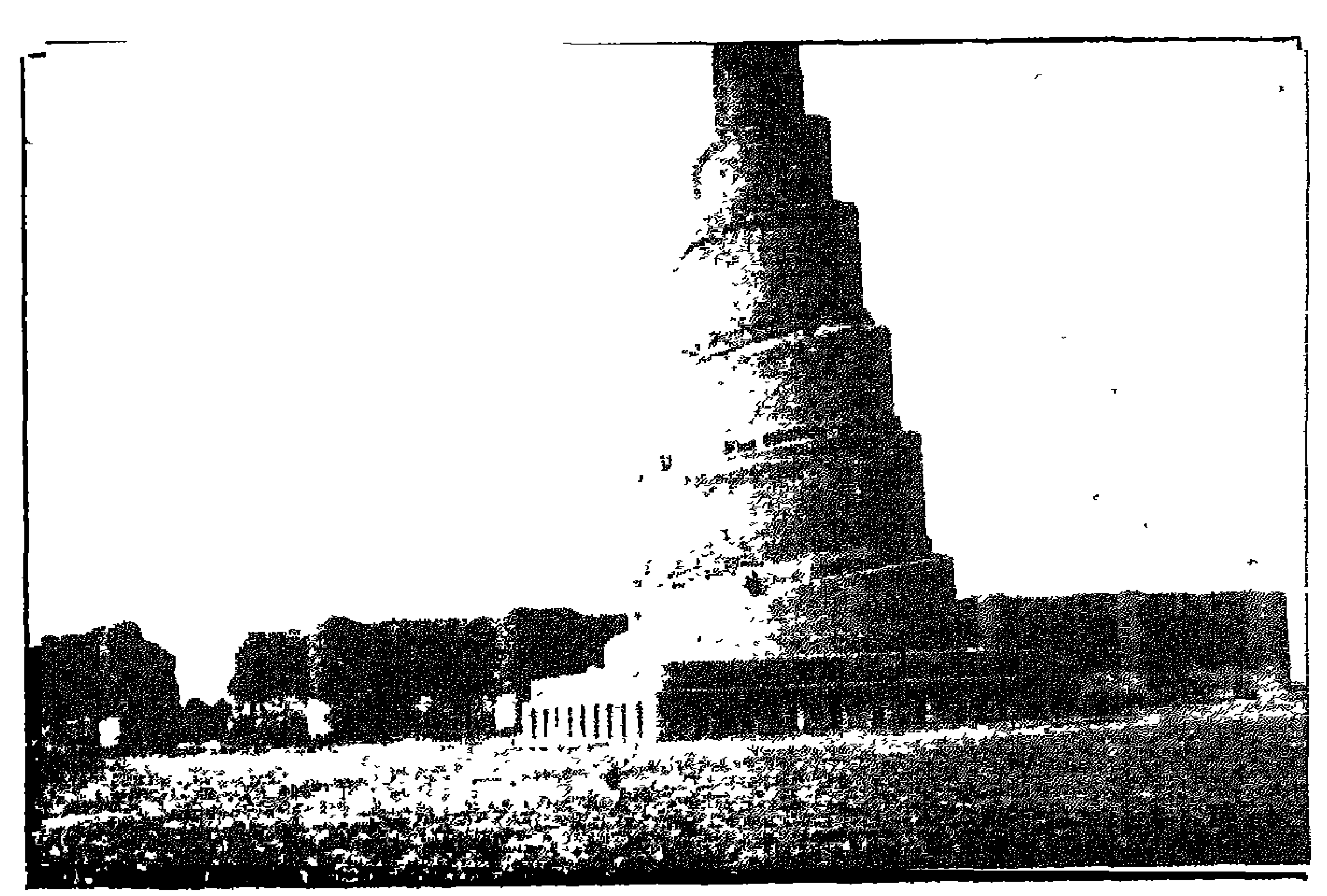


جوانب من أطلال مدينة سامرا عن (كرزويل)

خلافة الواثق ثم المتوكل :

توفي المعتصم عام سبعة وعشرين ومئتين للهجرة ، قام بالأمر من بعده ابنه الواثق . سار الواثق على خطة أبيه وعمه المأمون ، فحالف المعتزلة ، وحالف الأتراك وكان الواثق يشبه المأمون بمعرفته العلمية ، حتى كان يسمى المأمون الأصغر ، لكنه لم يكن بدهاء المأمون ، ولم يكن في ميدان السياسة بمعرفته ، فألقى بمقاليد أموره لوزرائه ولقواده الأتراك ، فترك **لأشناس** إدارة غربي الدولة **ولأيتاخ** إدارة شرقيها ، فتقسمت المملكة بين الاثنين

وأصبحا سيدي الأمر فيها . وغلط الواثق غلطة أخرى : وهي أنه لم يعهد بولاية العهد من بعده لإنسان ، بل توفي ، ولم يكن للدولة وليّ للعهد ، فضرب بذلك التقليد الذي سار عليه الخلفاء منذ عصر معاوية ، وترك الأمور تضطرب بين أيدي الأتراك وبين أيدي وزرائه ، ومدّ الأتراك يدهم ، فبحثوا مع الوزراء فيمن يولونه الخلافة ، فوجدوا ابناً للواثق ، ألبسوه ثوب الخلافة ، فوجدوه كبيراً عليه ، فخلعوه عنه ، والتجؤوا إلى **المتوكل** أخي الواثق ، فجعلوه خليفة ، وهكذا أصبح الأتراك هم الذين يولون الخليفة . توالت الأغلاط السياسية من الخلفاء العباسيين ، ففتحت للأتراك أبواب استجلاب أبناء جلدتهم مما وراء النهر ، على مقياس واسع ، الأمر الذي جعلهم أصحاب عاصمة الخلافة ، وأسياد البلاد ، يولون الخليفة نفسه ، أليس كل هذا بكاف ليشتطوا ، فيظنوا أن الأمر وصل إلى أيديهم ولن يخرج منها .



المئذنة الملوية في سامرا (تصوير المديرية العامة للآثار العراقية)

سياسة المتوكل المناهضة للترك :

جاء المتوكل إلى الخلافة فوجد أن الأمر على ما وصفنا ، حاول أن يوقف ذلك التيار ، ووضع خطة لذلك ، وظن أنه قادر على تنفيذها ، ذلك أنه أبعد نفسه عن الأتراك ، وبحث عن حليف جديد ، فوجد حليفه في أهل العراق من أهل بغداد . وأهل بغداد - كما قلنا - عرب أكثرهم سنيّون على طريقة أهل السلف ، ولا يقبلون بالاعتزال ، فكان على الخليفة المتوكل أن يحارب الاعتزال ليرضيهم ، فضرب الاعتزال ضربة شديدة ، وأطلق المسجونين من أهل السنة الذين كانوا قد أوقفوا لعدم قولهم بخلق القرآن ، وأطلق سراحهم وقرّبهم إليه . وأبعد المعتزلة واضطهدهم ، بل كان يشترط في فداء الأسرى المحجوزين عند الروم أن يقرَّ الأسير بأن القرآن غير مخلوق ، وأن يقرّ بمخالفته لأهل العدل والتوحيد . وقد ذكرنا أن المعتزلة كانوا ميالين بعض الميل إلى الفكرة العلوية . حارب المتوكل تلك الفكرة بمحاربته المعتزلة ، واضطهد آل علي باضطهاده للمعتزلة ، وتشدّد وتزمّت في تعصبه للدين ، فاضطهد أهل الذمة اضطهاداً شديداً ، وهدم كنائسهم المحدثة ، وأبعدهم عن دواوينه ، ولم يقبل بتعيين أحد منهم فيها ، وفرقهم عن الشعب والمسلمين ، فجعلهم لا يركبون إلا البراذين والبغال ، دون الحمير والخيول ، وألزمهم بأن يضعوا على أبواب بيوتهم صوراً وتماثيل للشياطين ، وألزمهم بأن يقتصروا على السروج الخشبية . وهكذا ضيّق عليهم كل التضييق ، وهو في ذلك يحاول أن يتقرب من عامّة الناس الذين كانوا يضيقون صدراً بأهل الذمة . قرّب المتوكل التجار والصناع والفلاحين وأغدق عليهم الأموال ، وأراد إصلاح الأرض وإجراء الأقنية ، بل تقرب من الناس بشيء عزيز على نفوسهم ، هو أنه أجّل أخذ الخراج المفروض على المزروعات إلى ما بعد نضج الثمر ، لكن هذا الإصلاح لم يدم ، فقد عاجلته المنية قبل تنفيذه .

فالمتوكل إذاً تقرب من الشعب ، وجعل الشعب حليفه ، وحالف أيضاً العرب ، بل إنه استقدم إلى بغداد من العرب عدداً كبيراً ، أدخلهم في جيشه أو بالأحرى في جيش ابنه المعتز ، وقصد أن يرجح بهم على كفة الأتراك ... كل هذا ليقف أمام الأتراك وليضربهم . حاول أيضاً أن يوقع بين الأتراك أنفسهم ، فجعلهم يتفرقون شيعاً وأحزاباً ، وضرب بعضهم ببعض ، بل ضرب أحدهم ضربة شديدة . بعد أن تمكن من الأمر ، وهو **أيتاخ** فإنه حسّن له أن يذهب إلى الحج ، ولما سار إلى الحج عيّن **بُغا** مكانه ، ولما رجع إلى بغداد ألقى القبض عليه ، وسجنه وبقي في السجن إلى أن مات .

ثم إن المتوكل أراد أن يبتعد كل البعد عن الأتراك ، وأن يسيطر عليهم من بعيد ، فنقل عاصمته إلى **دمشق**[1] بين العرب وأقام فيها ؛ واتخذ حزبه من أهلها . غير أنه لم يفلح في هذا ، فالأتراك ثاروا عليه في العراق وطالبوا بأرزاقهم ، وكادت تحصل فتنة لولا أن **بُغا** وقف إلى جانبه ، وأصلح الأمور . ووجد المتوكل أنه أطلق زمام الأمر في العراق إلى الأتراك ، ولبث بعيداً عنهم ؛ فعاد إليهم ليراقبهم منها ، لكنه لم يرض بأن يعود إلى سامراء ، وأن يكون رهينة بين أيديهم ، بل عمر مدينة لنفسه قريبة من سامراء وسماها باسمه **المتوكلية** ، وأقام فيها جنده وحاشيته .

أخطاء المتوكل :

بكل ذلك تخيل المتوكل أنه يستطيع القضاء على سلطان الأتراك ، وهو ما كان باستطاعته أن يقضي عليهم قضاء نهائياً ؛ لأنهم كانوا في جدران عاصمته بالذات ، وكانوا أقوياء ، وكانوا ينتظرون منه الخطأ القليل لينقضوا عليه . أخطأ هو كما أخطأ من سبقه كالواثق والمعتصم فبدّد أموال الدولة

(١) حاول أن ينقل عاصمته إلى دمشق لكنه لم يوفّق ـ المنقح .

بيناء القصور وإهمال بناء سامراء وبناء المتوكلية حتى أنه كان يعجز بعض العجز عن تأدية أعطياتهم . وجد الأتراك عندئذ أن مصلحتهم أن يجتمعوا بعد أن يكون المتوكل قد فرَّقهم ، ويتألبوا عليه بعد أن يكون قد ظن أنه أوقع بهم في الخصام .

ثم أخطأ خطأ كبيراً ، ففعل كما فعل جدّه الرشيد ، وعهد بولاية العهد من بعده لأبنائه الثلاثة القصّر الصغار ، واحدٍ بعد الآخر : المنتصر فالمعتز فالمؤيد . وقسم الدولة بينهم ، وأعطى المنتصر أكبرهم حصة الأسد . وهكذا أوقع أولاده في الخلاف فيما بينهم ، وسار هو بعد ذلك مع ميوله وعاطفته ، فوقف إلى جانب المعتزّ ، وصار يغدق عليه الأموال ، وأهمل ابنه المنتصر ، وعهد للمعتز بخزن بيوت الأموال ودور الضرب ، وكان يتهكم على المنتصر ويستبعده ، فاضطرب المنتصر لذلك ، ووجد الأتراك بغيتهم فتقربوا إلى المنتصر ، وتحالفوا معه ، وأوغروا صدره على والده ؛ وكان موغراً قبل ذلك ؛ ولما تبين لهم أن المتوكل يريد أن يقتل **وصيفا وبغا** وهما رئيساهم المفضّلان ، تجمعوا وأقبلوا على المنتصر يحرضونه على والده ، وساروا إلى المتوكل جميعاً ، فوجدوه يشرب ، فقتلوه وهو على مائدة الشراب .

الأتراك يستبدون بالأمر :

وهكذا أصبح الأتراك قتلة الخلفاء ، وأصبح الخلفاء يخشون شرهم ومن أتى من الخلفاء من بعد ذلك ساروا حسب إرادتهم ، وانضموا إلى لوائهم ، فلم يُجْدِ ما فعله المتوكل معهم ، ولم تنفعه شخصيته القوية ومهارته وحكمته لأنهم قد تمكنوا في العراق ، وأصبحوا أصحاب الأمر فيه .

☆ ☆ ☆

الثورات :

أصبح الأتراك في هذا العهد أسيادا ، يخلعونَ الخلفاء ، ويقيمون غيرهم مكانهم . إن العهد الذي يتّسم بتقلص سلطة الخلافة من عهد المعتصم والواثق والمتوكل ، لا يحوي فقط أثر الأتراك وتسلطهم على الدولة ، فهو عهد يتلو ما قبله ، ويكمل ما فيه ، ويرث ما عنده ، وليس هو عهداً حديثاً ، بل إنه يكمل عهداً قديماً . إذن ينبغي علينا أن نتكلم عن آثار العهد السابق فيه وامتدادها إليه ، فنستعرض في سبيل ذلك الثورات الداخلية والحروب ، والحالة الاقتصادية وما تبعها .

ثورة بابك الخرمي :

أما الثورات ، فطبيعي أن يكون هذا العهد قد ورث عن العهد السابق امتداد الثورات التي كانت تقلق راحة الخلفاء فيه . كانت أول ثورة امتدت إلى هذا العصر هي ثورة (**بابك**) وقد بحثنا في هذه الثورة في عصر المأمون ، ورأينا أنها أنهكت جيشه مدة من الزمن ، مع أنه استطاع أن يدفعها بعيدا ، وتوفي قبل أن يقضي عليها ؛ أتى المعتصم فكان عليه أن يمحو أثرها فجهز إليها الجيوش الكبيرة الضخمة ، وعمل غاية جهده فمحاها عن بكرة أبيها .

ثورة المازيار :

غير أن ثورة جديدة ظهرت في الجو ، وهي تشبه ثورة بابك ، ألا وهي **ثورة المازيار** . فالمازيار خرّمي إباحي ، ظهر في طبرستان ، وامتدت قوته ؛ واضطر المعتصم إلى أن يطلب العون من عبد الله بن طاهر ليقضي على فتنته . هاتان الثورتان ، ثورة بابك وثورة المازيار ، تدلان

على جَيَشان عند الفرس ، ورغبة منهم في الابتعاد عن الخلافة ، وفي الوصول إلى مطالب خاصة . بعض الفرس قد اعتنقوا الخرّمية ليفتدوا أنفسهم من حكم العرب ، وليفتدوا أنفسهم أيضاً من حكم أصحاب الإقطاع الفرس ، الأغنياء ، المتحكمين . ليس غريباً أن نرى الفرس ذوي النزعة الدينية الإسلامية الصحيحة يحاربون هذا الاتجاه بأثر من التدين ، وأن نرى ذوي المصلحة يحاربونه أيضاً ، كما فعل عبد الله بن طاهر .

الثورات العربية :

هذه القبائل العربية في الجزيرة تثور ، لكن ثورتها ليست موجهة ضد الدولة ، فهي اختلاف بين القبائل ، وهي ثورة نفسية تتطلب شيئاً لا تدرك ما هو على الضبط : ثار بنو سُليم ثم ثار بنو فزارة ثم بنو نُمير ، لكن ثوراتها هذه ظلت ثورات محلية محدودة . قضى عليها **بُغا** قائد المعتصم قضاءً سريعا . وثارت القبائل العربية في أذربيجان ، وحضت غيرها من الناس على الثورة ، وهي قبائل في معظمها مشكّلة من بني ربيعة بن وائل ، ثارت في عهد المتوكل ، فأرسل إليها بغا أيضا . فأخمد فتنتها .

تربّص آل علي :

إذن يأخذ هذا العهد من العهد السابق ثوراته ، ونرى أن بعض آل علي يحاولون أيضاً محاولات لا تظهر واضحة إلا في العصر اللاحق .

☆ ☆ ☆

العلاقات مع الروم البيزنطيين :

والأمر الخطير في حوادث هذا العهد هو الحرب مع الروم ، فقد ظهر شيء جديد في جو هذه الحرب : ذلك أن الروم بعد أن كانوا مغلوبين ،

أصبحـوا الآن يغيرون على البـلاد العربيـــة : ويفتحـــون ثغرات في أرض المسلمين وأصقاعهم ، وأصبحوا الآن أقوياء . يعتبر هذا العصر بـدايـة انقلاب في اتجاههم ، ينتهي بإقامـة دولـة بيزنطيـة جـديـدة سنـة ٢٥٦ هـ = ٨٦٧ م اسمها الدولة المقدونية ، دولة قوّت الحكم البيزنطي ، وبعثته من جديـد ، وسارت في طرائق اليونان القديمة ، وبنت وأقـامت وسـائل الحضـارة . شرع البيزنطيون في هذا العهد يظهرون قوتهم ، ومارست تلـك القوة نشـاطهـا في محـاربـة العرب ؛ فبعـد أن كان الروم يتلقـون الهجمات العربيـة أصبحـوا هم المهـاجمين . ولا ريب أن العرب المسلمين استطـاعوا أن يـوقفـوا هـذا التيـار وذلك الاندفاع ؛ وكانوا يؤدبون الروم في بعض الأحيان تأديباً قويـا ؛ لكن هذا الاتجاه الجديد يعتبر حـادثـة من الحوادث الكبرى في هـذا العصر ، وقـد تغيّر فيـه ميزان القـوى ، وأصبـح الروم يحسب حسـابهم . وكان على المسلمين أن يقووا أنفسهم في الداخل ليستطيعوا مقاومة الروم مقاومة مُجـديـة ، غير أنهم مـع الأسف لم يفعلـوا ذلـك ؛ فكان أن اشتـط الروم في العهـود التـاليـة اشتطاطاً كبيراً ، حتى وصلوا إلى حلب وما بعد حلب .

أما في هذا العهد الذي نـدرسـه ، فـإن الروم ـ كما قلت ـ كانوا يغيرون على بـلاد المسلمين وثغـورهم. هـذا هـو **تيـوفيـل** يغـزو **زِبَطْرَة** من ملك الإسلام ، ويأسر الأسرى ، ويـأخـذ الأطفـال والنسـاء بعـدد كبير ، وتصيح امرأة هاشميـة من بين الأسرى « وامعتصماه » ، فينتقل هـذا الخبر إلى المعتصم في مجلس ملكه وخلافته ، فيهب واقفاً ، ويستدعي آلة حربه ، فيشدّها على ظهره ، ويخرج من قصره إلى مخيَّمه بعد أن يقول : « لبيـك » ، ويـأبى أن يرفع آلة الحرب من على جسمه إلا بعد أن يلبي نداء تلك الهـاشميـة . وبعـد مـدة يسيرة ينطلق هو وجيش عظيم هـائل ـ لم ير مثلـه ـ إلى بلاد الروم .

ويلقي القبض في أثناء الطريق على أحد الأسرى الروم ، ويسأله عن بلد ملكهم ، فيعرف أن **تيوفيل** ولد في **عمّورية** ، وأنها البلدة الحصينة العظيمة التي يعلق عليها الروم الشأن العظيم ، فيقرّ قراره على أن يغزو هذه المدينة ، وأن يهدمها انتقاماً لما فعله ملك الروم ، ويسير إليها فيحاصرها محاصرة أجدت في آخر الأمر ، فدخل المدينة وهدمها ، ونقل باباً من أبوابها إلى بغداد . بقي هذا الباب في بغداد حتى عصر التتار .

اقتص المعتصم للهاشمية من الروم الغزاة ، لكن الروم لم يرعووا ، بل عادوا بعد عصره إلى الغزو أيضاً على بلاد المسلمين ، ففي سنة مئتين وإحدى وأربعين للهجرة أغاروا على **عين زربه** وقبضوا فيها على أسرى كثيرين ، وكانت ملكتهم **تيودورة**[1] فقتلت اثني عشر ألف مسلم رفضوا أن يتنصروا . قاتلها المسلمون ، ثم آل الأمر إلى نوع من الصلح المؤقت ، افتدي به الأسرى من الطرفين .

من هذه الحوادث يظهر لنا أن الروم قد نشؤوا نشأة جديدة ، وأن خطرهم أصبح جسيما ، ولم يستطع المسلمون في العصور السابقة أن يقضوا على الروم ، وأن يحتلوا القسطنطينية بسبب مشاكلهم الداخلية . وعندما بدأ نجم المسلمين بالأفول ، أخذ يعلو حظ الروم وطمعوا بالبلاد الإسلامية .

الحالة الاقتصادية :

أما الحالة الاقتصادية ، فهي اتصال بالحالة الاقتصادية في العهد السابق ، إلا أن الموارد بدأت تجفّ ، والنفقات أخذت تزيد ، فالعهد السابق كان عهد غنى كبير وثروة هائلة ، ودخل عظيم . استمر هذا العصر في أوله

---

(١) يذكر اسمها المؤرخون العرب (تذورة) - المنقح .

على هذا النحو ، لكن المعتصم ، وقد اتخذ الأتراك حلفاء له ، اضطر - كما رأينا - إلى أن يعمر مدينة جديدة ، ويحصنها وهي مدينة **سامراء** ، وعمر المتوكل قسماً كبيراً من المدينة أيضاً ، وعمر أيضاً مدينة **المتوكلية** وعدداً هائلاً من القصور ، حتى أنه بلغ ما أنفقه على البناء تسعين ومئتي مليون درهم ، أي ما يقارب اثني عشر مليون دينار ، وهو مبلغ ضخم ؛ وكانت حالة الدولة لا تتحمل كل هذه النفقات ، بل كان يحدث في أثناء البناء أخطاء تنفق الدولة على إصلاحها المال الكثير ، فيذهب هذا المال هدراً ، ومثال ذلك ، أن المتوكل حاول شق فرع من نهر الدجلة ، يصل إلى الأماكن العالية من سامراء ، ثم تبين أن المهندسين أخطؤوا خطأ فاحشاً في التقدير ، فالماء لا يبلغ ارتفاعه ارتفاع الأماكن التي كان مقدراً له أن يصل إليها ، وهكذا ذهب كل عمل عملوه في سبيل ذلك هدراً وبطلاناً . هذا وكانت النفقات كثيرة في غير ذلك من الأمور : نفقات الخلفاء والحاشية والبلاط ، فحاشية الخلفاء واسعة والنفقة عليها واجبة ، وجيش الترك يتطلب الرواتب الضخمة ، وهو لا ينتظر طويلاً لقبضها . لذا كان الخليفة دوماً بحاجة إلى المال . أما الدخل فلم يكن كما كان عليه سابقاً في عهد الرشيد ؛ فالرشيد كان هو المتولي على المال في عهده الثاني ، وكان البرامكة هم المتوكلين على المال في العهد الأول . أما في الفترة التي ندرسها ، فالولاة المنتشرون في أنحاء الدولة قد شعروا بشيء من الاستقلال والقوة ، فهم لا يؤدون كل ما عليهم بكامله ؛ والذي يصل إلى بغداد ، فإن دار الخلافة لا تستفيد إلا من قسم يسير منه . ثم إن الخلفاء اعتادوا في هذا العهد على إقطاع الأتراك ورجال الدولة إقطاعاً واسعاً ، فأصبحت معظم الأراضي في يد هؤلاء الكبار من رجال الدولة ، وهم لا يؤدون منها ما عليهم من ضرائب ، بل هم طامعون في أكثر مما بأيديهم . ثم إنهم لا يلتفتون إلى أملاكهم وإلى تحسين زراعتها ، فكانوا

يتركون أمر إقطاعاتهم إلى وكلائهم . وهي إقطاعات واسعة لا يهتم بها الوكلاء كل الاهتمام . والأرض إن لم يكن صاحبها مهتماً بها ، وإن لم يكن محتاجاً إلى ثمرتها ، فإنها لا تدرّ عليه الثمرة كما ينبغي .

كذا كانت الحالة المادية في آخر العهد الذي نتكلم عنه ، حالة سيئة بعد أن كانت في أوله مزدهرة . وهي حالة ورثها هذا العهد وأورثها للذي بعده ، فزاد الاضطراب ، وقوي الشغب من الأتراك بالمطالبة برواتبهم ، وخفّ دَخْل الخليفة ، وقصرت يده عن المال .

السعي لإيجاد موارد جديدة :

وفي عهدنا هذا سعى الخلفاء كي يجدوا أبواباً جديدة من الدخل ، فوجدوا ذلك عند كُتّاب الخراج ، وكانت لا ترد إلى خزانة الخلافة الضرائب التي كانت تجبى ؛ لأن كتّاب الخراج كانوا يستولون على هذه الضرائب ويتقاسمونها فيما بينهم قبل أن يودعوها بيوت المال . والذي يدخل منها خزانة المال قسم ضئيل . من هذا كله حصلت الرشوة ، وحصل اضطهاد المكلفين لأداء الضريبة ؛ وذلك ليصل الكتّاب إلى أكبر حظ من الكسب والربح والمال . ووجد الخلفاء الحاجة إلى الأموال ، يؤدونها إلى الأتراك والحاشية ، ويسيّرون بها أمور الدولة ، إلى جانب ما يعمرون بها من بناء ، ووجدوا هؤلاء الكتّاب قد أثروا ثراء فاحشاً ، فمدّوا أيديهم إليهم ، وأخذوا يحاسبونهم على المال الذي عندهم ، وصاروا يصادرون تلك الأموال بعد نكبة كبيرة ينكبونهم بها : فيضربون الكاتب ضرباً مبرحاً ، ويستنطقونه على ما أخذ من أموال ، وعلى ما كتب لنفسه من ضياع ، ثم يصادرون كل ذلك ، ويضعون كاتباً جديداً . وقد يكون الكاتب الجديد هو الذي سعى بفضح الكاتب القديم ليحلّ محله ، فيأخذ الكاتب الجديد بجمع الأموال جمعاً

كبيراً ، ثم ينكب هو بدوره ، ثم يأتي من بعده كاتب آخر ، تحلّ به النكبة فيما بعد .. وعلى هذا النحو، فقد أصبحت عادة المصادرة هي عادة الدولة في هذا العهد ، أورثها العهد الذي بعده ، وأصبحت سنّة عند الخلفاء، لكنها سنّة سيئة للغاية ، فالكاتب كان عليه أن يثري بسرعة ، حتى لا تأتيه يد الخليفة بسرعة ، فتقف على ما عنده ، والخليفة كان بحاجة إلى المال ، ويتطلب تأمينه بسرعة ، وكان يطلب أكثر مما يستطيع الكاتب أن يعطي خوفاً من التهريب ، وينتهي كل ذلك بنكبة هائلة للكاتب يتبع ذلك تشويش واضطراب لأعمال الدولة ومصالحها . أما دافع الضريبة فكان يئن تحت الأعباء الثقيلة . قد حاول بعض الخلفاء أن يرفعوا الجور عن الشعب ، وفهموا أن تشجيع التّجارة يزيد في دخل الدولة ، فشجعوا التجارة تشجيعاً كبيراً ، وألقوا عن كاهل التجار بعض الضرائب التي كانت توضع عليهم . مثال ذلك أن التجار الذين كانوا يتاجرون مع الصين ، رفع عنهم العُشر الذي كان يؤخذ منهم كرسم دخول .

محاولة إصلاح نظام الضرائب :

حاول المتوكل أن يقوم بالإصلاح الزراعي لرفع الغبن عن الناس في الضرائب ، فقد كان المزارعون يدفعون الضرائب قبل خروج الثمر فيتضايقون من ذلك ، فأجّل دفع الضرائب عنهم حتى بعد الحصول على الثمر ، لكن الخليفة قتل قبل أن يأخذ ذلك مجرى العادة ، وعادت الأمور بعده إلى مجراها السابق .

تدهور النظام المالي :

وبالجملة ساءت الأحوال سوءاً شديداً اعتباراً من هذا العهد ، وأصبحت المصادرة من أهم وسائل دخل الخليفة . هذا هو الواثق يصادر في عهده ألفي

ألف دينار ؛ أما المتوكل فقد نُمي إليه أن عدداً من كتّابه جمعوا الأموال ، فألقى القبض عليهم . رضي كاتبان منهم أن يقدما ألفي ألف دينار دون أن يعذبا ، فقبل منهما ذلك ، وأطلق سراحهما . أضف إلى ذلك كله أن شؤون الوزراة اضطربت ، والخليفة لا يستطيع القيام بالأمر ، لأنه مشغول البال ؛ لذا كان يلقي مقاليد أمره إلى وزرائه ، إلا أن هؤلاء كانوا غير صالحين ، وكان معظم وزراء هذا العهد أميِّين أو شبه أميين ، لا يعرفون كيف يتصرفون في شؤونهم الخاصة ، فكيف وقد أسند إليهم التصرف بالشؤون العامة ؟ أتى من الوزراء وزير عارف هو **عبد الملك بن الزيات** ، لكنه كان شديداً قاسياً ظالماً ، فسارت الأمور على بعض النظام في عهده ، لكن هذا التنظيم كان تنظيم القوة والشدة ، حتى أنه أحدث تنّوراً ليضع فيه من يريد أن يعذبه ؛ إلا أنه أخيراً وضع هو في التنور وقتل فيه .

أخيراً نرى أن هذا العهد ، ورث عن العهود السابقة عواقب الثورات وحروب الروم ؛ لكنه أورث العهود التي تلته حالة مادية ضيقة واضطرابا في شؤون الخلافة . ولعل ذلك كله يرجع إلى ما أحدثه الانقلاب الذي صنعه المعتصم في جلبه الأتراك من بلادهم وتقريبهم وإتاحة الفرصة أمامهم ليستبدوا بالسلطة .



تضعضع الخلافة العباسية

(٢٤٧ ـ ٢٥٦ هـ)

رأينا في البحث الماضي تقلص الخلافة العباسية ، وتدهور نفوذها وإمساك الأتراك بزمام الأمر يديرونه بسلطانهم وقوتهم ، وسنرى في هذا البحث كيف أدى ذلك إلى تضعضع الخلافة العباسية حتى كاد أن يقضي عليها . ولا ريب أن الأحداث السيئة إذا ألمت بإنسان أو جماعة أو دولة ، تراكمت عليه وأخذت بأطرافه جميعها ، فإنه ينوء بحمله ويخرج الأمر من يده ؛ وهذا ما حصل للخلافة العباسية ؛ فقد اجتمعت حوادث الأتراك وتراكمت وأخذت تسيء إلى تلك الدولة ، فكادت تنقض أركانها .

تلخيص أحوال الخلافة في هذه الفترة :

أحدثت تلك الحوادث مظاهر في تلك الخلافة ، يمكن تلخيصها بثلاثة أمور : **أولها** : إن الخلفاء أصبحوا في أيدي الأتراك كالدمى ، يحركونهم كما يشاؤون ، ويلقونهم على الأرض متى يشاؤون . **وثانيها** : (وقد أتى من أولها) إن الأمصار أخذت تستقل عن الخلافة العباسية وتبتعد ، وأخذ الأمراء يديرون إماراتهم بأنفسهم ، منتهزين وضع الخلافة السيء . **وثالثها** : إن ثورة جامحة في العراق وثبت فجأة أمام عيون الناس ، فكادت تلتهم الأخضر واليابس ، وهي **ثورة الزنج** .

إن هذه الحوادث وتلك الفتن والمظاهر السيئة لم تقض تماماً على الدولة

العباسية ، إنما خرجت الخلافة منها تحمل آثار الخذلان ، ومع ذلك خرجت منها وهي لا تزال دولة وخلافة ، بعد أن انتشلت نفسها من الردى ، وتخلصت من الأتراك ، وقضت على ثورة الزنج . إن لخلاصها هذا أسباباً تأتي في مكانها من البحث . ونتناول قبل كل شيء الفتن الثلاث ، الواحدة بعد الأخرى ، ندرسها دراسة يتم لنا بها معرفة ما تمّ في عصور تعتبر عصوراً مظلمة ، بالنسبة لبني العباس .

مقتل المتوكل ثم ابنه المنتصر :

بلغ الأتراك بعد قتلهم المتوكل أعلى درجات القوة والسلطان ، فقد أصبحوا قتلة الخلفاء ، ولم يكن من الصعب عليهم أن يجتمعوا على المنتصر ابنه الذي أصبح خليفة ، وأن يرغموه على أن يبعد أخويه عن ولاية العهد . وكان المتوكل ـ كما رأينا ـ قد عهد إلى ثلاثة من أولاده بولاية العهد . أما المنتصر هذا فقد حاول أن يتخلص من سلطان الأتراك ، وكان يجهر بذلك فيقول : « إن الأتراك قتلة الخلفاء » يقول ذلك بنوع من الحقد ؛ إلا أن الأتراك لم يمهلوه ؛ فإنه ما انقضى على حكمه ستة أشهر حتى مات ، وهو آسف على ما فعله مع والده ، نادم على أنه كان أول خليفة يقتل أباه . وبديهي أن موته هذا ليس طبيعيا ، فقد كان في نضرة الشباب ، ولا بد أن يداً قد تناولته بالقتل أو بالسم أو بما يوجب الموت .

خلافة المستعين :

ولما مات المنتصر نظر الأتراك في شأنهم ، فاستبعدوا ابني المتوكل عن الحكم ، وعادوا إلى ابن للمعتصم ، فقالوا : المعتصم أستاذنا ومولانا ، فنحن نرى أنّ ابنه أجدر أن يكون خليفة ، فقلدوا المستعين خليفةً ، لكنهم لم يَدَعوا هذا الخليفة يقوم بأمر الخلافة على ما ينبغي ، بل تمكن من السلطان

فيها أحدهم أُتامش ؛ ولم يكن الأتراك الآخرون يريـدون أن يتمكن أحـدهم من الحكم ، فاجتمع على أتامش وصيف وبُغـا وقتلاه ، لكنهما لم يتمكنـا من السلطـان ، بـل كان صـاحب السلطـان هـو بـاغر ، وحـاول بـاغر قتـل المستعين ؛ فـاتفق المستعين مع وصيف وبغـا وهرب إلى بغـداد . فنـدم بـاغر وأصحابه حين هرب الخليفة منهم ، وكتبوا إليه يستعطفونه ، ويطلبون إليه العودة إلى سـامراء ، لكنـه لم يستجب إلى مطلبهم ؛ فبحثـوا عن خليفـة لهم ورجعوا إلى أولاد المتوكل فاختاروا المعتز وولّوه الخلافة .

خلافة المعتز :

وقعت الحرب بين المعتز وبين المستعين : والمستعين في بغـداد مـع أهلهـا وقائدها محمـد بن عبـد الله بن طـاهر بن الحسين ، وقـد التحم بقوة المستعين عيّارو بغداد وشطّارها ؛ وكان المعتز مع الأتراك في سامراء . كان أهل بغداد أكثر عـدداً من الأتراك ، لكنهم كانـوا غير منظمين . حـاول المستعين أن يقطـع التمـوين عن سـامراء ، وحـاول كل من المعتز والمستعين الحصـول على الأمـوال التي ترد من الأمصـار ، لكنّ المستعين غُلب على أمره ، وأحيطت بغـداد وحـوصرت ، وامتـدّ أمـد الحصـار ؛ فلم يقـدر الشعب على الاستمرار ، وبحث عن مخرج للأمر ، فاتصل قائد بغداد وقـاضيهـا بـالأتراك ، وفـاوضهم بـالأمر لإنهـاء الحرب ، وتم الاتفـاق على أن يتنـازل المستعين للمعتز عن الخلافة ، فتضمن حياة المستعين . اضطر هـذا لقبول الصلح ، فـأنقـذ بـذلـك حياته .

أما المعتز الخليفة الثالث في هذه الظروف فـإنـه لم يستطع العمل أيضـا مع الأتراك ، فقـد انقسموا عليـه ، ومـال هو إلى الفراغنـة[1] والمغـاربـة من

---

(١) أهل فرغانة وهم من وراء النهر شرقاً ـ المنقح .

الجيش ، فاضطرب أمر الأتراك لهذا الميل ، وظنوا السوء بالمعتز فحضروا إليه وطالبوه بالرواتب ، وكان بيت المال فارغا ، فلم يستطع أن يؤدي الأموال المطلوبة ، ولجأ إلى والدته **قبيحة** وطلب منها أن تعينه بخمسين ألف دينار ، فادعت أنها لا تمتلك هذا المبلغ ، وهجم الأتراك على القصر ، وأخذوا الخليفة ، ووضعوه في الشمس فوق الرمل ، يرفع رجله تارة ، وينزلها مرة أخرى من الحر ، وأخذوا يضربونه بدبابيسهم ، ثم أرغموه على أن يتنازل عن الخلافة لابن للواثق الذي لقبوه **بالمهتدي** ثم قتلوا المعتز بعد ذلك .

خلافة المهتدي :

هذا المهتدي رجل تقي محب للخيرات ، حاول أن يفعل شيئاً في عهده بقدرة وحكمة ، أحبّه خواصّ الناس وعامّتهم ، لتقاه وتقشفه وحبه للعدل ؛ فقد فتح أبوابه للنظر في المظالم ، وقلّل من نفقاته الخاصة ، فلم يكن يأكل إلا القليل ، واقتدى بسيرة عمر بن عبد العزيز ، وكان يقول : « إني أكره ألا يكون لخلفاء بني العباس مثل عمر بن عبد العزيز » ؛ وأقبل على الأتراك يضرب بعضهم ببعض ، ويوقع بينهم ، وقبض على **بايكباك**[1] زعيمهم وقتله . ولم يكن ليتجاسر الأتراك عليه في أول الأمر ، إلا أنه بعد أن قتل بايكباك ، هجموا عليه ، وقتلوه ، وأحضروا أحمد بن المتوكل ، فعهدوا إليه بالخلافة باسم **المعتمد** فبويع له بذلك ، وفي عهده حصلت ثورة الزنج .

---

(١) هكذا ذكر الطبري (الحسينية ج ١١ : ص ١٥٦ وغيرها) : أما ابن الأثير (٧ : ٦٠) فإنه يذكر اسمه (بابكيال) ـ المنقح .

خلافة المعتمد ونفوذ أخيه الموفق :

ماذا يستخلص من هذه الحوادث المتشابكة الكثيرة التعقيد : خلاصتها أن الأتراك كانوا يعبثون بالخلفاء دون نظام ودون فكرة تقودهم إلى غاية معينة ولا خطة واضحة . هم طبعاً كانوا يبغون المال والسلطان ، وكان كل منهم يسعى إلى المال والسلطان ؛ ولما لم تكن لهم خطة مرتبة ، فإن الأمر انتهى إلى الاضطراب والقلاقل . في الواقع إن الأتراك كانوا حين يغضبون على السلطان لا يعرفون ماذا يفعلون ، ولم يكونوا على وفاق فيما بينهم ، فكان من يصل منهم إلى القوة يبغضه زملاؤه ويحاربونه ويقضون عليه . وكانت الغيرة تأكل من أكبادهم ، فلا يستقرّ لهم حال ؛ كانوا متخالفين متخاصمين دائماً . يرى الخليفة ذلك فيطمع فيهم ، ويزيد في شقة الخلاف بينهم ، لكنهم كانوا يصبحون يوما ، فيجدون أن الأمر سيخرج من أيديهم ، فيتكاتفون مرة أخرى ، ثم لا يجدون أحسن من قتل الخليفة ، ثم لا يعرفون بعد ذلك من هو الخليفة الذي يلائمهم ويلائم أحوالهم .

وكانوا لا يعرفون من هم الوزراء الذين يسيرون حسب رغباتهم ، فكانوا يتركون للخليفة أمر تعيين الوزراء ويسيرون هم خبط عشواء . وهكذا اضطرب الحكم بوجودهم واضطربوا هم به ، وتقاتلوا فيما بينهم وأدى قتالهم إلى تشتت أمرهم ، فتضاءل شأنهم وقلّت قيمتهم ، وامتدت هذه الفوضى تسع سنوات حتى إذا انضم **الموفق** إلى أخيه الخليفة المعتمد ؛ واستطاع أن يكون له الأمر دون الخليفة ، أرغم الأتراك على الطاعة ، وجعلهم بين يديه كالخاتم ، متّخذاً لذلك الطريق الصالح .

❋ ❋ ❋

ثورة الزّنج

في هذه الأحوال المضطربة ، وفي هذا الوضع من التضعضع في سلطان الخلفاء ، ظهرت ثورة كبرى دعيت بثورة الزنج ، هددت كيان الدولة العباسية أكثر مما هددها الأتراك . ثورة الزنج حصلت في العراق ، وامتدت من البصرة حتى أبواب بغداد ، واستولت على جزء كبير من العراق ، وقطعت التموين عن عاصمة الخلافة ، وفتكت بالناس ، واستعبدت العرب وغير العرب ، وجرت الدماء أنهاراً في بقاع كثيرة .

أسباب الثورة :

ما هو سبب هذه الثورة ؟ سببها البعيد تضعضع الخلافة العباسية الذي جعل للثوار مجالاً يعملون فيه ، لكن هنالك أسباباً اقتصادية أساسية أدت إلى حدوث هذه الثورة ، فقد حصل تطور اقتصادي في عهد الخلافة العباسية ، ذلك أن العراق أصبح في عهد الرشيد مركز العالم ، تأتيه ثمراته وأمواله ، وتنصبّ عليه بضائعه المختلفة وجواهره وذهبه . غني العراق من ذلك غناءً فاحشاً ، وكثر المثرون فيه ، ومعظمهم من التجار ، وتضخمت الثروة بين أيديهم ، فأقبلوا على الأراضي يشترونها ، وصاروا يحاولون الحصول على ثروة أكبر ، ففكروا في شراء تلك المستنقعات التي تقع بين البصرة وواسط ، وهي أراض فيها مياه يستخرج منها الملح ، وهي مغطاة بالأعشاب والآجام ، فاشتروا العبيد من الصومال وزنجبار بأسعار رخيصة ، ووضعوهم في تلك الأراضي يجففونها فيستخرجون منها الأملاح ، ويزرعونها

فتعطيهم الثمرات ويستخدمون الزنج دون تكاليف ، اللهم إلا ما يأكل هؤلاء الزنوج من سويق وتمر بأسعار بخسة .

وحال أمر هؤلاء الزنوج إلى حالة سوء شديدة ، وقد كثر عددهم ، فصاروا جماعات جماعات يقومون بهذه الأعمال ، بعضها يتألف من خمسة آلاف شخص ، ويصل العدد إلى خمسة عشر ألفاً ، يجتمع هؤلاء ، ويبكون أمرهم ويندبون حظهم ، دون أن يسمع إليهم أحد . لقد كانوا جماعة أشداء أقوياء ، يدل على قوتهم قيامهم بالعمل في أراض مستنقعة وفي أجواء موبوءة ، واستطاعتهم تحمل قساوة العيش بالرغم من ذلك . أما تجمّعهم جماعات ، فإن ذلك يمهّد لهم بأن يتفقوا ويتفاهموا ، فكانت ريح الثورة مهيأة بينهم ؛ إلا أنهم أشخاص أميون ، لا يعرفون من الثقافة والعلم شيئاً ، فكان لا بدّ لهم من قائد يقودهم ، وهو يهيئهم إلى العمل الثوري ، إن الأرض التي يعملون عليها تساعد على الاختفاء والظهور ، وهي أرض يصعب الاستيلاء عليها من قبل جيش منظم مدرب . إن نشر الدعوة الثورية بين هؤلاء العبيد المتذمرين سهل ، وإن إدخال فكرة المقاومة في أذهانهم وفكرة الحصول على المال الذي يستحقونه سهل أيضاً .

صاحب الزنج :

ظهر ذلك الزعيم الذي استطاع أن يجمعهم وأن يقودهم ، وأن يحدد لهم أهدافهم ، وقد سمي في التاريخ **صاحب الزنج** ، واسمه الأصلي **« بهبوذ »** وتسمّى بمحمد بن علي ، وانتسب أولاً إلى بني عبد القيس ، ثم انتسب إلى الزيدية من أولاد علي ، وكان صاحب فكر ونظر ، يُعمل عقله كثيراً أكثر مما يعمل سلاحه . وكان فناناً في تحايله ووسائله التي يستعملها . وضع أهداف الثورة ، ودعا إلى تلك الأهداف ، فإذا هي **أولاً :** تحرير الزنوج

ورفع مستواهم . **ثانياً :** تمكينهم من الحصول على الأموال والأرقّاء والعبيد . **ثالثاً :** تمكينهم من الوصول إلى السلطان والقوة والملك . وادعى أنه يسير على طريقة الخوارج ، والخليفة ليس هو العربي فقط ، بل يصح أن يكون العبد خليفة ، وكتب على راياته الآية الكريمة ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ... ﴾ وهي الآية التي اتخذها الخوارج والأزارقة شعاراً لهم .

ليس في دعوة صاحب الزنج أية فكرة شيوعية اشتراكية ، فالتحرير ليس فكرة شيوعية محضة بل هو فكرة عامة ، والأموال لم تكن تقسم بينهم على طريقة الاشتراكية ، فلكل ماله ؛ وإن الرق موجود في هذه الدعوة ومشروع ، وما أكثر الأرقاء الذين وقعوا في قبضة الزنج ، حتى كان الزنجي الواحد يمتلك عشرات من النساء العربيات ، وامتلك بعضهم عشراً وأكثر من العلويات أنفسهن ، ولم يتشيع صاحب الزنج بالرغم من أنه انتسب إلى زيد ابن علي ، فمبدؤه ـ كما قلنا ـ مبدأ الخوارج والأزارقة ، وقد اشتطّ به الأمر ، فادعى النبوة ، وادعى معرفة الغيب ، وانتحل الوحي والمقدرة على ما ليس لغيره من الناس .

تفاقم أمر الزنج :

ابتدأ أمر صاحب الزنج عام ٢٥٤ هـ ، ففي هذا العام خطب في الزنوج خطبة ، قال الطبري عنها إنه : « ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال ، وإن الله قد استنقذهم به من ذلك ، وإنه يريد أن يرفع أقدارهم ويملّكهم العبيد والأموال والمنازل ، ويبلغ بهم أعلى الأمور » . أقبل الزنوج على الدعوة زمراً زمراً ، تتكون الزمرة من الخمسين إلى الخمسمئة شخص ، والتفوا حوله وكثر عددهم عنده . ثم التفت إلى غيرهم ، فصار ينشر دعوته

بين الفلاحين وسكان القرى ، يجتذبهم بما اجتذب به الزنوج ؛ وألقى بدعوته أيضاً إلى بعض الأعراب المتذمرين من الحكم العباسي ، والـذين يحبون النهب والسلب : فـأطمعهم في ذلـك ، وكان لا يعـدم وسيلـة في تبليغ دعـوتـه إلى السود من الجنود الذين يعملون في جيش الحكومة ، فينتسبون إليه انتصاراً لأهل لونهم ، وتتوسع الحلقـة والأتبـاع ، فيتم لصـاحب الزنج جيش لم يجتمع للخليفة نفسه مثله .

وسائل صاحب الزنج :

وقـد ذكرنـا أن صـاحب الـزنـج كان قـديراً فـاهمـاً وذكيـاً متروّيـاً في أموره ، وكان قد فكر زمناً طويلاً في تنظيم أمره ، وتنظيم دعوتـه ، وتنظيم خططه الحربية ، وفكر في قوة خصومـه وفي مقـدرتهم الحربيـة ، فوجـد أنـه لا يستطيـع أن يقـاومهم وجهـاً لـوجـه ، وأن يـدحر جيـوشهم في مـوقعـة واسعة : فـأتبـاعـه ليسوا من أهل السـلاح والفروسيـة كجيش الخلفـاء . أدى تفكيره الجديد إلى وضع خطة سار عليها ، ووُفّق في تنفيـذهـا كل التوفيق ، ونستطيع أن نستخلصها من أعماله ومن حروبه نفسها ، وهي تشمل الوسائل التالية :

أولاً : الانقضاض السريع على العدو والإغارة عليه مفاجأة ، والإغـارة على القرى والدساكر لإلقاء الرعب وكسب المال والتمويل : غارات سريعة ، وانقضاض يتلاحق بحيث يتعب العدو ، ويلقي الرعب في نفوس السكان .

ثانيـاً : غزو المـدن الكبيرة ، يـدخل جيش الزنج فيهـا ، فيـأخـذون مـا يشـاؤون ويسترقّـون من الأولاد والنســاء مــا يشــاؤون ، ويقتلـون ويسفكـون الــدم ؛ ولكن يترتّب على الجيش ألا يبقى في تلــك المــدن الكبيرة ، وأن يخليهـا بعـد أيـام إذا كانت قريبـة من جيـوش السلطـان .

والقاعدة في ذلك أنه ينبغي ألا يلتحم جيش الزنج مع جيش الخليفة في مكان معين غير محصّن .

ثالثاً : توزيع جيش الزنج في الطرقات وفي الأماكن المأهولة وغير المأهولة وبين الأحراج والأشجار والمستنقعات توزيعاً يستطيع به هذا الجيش أن يضرب جيوش الخليفة في كل وقت ، وأن يلعب دور الكمين ، فيريع جيش الدولة ويقضّ مضجعه ، ويجعله دوماً في هلع وفزع مستمرّ ، ويقطع التموين عن قطعات الجيش ويفصل طلائعه عنه . ويقطع صلته بالعاصمة.

رابعاً : يجب أن يكون لجيش الزنج مكان ، أو أمكنة حصينة يلتجئ إليها إذا هوجم وهزم ؛ ويجب أن تكون هذه الأماكن محصنة كل التحصين ، لا تصل إليها يد السلطان إلا بصعوبة هائلة ، وأن تكون محاطة بالمستنقعات وبالأشجار والأدغال والترع ، بحيث يتعذر على جيش الدولة الوصول إليها . وقد بنى صاحب الزنج حصوناً من هذا النوع ، وجعل خلفها حصناً كبيراً سماه **المختارة** أقامه على الضفة الغربية لنهر أبي الخصيب ، بحيث لا يستطيع جيش الخليفة أن يصل في آخر الأمر إلى هذه المدينة إلا بعد أن يجتاز النهر ، فيجد أمامه حصناً هائلاً ، بني أولاً من اللبن ثم أدخلت الحجارة إليه ، وفيه قصر صاحب الزنج ، وفيه يقيم ، ويوجّه الأمور .

هذه هي خطط صاحب الزنج التي واجه بها الدولة وحارب بها حرباً عنيدة واسعة ، ولعب فيها دور السفاك المخيف المرعب ، ووصل بها إلى أبواب بغداد ؛ وقطع الطرقات ، واستولى على مدن مختلفة كما سنرى ، هذه الأساليب قد ندعوها اليوم حرب العصابات ، وكانت حريّة بأن تعطي

صاحبها النصر أمداً طويلاً من الزمن ، وهذا ما قصده صاحب الزنج لتمكين أمره عسى أن يسعفه الزمن بالهجوم على بغداد أخيراً والتمكّن منها .

حروب الزنج :

بعد أن انتهينا من وصف خطط صاحب الزنج ووصف دعوته وكيف اتجهت تلك الدعوة ، لا بدّ لنا من أن نرى وصف الحروب التي قام بها ، وحسبنا أن نأخذ فكرة عامة موجزة عن هذه الحرب ، لنستطيع أن نتصور خطر هذه الحرب وامتدادها وبُعد أثرها .

أول ما فعله صاحب الزنج أنه ضرب جيش البصرة ، وكان للبصرة عامل من قبل الخليفة ، وعنده جيش ، فظن أنه بإمكانه أن ينهي حرب الزنج بجيشه ، لكنه هزم هزيمة شنيعة . كانت البصرة منقسمة على نفسها ، فيها حزبان ، فما استطاع الوالي أن يقوي أمره ، وأن يضرب الزنج ضربة قاضية ، بل استنجد بالخليفة ، فأمدّه بقائد تركي اسمه **جعلان** وسار هذا القائد بجيش كثيف مرتب : وظن نفسه في ساحة حرب كبيرة ، فإذا به يفاجأ بالكمناء والمستنقعات أمامه . ويفاجأ بحرب ما كان له عهد بها ، فانكسر جيشه ، وهزم شرّ هزيمة ، وخلا المكان لصاحب الزنج ، فاتجه هذا إلى شرقي المختارة ، ودخل مدينة **الأهواز** ، واستولى عليها ، وبقي فيها مدة من الزمن ، غير خائف بل مطمئناً ، لأن النجدة لا تصل إليها ، إلا بعد أن تجتاز مراحل صعبة ، وأهوالاً كبيرة لم تكن مهيأة لها . امتد نفوذه في جهات البصرة حتى واسط وحتى طرقات بغداد ، وكاد يبلغ بغداد ، فتفاقم شرّه واتسع .

ثم دار الزمن دورته فاستولى على الخلافة **المعتمد** كما رأينا ، وكان الحاكم الفعلي في عهد المعتمد أخوه **الموفق** ، وهو القائد وفي يده الجيش ، وهو

الذي يعيّن الوزراء والعمال ، أما الخليفة فكان منطلقاً إلى لذاته وشهواته ، والموفق كان رجلاً قوياً حازماً مدبراً للأمور ؛ بعيد النظر قوي السياسة والحكمة ، وجد أمامه خطر الزنج ، فحاول القضاء عليهم ، وأرسل قائداً لمحاربتهم ، لكن هذا القائد لم يفلح ، وهزم أمامهم ، وعاث الزنج بالبلاد فساداً كبيراً ، وتمكنوا من دخول البصرة هذه المرة ، واستبدوا بها قتلاً وسفكاً وفعلوا أفعالاً منكرة ، وقيل إنهم قتلوا أكثر من ثلاثمئة ألف إنسان في البصرة وحدها : وأعطبوا أعداداً أكبر من ذلك بكثير ، (هذا العدد مقارب للحقيقة) ، وأسروا من أهل البصرة عدداً كبيراً من النساء والأطفال ، حتى كان للواحد منهم عشر نساء رقيقات بين يديه ؛ ثم انسحبوا من البصرة بعد أن ساموها سوء العذاب ، ونهبوا ثروتها ، وكانت من أعز مدن العالم قوة وثروة . وهنا رأى الموفق أنه لا بدّ له من أن يتقدم بنفسه فسار لحرب الزنج على رأس جيشه ، فهزم أمامهم بعض الهزيمة ، ولكن لم تفتّ هذه الهزيمة في عضده ، وعزم على ملاحقتهم ، فاعترضه مانع منعه من ذلك ، وهو أن **يعقوب الصفّار** ، وكان قد استقل في سجستان ، سار إلى بغداد يريد دخولها ، والاستيلاء عليها ، فكان على الموفق أن ينسحب من حرب الزنج ، ويوكل مكانه إلى قائد ويعود إلى بغداد لمحاربة يعقوب . حاربه - كما سنرى - ثم بعد أن توفي يعقوب ، استطاع الموفق أن يعقد الصلح مع خَلَف يعقوب ، وأن يتفرغ لحرب الزنج . من محاسن يعقوب أنه لم يرض أن يتحالف مع الزنج ، فقد كان يعدّهم مارقين متزندقين .

عاد الزنج إلى عبثهم وإلى سفك الدماء والاستيلاء على المدن وسلبها كالأهواز وواسط ، فلما عقد الموفق الصلح ، قرر أن يقضي نهائياً عليهم ، ووضع خطّة لذلك فقد أصبح يعرف الزنج معرفة طيبة ، ويعرف من أين تأتي قوتهم ، فهو قد اطلع على طريقتهم في الحرب ، وأنهم لا يحسنون

حمل السلاح والتدرُّب على القتال كما يحسنه جيش الخليفة ، فوضع خطط لمحاربتهم ، تمنع كل وسيلة من وسائل نجاحهم . وإليكم بيانها فيما يلي :

علم خطورة التموين وأهميته ، فكان عليه أن يعد العدة لتموين جيشه تموينا دائماً ، واتخذ لذلك السفن ، يحملها بالمواد ، وتخوض باستمرار في الأنهار . ثم إنه كان عليه أن يفعل كما فعل الزنج ، فينشئ الحصون للجيش يأوي إليها ، لئلا يباغت من قبل صاحب الزنج ؛ فأنشأ حصوناً في طرف واسط وبعض جهات البصرة ، وأنشأ مدينة حصينة سماها **الموفقية** ، فكان الجيش يعسكر في هذه المدينة ، وينطلق منها لمحاربة الزنج . يجب أن يكون الانطلاق رويداً ، وأن يكون مرحلة بعد مرحلة ، وأن تسوى الأراضي التي يستولي عليها ، وأن تمهّد ، وأن يستولي الجيش على مركز يقيم فيه في تلك الأرض لئلا يباغت ثانية .

توّج كل هذه الأمور والخطط بأسلوب كان له أثره في إنهاء الحرب ، وهو أنه بعد أن عرف الطرقات والمسالك ، وعرف كيف يتجه في ضرب العدو ، اتخذ السبيلَ ليثبط عزيمة عدوّه ، وليس خيراً لذلك من أن يؤمن الأعداء على حياتهم ، وأن يمنيهم بالوعود الكثيرة ، وأن يؤمن العربان والسود من الخارجين عليه ، وأن يؤمن الزنج أنفسهم ، فكان إذا وقع في يده أسير منهم ، أحسن معاملته وأكرمه أمام أصحابه ، وكان يعلن أمانه لكل من يغادر جيش الزنج ، ويكفّ عن القتال ؛ أخذ يكاتب أصحاب الزنج ، فيدخلون في طائفته ، ويجمعهم حوله حتى كثروا ، وجعل سيطرة الخليفة وهيبته رهيبة قائمة ، فظن الزنج أنهم لا قبل لهم بالخليفة وجنوده ، فأتوه أفواجاً أفواجاً يلتمسون أمانه .

بهذه الأساليب جميعاً استطاع أن يتغلب على صاحب الزنج وعلى

حيله وكثرة جنوده وكثرة الأموال بين يديه ، هذه الخطة وضعها الموفق لابنه أحمد (الذي أصبح خليفة فيا بعد وسمي بالمعتضد) فسار أحمد إلى محاربة الزنج ، وأخذ ينشئ الحصون ، وأخذ يفرق أصحابه ، ثم تقدم الموفق لمساعدة ابنه في تلك الحرب ، واستلم القيادة بنفسه ، فاستطاع أن يقضي على أول حصن لصاحب الزنج ، وأن يتقدم في أرضه ، وتقدم خطوة خطوة حتى بلغ المختارة ، وضرب المختارة بمنجنيقاته وعرّاداته فأصاب أسوارها وأنزل بها ضرراً بالغاً ، إلا أنه لم يستطع الاستمرار ، لأن أحمد بن طولون أخذ يغري المعتمد الخليفة ، فيحاول هذا أن ينتقل بالحكم ودار الخلافة إلى أحمد بن طولون ، عاد الموفق إلى بغداد ، وعمل على إعادة أخيه إليها ، وبعد أن تمّ له ذلك ، واطمأنّ باله عاد إلى المختارة لمحاربتها ، لكن صاحب الزنج كان في هذه الأثناء قد أعاد تحصين المختارة من جديد ، فعادت الحرب مرة أخرى بشدتها الأولى ، وساعد الموفق في تلك الحرب أن لؤلؤاً من أصحاب أحمد بن طولون خرج عليه ، وتقرّب من الموفق ، والتحق بجيشه ، فتمّ بذلك للموفق جيش كبير ، ولكن دون أن يبلغ عدد جيش صاحب الزنج . وهاجم الموفق المختارة ، فنقض حصونها . ثم استحضر من انتقل إليه من قواد الزنج ومن أصحابهم ، فذكر لهم أمانه لهم ورعايته لأمورهم ، وأنه يقصد بهم الخير ، وحمّسهم ، وطلب إليهم أن يدلّوا جيشه على مواقع المدينة ليدخلوها ، ففعلوا ذلك ، واستطاع جيشه أن يدخل المختارة وأن يستولي عليها وعلى كنوزها ، وكان قد اجتمع فيها ثروة هائلة من الكنوز والأموال . هرب صاحب الزنج من المختارة ثم لوحق في مكان آخر ، حتى أخذ وقتل . وبذلك انتهت حرب ضروس كادت أن تودي بحياة الخلافة العباسية ، وكادت أن تمكن صاحب الزنج من تدمير بغداد : الأمر الذي تمكن منه صاحبا التتار هولاكو وجنكيز خان .

نتائج حروب الزنج :

الذي يستخلص من حرب الزنج أنها كانت حرباً تعتمد على التمويه وقطع الطرقات وإقامة الكمين ، وقد تجلّى فيها تفكير صاحبهم وتنظيمه للأمور ومعرفته بنفسية الجماعة التي يحكمها وبمقدرتها . وهي تدلّ أيضاً على ضعف الخلافة العباسية وتضعضع حالها ، حتى كادت أن تتفكك أمام هذه الحركة التي هي بالأصل حركة جزئية .

ساعدت حرب الزنج الخلافة العباسية على أمر هام ، هو أنها قضت على حكم الأتراك ، أولئك الذين رأيناهم يلعبون بالدولة العباسية كما يشاؤون ، ويلعبون بالدولة والخلفاء ؛ ذلك لأن الأمور كانت مستتبة ، ولأنهم أصحاب الشأن في بغداد وسامراء ، أما الآن فقد ثارت في وجههم حرب هائلة حرقت الأخضر واليابس ، حرب ما استطاعوا بجيوشهم وتدريبهم وعنادهم على القتال التغلب عليها ، ونجح العباسيون حين أخفق الأتراك ، فكان من ذلك أن قوي سلطانهم ، وتبين أنهم هم المسؤولون عن الدولة أولاً وآخراً ؛ وهكذا جعلوا الأتراك تحت أيديهم ، يعطونهم القيادة حيناً ، ويأخذونها منهم حيناً آخر ، وأخيراً كسبوا النصر عن جدارة .



النزعات الاستقلالية عن الدولة العباسية

كلمة عامة في ظهور هذه النزعات وتعليل ظهورها :

ظهرت في القرن الثالث[1] الهجري حركات استقلالية عن مركز الدولة العباسية في العراق ، وذلك في بلاد إيران بأجمعها من خراسان إلى سجستان إلى جرجان ، وفي مصر[2] وفي جنوبي بلاد اليمن[3] هذه الحركات الاستقلالية تشعبت في هذا العصر ، وأخذت شكلاً واضحاً ، وخيل للناظر أن الخلافة العباسية قد تفككت ، وأن هذه النزعات الاستقلالية ستضيق رقعة الخلافة العباسية ، بل تكاد تقضي عليها ، يحاول المؤرخون تفسير هذه النزعات ولايجدون صعوبة فى ذلك ، فأمامهم أمر واقع واضح : هو أن الدولة العباسية ضعيفة في مستقرّها في بغداد أو في سامراء بسبب تسلط الأتراك وبسبب الفوضى التي أحدثوها ، وكان الخلفاء العباسيون لا حول لهم ولا قوة أمام هذه الفوضى ، فإذا كان الأمر كذلك في مركز الحكم ، فإنه من الأحرى ألا يكون لهم حول ولا قوة أمام تلك النزعات الاستقلالية البعيدة ، يضيف المؤرخون إلى ذلك أن حرب الزنج كان لها أثر كبير في تطور حوادث الاستقلال ، وأن الذي بعث نزعة الاستقلال هو الميول العنصرية ، لاسيا

---

(١) يجب ألا ننسى قيام الدولة الأموية في الأندلس ، ونشوء دولة الأدارسة في المغرب قبل القرن الثالث ، وهما مستقلتان تماماً عن الخلافة العباسية ؛ كما ينبغي أن نذكر إحداث دولة بني الأغلب في إفريقية سنة ١٨٤ هـ تابعة للخلافة ـ المنقح .

(٢) قامت أولاً الدولة الطولونية ثم الدولة الإخشيدية ـ المنقح .

(٣) الدولة الزيادية في اليمن قامت على يد محمد بن إبراهيم الزيادي ـ المنقح .

منها الميول القومية عند الفرس . هذا التعليل يوضح لنا جانباً من المسائل ، لكنه لا يوضح لنا كل شيء في أمر استقلال أصحاب هذه النزعات .

نحن نريد في التاريخ أن نبسط الحقائق بسطاً واضحاً ، وأن نرى جميع جوانب القضية ، وأن نصنف عللها ، وأن نجعل لكل علة مكانها ووزنها وقيمتها ، وأن نكوّن من كل ذلك مزيجاً صالحاً صافياً من الأدلة يبين لنا واقع الأمور ، كما يبين لنا متناقضاتها . من الصعب أن نتخيل أن دولة العباسيين ودولة الإسلام تتفكك وتتجزّأ بسبب الاضطرابات الداخلية في بغداد أو سامراء فقط ، ومن الصعب أن نتخيل أن النزعة الفارسية الاستقلالية التي لم تنجح قبل ذلك في عهد المأمون وقبله في عهد السفاح أن تكون سبباً أساسياً ؛ ومن الصعب أن نتخيل كيف نجحت في القرن الثالث دون صعوبة . لابدّ من أن يكون لحركة الاستقلال والتوسع أسباب عديدة متضافرة متكاتفة توضّح الأمر من جميع جوانبه . سنحاول فيما يلي أن نبين بالترتيب شكل الاستقلال وطرقه وما انتهى إليه .

حركات آل علي :

نعلم مما تقدم معنا من أبحاث أن العباسيين استطاعوا أن يوقفوا حركة آل علي وأن يمنعوهم من الظهور والمطالبة بحقهم في الخلافة . حدث هذا المنع في الدور الأول من نشوء الدولة العباسية ، لكنها تضاءلت مطالبة آل علي في الدور الثاني وخفّت . سبب ذلك ـ كما رأينا ـ أن العباسيين التزموا مظاهر التقى والسنة والجماعة ، فهم منذ نشأتهم تمسّكوا بمظاهر التديُّن ، وتمسكوا إجمالا بالسنة والجماعة أمام عامّة الناس . نعم ، كان بينهم من يختلس الوقت للشرب أو للتهتك أو لغير ذلك ، لكن أمره لا يظهر واضحاً أمام الناس ، والناس يعرفون فقط المظاهر الخارجية . والخليفة العباسي

إجمالاً يبدو تقياً في الظاهر مدافعاً عن الدين وعن السنّة خاصّة . إذاً الخلفاء العباسيون استطاعوا أن يوقفوا استقلال الأقطار بالتزام أهل السنة والجماعة ، ثم إنهم قضوا بهذه الوسيلة على كل أمل في الاستقلال بنزعة دينية غير إسلامية ، فهم قد ضربوا الزندقة بدون هوادة ، بحيث لم تقم لها قائمة ، على هذا النحو أوقفوا تلك التيارات التي كانت قد تضر بحكمهم وسلطانهم .

أثر الأمويين :

ثم هم منذ أول دولتهم قضوا قضاءً مبرماً على الأمويين بحيث لم تقُم لهم قائمة أبداً ، فتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، فلم يبقوا على أموي إلا واحداً هرب إلى الأندلس ، فأقام دولة هناك خرجت عليهم . ثم أقام عبد الرحمن الثالث خلافة انتصبت أمامهم بشبحها ، ولكنهم في المشرق ومصر قضوا على كل مطالبة بالخلافة من أموي / من هذا يظهر أن الاستقلال لم يكن سهلاً كما قد يتصوره المرء ، وأن له شروطاً ، وأن أمامه موانع تحول دونه .

اتساع المملكة والاضطرار إلى التجزيء :

غدت المملكة متسعة اتساعا هائلاً ، فرقعة الخلافة العباسية تمتد آلاف الكيلو مترات ، ووسائل النقل ليست ملائمة في ذلك العصر لتلك المسافة الواسعة / جاء هارون الرشيد فمهّد إلى نزعة الاستقلال ، فهو قد قسم مملكته كما نعلم بين ولديه الأمين والمأمون ، فثارت المنازعات بين الأخوين ، ونبتت الفكرة الاستقلالية عند الشعوب وخاصة الشعب الفارسي . ثم إن الخلفاء الذين أتوا بعد هارون الرشيد اتبعوا سياسة التجزيء .

طريقة حكم الولايات النائية :

لعلهم لم يكونوا يشعرون بهذه التجزئة فقد عهدوا إلى قوّادهم أو إلى

المقربين منهم بحكم بعض الولايات النائية ، دون أن يطلبوا إليهم الذهاب إلى تلك الولايات . بل تركوهم يضعون نواباً عنهم يقومون بالأمر بدلا منهم . والولاة مقيمون في بغداد أو في سامراء. جرى هذا الأمر بصورة خاصة في عهد الفوضى الذي خلقه الأتراك : فوضى السنوات التسع التي مرت معنا . فالقائد التركي يأخذ الولايات ، ويرسل مندوبيه ونوابه إليها ليحكموها باسمه ، ويبقى هو في مركز الخلافة ليشارك غيره في المؤامرات ، وليعتزّ بحياة البلاط ، وتأتيه من الولايات الضرائب والأموال إلى أحضانه ، دون أن يسعى إليها. من الطبيعي في حالة كهذه أن يسعى النواب (الذين هم ليسوا أصليين في الولاية) إلى المال وإلى السلطان والجاه ، وإلى إرضاء الوالي القابع في العراق ، وإرضاء الخليفة بإرسال أكثر ما يمكن من الأموال ، ومن الطبيعي أيضا أن يسعوا ليحصلوا على المال لأنفسهم أولاً ، ولا يتم لهم هذا الأمر إلا بمالأة القائمين على الأمر معهم وبالضغط على الشعب وظلمه .

النظام الإقطاعي :

كان الخليفة يقطع الأراضي لنوابه ووزرائه وقوّاده والمقربين منه ، يكتفي هؤلاء أيضا بإرسال الوكلاء لإدارة هذه الإقطاعات ، فيسوء الاقتصاد ، ويخفُّ الدخل ، وتزداد الرشوة ، ويكثر الظلم ، ويئن الشعب .

سوء الحالة الاقتصادية في الولايات :

الشعب في فارس وفي مصر وفي اليمن كان يرى العراق وهو في حالة من الازدهار الاقتصادي لاتماثلها حالته ، ويسمع عن مدخول العراق ، ويسمع عن الأموال التي تذهب إلى العراق وتنفق في غير سبيلها ، فتقوى النزعة الاستقلالية عنده ، ويرى أنه لن يخلّصه من جور نوابه ومن دفع الأموال

التي تذهب إلى العراق إلا حاكم مستقل يصلح حالته الاقتصادية ، ويرفع عنه الظلم ويسوّي بينه وبين غيره .

الفوضى والاضطراب :

هذه الحالة ، وذلك الاتجاه ، وهذا التطور حدث كله في القرن الثالث ، حدث في وقت قام فيه الأتراك في بغداد وسامراء بما قاموا به من فوضى وعدوان ، حدث أيضاً في وقت قامت فيه حركة الزنج ، وامتدت على الصورة التى رأيناها ، وقد بحثنا في أسباب هاتين الحركتين ضمن إطارهما هنا وفي علاقاتها بالبحث مرة أخرى .

ضعف العصبية التي يجب أن يعتمد عليها الخليفة :

الخليفة العباسى ـ كما ذكرنا ـ تسلّح بالدين والسنة منذ أول أمر الخلافة العباسية ، لكنه لم يتخذ لنفسه عصبية معينة وجيشاً يستند إليه ، استند إلى الجيش الخراساني الذي نقض أركان الدولة الأموية ، لكن هذا الجيش لا يمكن أن يبقى مخلصاً للخلافة بسبب نزعاتٍ قومية أو محلية كانت تستثار من حين إلى آخر في خراسان وفي الجيش نفسه . كان العباسيون يعلمون أن هذا الجيش لايمكن الركون إليه تماماً ، لكنهم في أول الأمر كانوا مسيطرين على كل شيء ، فاستطاعو أن يسيطروا على الجيش وأين كانوا يستطيعون أن يجدوا تحالفاً من غير الخراسانيين ؟. لاشك أن هناك طرفاً مؤيداً لهم كل التأييد ، وهم أهل العراق ، وهذا ماحاول أبو العباس السفاح أن يقوله في أول خطبة له بالكوفة ، لكن العباسيين لم يحالفوا أهل العراق بنزعتهم العربية ، ولا ندري ماهو السبب الذي جعلهم يبتعدون عن النزعة العربية في العراق ؟ أهو لأن الكوفيين غير مخلصين لايؤمن جانبهم أم لأن قوتهم ضعيفة لايمكن أن يعتمد عليها ، أم هو شيء آخر ؟ الذي يظهر من خلال

تاريخ الخلافة العباسية هو أن الخليفة العباسي يحالف العراقيين عامة لا العرب من العراقيين ، يحالف أهل السواد وأهل العراق النبطيين والعرب . قد أسس أبو جعفر عاصمته بغداد ، فأحضر إليها سكاناً من العرب وغير العرب ، ولو أن العنصر العربي ظاهر فيها كل الظهور . عمد الخلفاء العباسيون إلى محالفة العراقيين بهذا المزيج من الشعب بكامله ، لكنهم لم يحالفوا هذا الشعب المزيج بإحداث جيش منه يعتمدون عليه . وهذا أيضا أمر غريب لا أستطيع تفسيره كل التفسير ، أهو أيضا لأن العراقيين لم يكن بالإمكان أن يكون بينهم جيش قوي يحمي الخلافة بقوته الحربية ؟ أم لأن المزيج من العراقيين لم يكن قد اختمر ولم يكن بالإمكان أن يشكل منه عصبية معينة ؟ لانعلم ذلك كما ينبغي ، ونترك أمره للدراسات المقبلة[1] الذي كان يفعله بنو العباس في ساعات الشدة أنهم كانوا يلتجئون إلى شعب

---

(١) لابأس من أن أذكر بعض النقاط التي تكمل الموضوع في هذه النقطة (المنقح) :

١ ـ إن أهل العراق وخاصة أبناء المدن في ذلك العصر كانوا خليطاً غير متجانس من الشعوب لايمكن أن يشكلوا عصبية .

٢ ـ كان همّ أهل العراق الأمور الاقتصادية وخاصة الصناعة والتجارة ؛ لأن وفرة الأموال الواردة إلى العراق وخاصة إلى المدن توجد قوة استهلاكية وشرائية كبيرة . لذا كان أغلب الشعب منهمكاً في أموره المعاشية ، وقد ضعف فيهم روح الجهاد .

٣ ـ العراق مركز ثقافي علمي تتقاذفه التيارات الفكرية والفلسفية . إن المجالس العلمية والثقافية تمتص أكبر عدد ممكن من الطبقة الراقية ، وتشغلها عن الأحداث السياسية بالدراسات الفكرية .

٤ ـ رفاهية العيش في العراق تجعل الناس يحبون الحياة ويكرهون الموت : لهذا تركوا الأمور العسكرية إلى تلك العصبيات الغريبة المغامرة التي كانت في الأصل فقيرة بل مملوكة . واستطاعت هذه الأقلية أن تستبد بالحكم بسبب قوتها وضعف الشعب .

٥ ـ تكون فئة طفيلية من الشعب تعيش على السرقة والاغتيال وقطع الطرقات . وهي فئة العيارين والشطار . لقد كانت هذه الفئة كبيرة جداً ، وقد روّعت الآمنين ، وفرضت الأتاوة على الناس . ومع ذلك أتى وقت أراد الخليفة أن يستعين بهذه الفئة ضد أعدائه الأتراك ، لكنه لم يستفد منها إلا كقوة ضد النظام . وليست قوة يمكن أن تسند الحاكم .

العراق ، ويتحالفون معه ، مثيرين فيه عنصر الدين أكثر مما يثيرون فيه عنصر القومية ، يكلمونه بالسنة والجماعة أكثر من العصبية العربية ، فكأن الخلفاء العباسيين أرادوا أن يتحالفوا مع السنّيّة ، وأن يجعلوا العراق مركزاً لها ، دون عصبية معينة ، اللهم إلا جمهوراً يتكلم اللغة العربية ويتحلى بالثقافة العربية ، ذلك الجمهور الذي كانوا متمسكين به كل التمسك .

خلاصة الموقف في الولايات :

في هذه الظروف التي كانت في القرن الثالث الهجري : نزعات استقلالية تأخذ معينها من أن الشعب مظلوم ، ومن أن الحياة الاقتصادية سيئة ، وهي تتذرع من جهة بإهمال كبير من قبل الخلافة نفسها بشؤون الولايات ومن قبل الولاة والنواب وغيرهم من الموظفين ، ومن جهة أخرى تدرك ضعف الخلافة العباسية وظروفها السيئة بسبب تسلط الأتراك وثورة الزنج ، ثم إنها تعرف أن لا وجود لعصبية قومية معينة تتمثل في جيش معين يحمي الخليفة ويدافع عن السلطة المركزية .

إذا ظهر رجل قوي في ولاية من الولايات الإيرانية ، فإنه لاشك يستفيد من هذه الظروف فيضع برنامجاً يلائمها ، ومن السهل أن يتجه إلى الشعب ، ويعلن له أنه سيرفع عنه الظلم ، وسيصلح الحالة الاقتصادية عنده ، وسيرفعه إلى مصاف العراق ، وسيجعله مستقلاً في أموره عن دار الخلافة ونظامها السيئ وفوضاها . لابدّ من أنه يضيف إلى كل ذلك أنه لا يبغي بذلك العمل الخلافة لنفسه ، وإنما نهض ليحارب جميع النزعات غير السنية من زندقة وخوارج وتشيع علوي وغير ذلك ، وأنه يدعو للخلافة العباسية . إذا ظهر رجل يعلن خطة كهذه ، فإنه بالإمكان أن يؤمن النجاح .

إن فرصة استمرار هذا النجاح ليست كبيرة ، لأن سلطة الخليفة التي كانت تضيع في تيارات الفوضى التركية ، وفي حرب الزنج ، عادت قوية بعد أن انتهت من هذه الغمرة ، وخرجت منها شبه سليمة ، ثم حاولت أن تكبح جماح هذه النزعة الاستقلالية ، واستطاعت أن تقضي عليها أحياناً . والسبب في نجاحها بالقضاء عليها هذه المرة ، أنها لم تستطع أن تحقق استقلالاً فعلياً تاما . فالظروف التي نشأت فيها هي التي أعطتها ذلك اللون من الاستقلال وجعلته يتحقق . ولنذكر أن الأمراء المستقلين عن المملكة كان لابدّ لهم من أن يعترفوا بالخلافة العباسية ، ومظاهر هذا الاعتراف ثلاثة :

أولها : الدعوة للخليفة على المنابر ، فهو لايزال إمام المسلمين ولا يزال يمثل السلطة الروحية .

ثانيها : وضع اسم الخليفة على النقود قبل اسم الأمير المستقل . هذا مظهر من مظاهر الخلافة ، وهو مظهر يجمع بين أقطار البلاد الإسلامية ، مادام اسم الخليفة مثبتاً على النقد الذي ينتقل من بلد إلى آخر ، فإن الوحدة[1] بذلك حاصلة .

والمظهر الثالث : من مظاهر الخلافة الدينية هو إرسال قسم من الخراج[2] إلى بيت مال الخلافة . فالخليفة يمثل المسلمين ، وحقّه ينبغي أن يصل إليه من الخراج ، ولم يخرج الأمراء المستقلون على هذه القاعدة إلا في فترات يسيرة .

---

(١) أعتقد أن هذه الوحدة اسمية ، ما دام الخليفة لايستطيع أن يفرضها بنفوذه المادي إلى جانب نفوذه المعنوي . لذا يلاحظ أن البحث هنا في المظاهر لافي الحقائق ـ المنقح .

(٢) إرسال الخراج لم يكن منتظما . وإن الخراج المرسل يساء استعماله ، ويذهب نهباً بين الأمير المستقل والمتسلط في بغداد والوزراء والكتاب ... أتى وقت كان فيه الكاتب أغنى من الخليفة وهذا ما جعل بعض الأمراء يحجمون عن إرسال أي شيء إلى المركز فيما بعد ـ المنقح

يظهر لنا من كل ذلك أن وسائل الوحدة وإعادة الدولة إلى سابق عهدها كانت لاتزال ممكنة ، ولكن لايمكن أن يتم ذلك إلا بأن تعود الخلافة إلى سلطانها الزمني وإلى قوتها العسكرية ، وتستند[1] إلى عصبية متينة ، عندئذ يمكن أن تظل الوحدة قائمة . وإذا حصل تجاوز على ذلك من الأمراء المستقلين ، فإنه بمقدور الخليفة أن يردع المنشقين بما يملك من قوة . فإذا لم يستطع الخليفة أن يضمن هذه القوة ، فإن الأمر يخرج من يده ، والنزعة الاستقلالية تنمو وتستفحل .

إن حركة الاستقلال ذات ثلاث صفات متميزة :

أولا ـ عاصر حركة الاستقلال ضعف الخلافة العباسية ، وهي لاتستطيع النجاح إذا زال ذلك الضعف ، فهي إذاً تَبَعٌ لهذا الضعف .

ثانياً ـ يدخل في تلك الحركة مطامع أصحابها : فكل حركة منها قضت على التي قبلها ، وامتدت إلى أرضها ، فاستولت عليها ، فهي إذاً حركة مطامع شخصية لاحركة استقلال مناطق ، وهي حركة تستفيد من ضعف الخلافة .

ثالثاً ـ قوّت هذه الحركة في الشعب فكرة الاستقلال ، وبعثت فيه الروح الاستقلالية ، فأصبح متحفزاً متوثّباً للاستقلال مرة أخرى ، ينتظر الفرصة . لذلك فإنّ الأمراء المستقلين لم يضيعوا وقتهم ، بل عملوا على ترقية حالة الشعب ، ورفعوا عنه في بعض الحين ظلامته ، وعدّلوا نظام الإقطاع عنده . وأكثر من كل ذلك أنهم أحدثوا فيه ميلاً ثقافياً إلى الاستقلال ، فبعثوا أمجاده القديمة ، وأحيوا لغته المحلية ، بل إن دولة في فارس أباحت ترجمة القرآن إلى الفارسية ، وأحيت ذكرى الشعراء القدماء ، وشجعت

(١) من هذه الكلمة إلى آخر الفقرة أضفتها من عندي ليتم المقصود ـ المنقح .

الشعراء على قول الشعر بالفارسية ، فأحيت في نفس الشعب ميوله نحو النزعات القومية الثقافية . حدث هذا بخاصة في بلاد إيران . لقد استخدم هذه النزعة البويهيون بعد عصرنا الذي ندرسه بزمن ما ، فاستقلت بلاد فارس عن الدولة العباسية نهائيا .

ولنشرع الآن في البحث عن الحوادث التي تتالت ، فتكوّن بها حكم الإمارات المستقلة ، وتوطدت أركانه ، ثم اختفت معالمها بعد ذلك .

الدولة الطاهرية (٢٠٥ ـ ٢٦١هـ) ـ٢٨٢هـ

أول[1] إمارة من هذا النوع استقلت بعض الاستقلال عن الحكم العباسي هي الدولة الطاهرية في خراسان ، وهي التي شرعت الطريق لغيرها من الدول ، وأتت دولة بعدهافي المنطقة نفسها هي دولة الصفّارين فنقضتها ، ثم نقضت دولة السامانيين دولة الصفارين . فهذه ثلاث دول تتوالى على الحكم في بعض بقاع إيران أو فيها كلها .

أما نشوء الدولة الطاهرية فإنه يرجع إلى عهد المأمون : ذلك أن **طاهر بن الحسين** وابنه طلحة ساعدا المأمون مساعدة قوية في حربه ضد أخيه الأمين ، فاستقام له الأمر في ذلك . لكن المأمون لم يشأ أن يجعل المكافأة ماكانا يرميان إليه من نيل إمارة وولاية في خراسان . ذلك أن المأمون كان يخشى أن تؤدي هذه الإمارة إلى الاستقلال في شؤون خراسان ، فهما أبناء هذه المنطقة ، وإن أهلها يحبونهما . ولكن بالرغم من تخوّف الخليفة ، فإن طاهر بن الحسين ما فتئ يرنو إلى هذه الولاية ، ويتخذ لذلك كل الأساليب ، حتى أقنع الوزير أحمد بن أبي خالد بالتوسط له لدى

---

(١) أول إمارة استقلت هي إمارة بني الأغلب في إفريقية ؛ وكان ذلك في عهد الرشيد سنة ١٨٤هـ . المنقح .

الخليفة فضمنه عند المأمون ، وقبل المأمون أن يوليه خراسان ، فسار إليها . ماانقضت أعوام -حتى قطع طاهر في سنة ٢٠٧ الخطبة للمأمون . يذكر لنا التاريخ بعد ذلك أن طاهراً قد مات ، ولعله قُتل مسموماً[١] .

ولى المأمون ابنه طلحة مكانه (٢٠٧ ـ ٢١٣هـ) وبعد طلحة تولى **عبد الله بن طاهر** (٢١٣ ـ ٢٣٠هـ) الواحد بعد الآخر ؛ طاهر الثاني بن عبد الله (٢٣٠ ـ ٢٤٨هـ) ، محمد بن طاهر (٢٤٨ ـ ٢٥٩) . طاهر الثالث بن محمد (٢٥٩ ـ ٢٦١هـ) ـ٢٨٢هـ[٢] كان الخلفاء يسعون خلال هذه التولية إلى إزاحة الطاهريين عن خراسان ، لأن شأنهم فيها أصبح قويا ، ولأنهم أخذوا يستقلون فيها عن الخلافة ، لكن الخلفاء لم يكونوا يتمكنون من ذلك ،فمؤامراتهم كانت تخفق ، وكانوا يظهرون بمظهر الموافق البعيد عن المؤامرة .

بقي الطاهريون في خراسان وما حولها ، حتى أتى يعقوب الصفار فأزاحهم عنها سنة ٢٦١هـ . الدولة الطاهرية دولة مستقلة عن الدولة العباسية بالمعنى الذي ذكرناه ، بل إن استقلالهم كان أقل من استقلال غيرهم من الدول ، لأنهم هم الذين شرعوا الطريق ، والذى يشرع الطريق يلقى فيه الصعوبات . كانوا يدفعون الخراج سنوياً إلى العباسيين ، دفعوا سنة مائتين وإحدى وعشرين للهجرة ثمانية وثلاثين مليون درهم من وارد يقدر بثمانية وأربعين مليوناً . تقربوا من العامّة ، وحاولوا إنصافها ، ولو أنهم كانوا أرستقراطيين بالفعل ، ميالين إلى الترفع عنهم . شجعوا الزراعة والاقتصاد ،

---

(١) تذكر كتب التاريخ روايات عديدة بصدد موته : أكثرها يدل أن الوزير أحمد بن أبي خالد الذي ضمن طاهراً أمام المأمون ، أرسل إليه من دس السم له ـ المنقح .

(٢) وجد نقد ضرب في مرو سنة ٢٨٢هـ يحمل اسم طاهر بن محمد .

وأخذوا بمذهب السنة وناصروه وقاتلوا شيعة آل علي في طبرستان ، وكانوا في الجملة موالين لبني العباس ، مع التمتع بالاستقلال عنهم وتكوين إمارة لهم خاصة .

☆ ☆ ☆

الصفّارون (٢٥٤ - ٢٩٠ هـ)[١]

كانت سجستان تابعة للدولة الطاهرية ، يحكمها عامل من قبلهم ، غير أن الخوارج كانوا يعيثون فيها فساداً ، ويقتلون وينهبون دون الاستناد إلى مبدأ أو فكرة دينية ، فقد أصبحوا قطاع طريق ونهابين . جهّز عامل سجستان بقيادة درهم بن نصر فرقة لمقابلتهم ، وكان في هذه الفرقة شاب اسمه **يعقوب بن الليث** ، وكان صفّاراً قبل ذلك ، يعمل في تصفير الأواني النحاسية . سارت الفرقة إلى الخوارج ، فضربتهم ضرباً شديداً ، وعادت إلى عاصمة سجستان . علا شأن هذه الفرقة حتى أنها اضطرت العامل إلى أن يترك سجستان لها ولرئيسها **درهم** . ثم إن يعقوب سارت شهرته قائداً مجيداً قويا ، وكثرت مآثره ، فتخلى له درهم عن سجستان . سار إلى الخوارج ثانية ، فسوّى الأمور في سجستان بالقوة ، وطرد الخوارج ، وتتبعهم تتبعاً شديداً ، وأقبل على الجند يعطيهم المال ، ويُعنى بهم غاية العناية ؛ وأقبل على الشعب أيضاً يسهل له أمور معيشته . كان يعقوب طموحاً تقدم في الأقطار المجاورة له وغزاها ، وغزا الهند ، واستولى على بعض المناطق في شماليها ، ثم تقدم نحو خراسان فأزاح الدولة الطاهرية سنة مئتين وتسع وخمسين . استاء الخليفة من هذا ، فهو لم يكن يريد شخصاً قوياً يستولي

---

(١) هذه مدة الدولة الأولى من الصفارين (زمباور ص ٣٠٢) - المنقح .

على المشرق ويستقل عنـه ، لـذا أصـدر مرسومـاً بـاعتبـار يعقـوب مغتصبـاً للدولة الطاهرية ، فلم يأبه يعقوب لهذا المرسوم ، بل تقدم غربـاً سـائراً نحو بغـداد . خرج أخو الخليفـة وهـو **الموفـق** إلى محـاربتـه ، وقـد ترك حرب الزنج ـ كما رأينا ـ والتقى به **بدير عاقول** ، فـدعـاه وأراد أن يتفـاهم معـه ليستطيع أن يتفرغ لحرب الزنـج ، ولكن يعقـوب لم يرد التفـاهم ، ومـات بعد قليل ، فتولى أخوه عمرو مكانـه . قَبل عمرو بـالصلح مع الموفق ، فعهـد إليه هذا بالمشرق جميعه ، ثم إنه بعد حوادث وتفاصيل لامحل لذكرهـا تغلب السـامـانيـون الـذين خرجـوا من مـاوراء النهر ، وأسروا الأمير **طـاهر بن محمد بن عمرو** سنة ٢٩٨هـ ، وانتهت دولة الصفّارين الأولى .

والصفّارون اعتبروا الجند أساسا لـدولتهم ، وتوسعوا بقوتـه وسلطـانـه ، وانتبهـوا إلى إصـلاح أحـوال الشعب أيضـاً ، وإلى تحسين الاقتصـاد ، وكانـوا حيناً يقطعون الخطبـة للخليفـة ، لكنهم كانوا إجمـالاً يرغبون في أن يحصلوا من الخليفة على عهد بإمارتهم ، فكانوا ينقشون اسمه على السكة ويخطبون له في أغلب الأحيان ، إلا أنهم لم يرسلوا إليه الضريبة بصورة منتظمة .



السامانيون في بخارا[1] (٢٥٠ ـ ٣٩٥هـ)

كان **سامان خوداه** جد السامانيين قـد اعتنق الإسلام في عهـد هشـام ابن عبد الملك . عيّن المأمون أحفاد سـامـان هـذا على منـاطق مـاوراء النهر (سمرقند ـ فرغانة ـ الشاش) وعلى (هراة) لكنهم كانوا تابعين للطـاهريين يستمدون أوامرهم منهم ، ثم قوي أمرهم بعد المأمون فامتدوا إلى بخـارا وجعلوا

(١) بخارا كتبت على النقود العربية الإسلامية بالألف (المنقح)

مركز حكمهم فيها ، واستقلوا عن الطاهريين قدم الخليفة المستعين لأحدهم (واسمه نصر[1]) عهداً بولاية ماوراء النهر كله سنة ٢٥٠هـ ، إلا أن نصراً اختلف مع أخيه إسماعيل ، فتغلب إسماعيل على نصر ، لكنه استبقاه حتى مات فتولى مكانه . أظهر إسماعيل مقدرة كبيرة بالحكم ومعرفة ، استولى على خراسان وأسس الحكم ، ثم آل الأمر من بعده إلى حفيده نوح الأول سنة ٣٣١هـ ، ولم يكن قديراً كل القدرة ،إلا أن حركة التأليف والعلم في عصره كانت قوية . ولكي يبقى في الحكم ويقوى ، استمد العون من الترك القرخانيين ، كما كان استعان بهم خليفة بغداد المعتصم قبل ذلك ؛ فحصل له ما حصل بالعراق ، فقد استبدّ الأتراك بالأمر دون الملوك السامانيين ، واضطرب أمرهم معهم ، حتى انتهى بهذه الدولة الحال إلى أن هجم على عبد الملك الثاني محمود بن سُبُكْتُكين ، فقضى على دولته .

كان السامانيون يضعون أسماء الخلفاء على النقود ، ويعطونهم حيناً قسماً من الجزية والخراج ، ويخطبون لهم ، ويقدمون إليهم العهد . كانت سياستهم من الناحية الدينية كسياسة الطاهريين والصفّارين ، سياسة سنيّة ، حاربوا القرامطة ، وساعدوا الخليفة على أمرهم ، لكنهم لم يستطيعوا أن يستمرّوا على ذلك ، والذي فعلوه بصورة خاصة ـ وهذا أكثر مما فعله غيرهم ـ هو أنهم أثاروا الفكرة الثقافية الفارسية وشجعوها ، وقووا نزعتها ، بل إن علماءهم أفتوا بجواز الصلاة بالفارسية . السامانيون هم الذين أسسوا الاستقلال الفارسي الحقيقي الذي امتد شأنه بعد ذلك كما سنرى ، وهم الذين بعثوا الفكرة الاستقلالية الحقيقية من الناحية الثقافية في نفوس الفرس .

☆ ☆ ☆

(١) لوالده أحمد بن أسد نفوذ فيما وراء النهر منذ سنة ٢٠٤هـ (زمباور ص ٣٠٦) ـ المنقح .

الطولونيون بمصر والشام (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ)

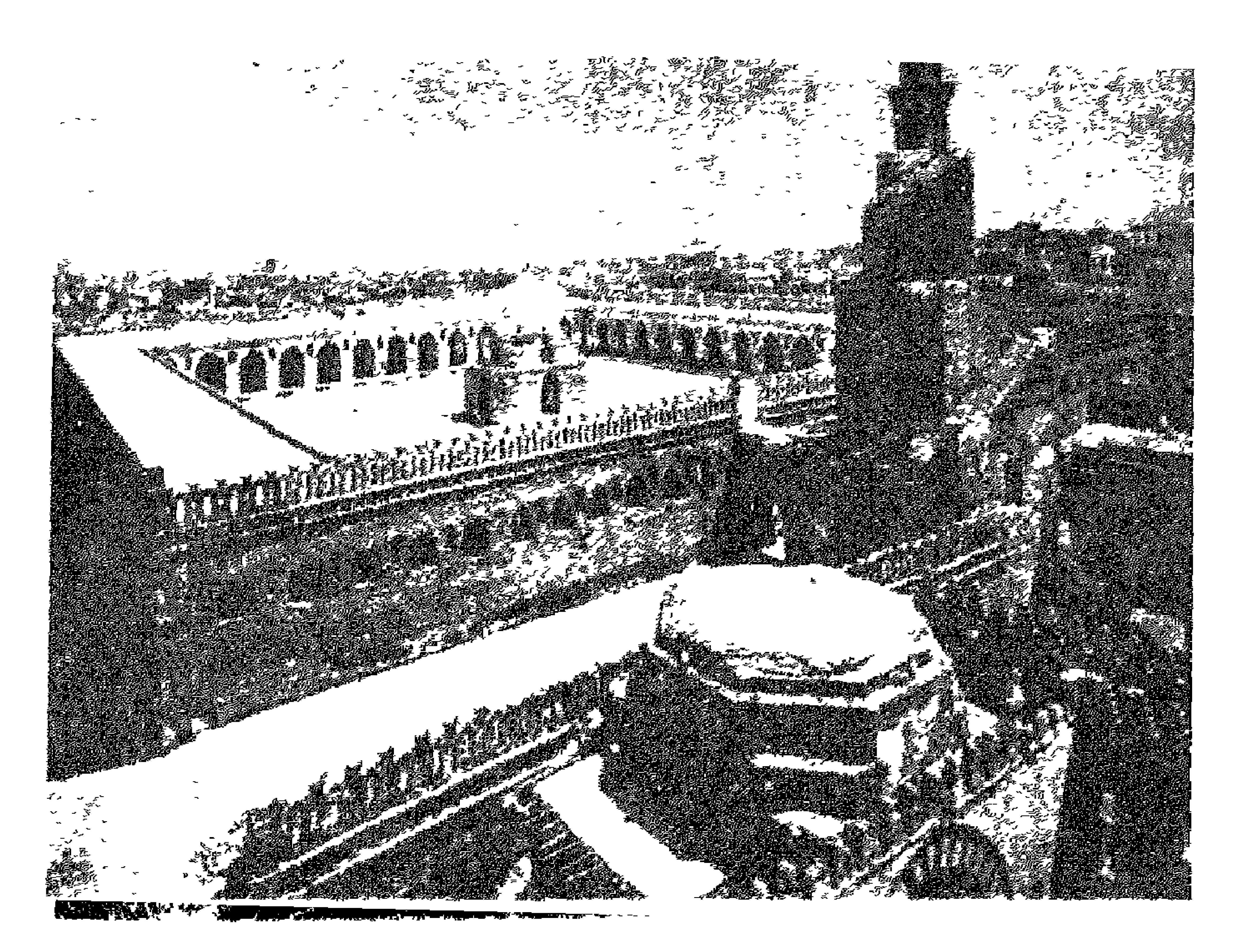
لم ينبغ من الأتراك في الدولة العباسية في العصر الذي نـذكره ، شخص استطـاع أن يفعـل عمـلاً يخلـد بـه اسمـه غير واحـد منهم اسمــه **أحمــد بن طولون** ، وأصله تركي من بخارا ، عمل والده قائـداً لحرس الخليفـة في عهـد المعتصم ، ونشـأ أحمـد نشـأة دينيـة وتعلم العلم الـديني ، وخـالـط المحـدثين والمتصوفة ، وذهب إلى طرسوس فأقام فيها مرابطاً يجاهد مع المجاهـدين ، ثم انتدبه بايكبـاك[1] (وهو زوج أمـه) نـائبـاً عنـه في مصر ، فسـار إليهـا ، وتكشفت في ذلك الوقت مقدرته ووسائل نبوغه ، فوجـد الاقتصـاد في مصر مضطربـاً كل الاضطراب ، والـدخـل قـد تنـاقص ، ووجـد العـامـل هنـاك مستبداً بـالنـاس ، ووجـد الشكوى عـامّـة . فتقرب من النـاس وتودّد إليهم بالنفقة الكثيرة ، وأصلح الحـالـة الاقتصـاديـة ، وألغى بعض الضرائب وعمل عملاً جدّياً بنّـاء كبيرا . مصر في الأصل غنيـة أفسـدهـا سوء الاستعمال . لما أصلح حالها ابن طولون ظهرت ثروتها بـأعمـالـه ، وازداد الـدخل ، فـأصبح أربعـة ملايين دينـار . عني ابن طولون بـالفـلاحين عنـايـة خـاصـة كما عُني بالفقراء . أنشأ مستشفى وجامعاً وهو الجامع المشهور الذي لاتزال آثاره باقية إلى اليوم ، واستطـاع أن يعزل عـامـل الخراج **أحمـد بن المـدبّر** الـذي كان يسيء العمل في مصر ، وتمكن من الحكم بهذا التودد للناس وبـذلـك الإصلاح وبالهدايا الهائلة التي كان يرسلها إلى أصحاب الأمر في بغداد : فما من رجل في بغداد له مكانة إلا كان يتلقى من أحمد بن طولون الهـدايـا ، وإذا قصـد

---

(١) ورد اسمـه (بـابكيـال) في ابن الأثير (٧ / ٦٠) عـدداً من المرات ؛ لكن الطبري يـورده على الشكل الذي أثبتناه ـ المنقح .

أحدهم أن ينحّيه عن ولايته جاءته الأموال فأسكتته ، وامتد الزمن فاستتب له الأمر في مصر .

ولما تمكّن الموفق من الحكم في بغداد ، أراد أن يعيد نفوذ الدولة العباسية إلى مصر ، فعيّن **أماجور** والي سورية والياً على مصر ، لكن أحمد بن طولون رفض أن يسلمه الولاية ، بل سار بعد وفاة أماجور إلى سورية فاستولى عليها ، وكان الموفق مشغولاً بحرب الزنج . عين ابن طولون في سورية خادمه لؤلؤا نائباً له عليها ، لكن لؤلؤا تحالف مع الموفق ، لكي يمكّن الأمر لنفسه في سورية ، وأعلن العصيان على أحمد بن طولون ، ولم يرد الموفق ولا أحمد الدخول في حرب ، فلم يرسل الموفق إلى لؤلؤ جيشاً يساعده للهجوم على مصر ، بل كل مافعله أنه أعلن شتم أحمد بن



منظر لجامع ابن طولون في القاهرة (عن كرزويل)

طولون على المنابر ، وقابله ابن طولون بأن أسقط اسمه كولي للعهد من الخطبة ، بل دعا الخليفة للمجيء إلى سورية ومصر هرباً من أخيه الموفق ؛ وكان المعتمد تقريباً تحت وصاية أخيه الذي كان مستبداً بالأمر دونه ، وكان يدير الدولة بحق وجدارة .

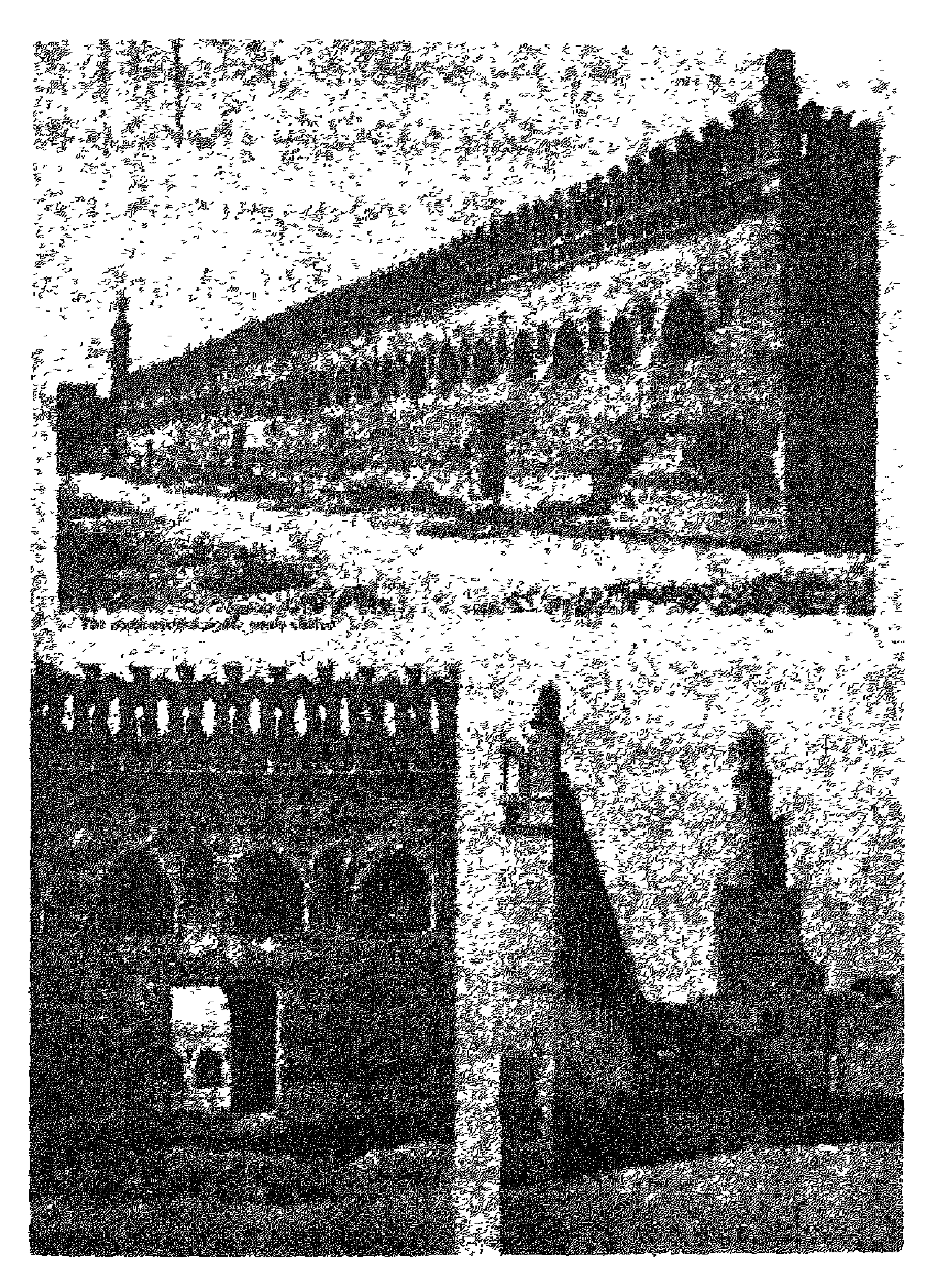
استطاع الموفق أن يعيد أخاه إلى بغداد ، ولما توفي أحمد بن طولون سار **عامل الموصل** إلى سورية ، فاتفق مع عاملها ، وسار الاثنان إلى مصر ليزيحا الدولة الطولونية ، وكان الذي استولى على الأمر في مصر هو **خمارويه بن أحمد بن طولون** ، فسار إلى قتال هذين الواليين فهزماه . عاد إلى مصر ليدبر حملة أخرى ؛ وفي أثناء ذلك اختلف العاملان على تقاسم الأسلاب في سورية ، فعاد خمارويه وتمكن من ضرب عامل سورية . أرسل الخليفة إلى عامل سورية من أسعفه وهو **أحمد بن الموفق** الذي أصبح فيما بعد خليفة بعد المعتمد ، هزم أحمد بن الموفق خمارويه ، لكنه لقي صعوبات في سورية ، وخرج عليه بعض جيوشها ، فوجد أن أحسن حلّ يعمله هو الاتفاق مع خمارويه وتسليمه سورية ، فأعطاه الولاية على مصر وسورية مقابل مال رتّب عليه .

المصاهرة بين الخليفة وخمارويه :

لما تولى أحمد بن الموفق الخلافة بعد المعتمد باسم **المعتضد** ، خطب ابنة خمارويه **قطر الندى** ، وتزوج منها بعد ذلك بسنتين . أنفق والدها الأموال الهائلة على زفاف ابنته ، حتى قيل إنه افتقر بعد تزويج ابنته ، وإنّ المعتضد الخليفة ما قصد بزواجه منها إلا ليفقره .

بعد أن توفي خمارويه وتولى ابنه جيش مكانه ، اضطربت أحوال

الطـولـونيين وخرج القرامطـة في سـوريـة ، فلم يستطـع أن يتغلب عليهم ، وأتعبوه ، واضطروا عـامله في سوريـة إلى أن يستنجـد بـالخليفـة ، فـأرسل المكتفي له جيشاً لمساعـدتـه على القرامطـة ، وقضى الجيش عليهم ، لكنـه لم



لقطات من جوانب جامع ابن طولون (عن كرزويل)

يقف عند سورية ، بل رأى أن يمدّ سلطته إلى مصر ، فيعيد الاستيلاء عليها باسم الخليفة . في الواقع دخل جيش الخليفة مصر واستولى عليها ، ودكّ مدينة **القطائع** التي بناها أحمد بن طولون تشبّهاً بالخليفة الذي بنى سامراء . وهكذا انقضت الحركة الطولونية من مصر وعاد الخليفة وسيطرته عليها .

نتائج حركة ابن طولون الاستقلالية في مصر :

هذه الدولة الطولونية لا تنطوي على فكرة استقلالية شعبية ، لأن المصريين ما كانت لهم شخصية وطنية تخالف شخصية العراق ، إنما كانت نتيجة أطماع شخص هو أحمد بن طولون ، هيأت له هذه الأطماع مقدرته من جهة ، وسوء التدبير وضعف الحال في العراق من جهة أخرى . ولكن مع ذلك فإن مصر استفادت من هذه الحركة ، وظهر لها أنها قادرة على أن تستقل يوماً ما عن الخلافة العباسية ، وظهر لها أن الأموال التي كانت ترسل إلى العراق يمكن أن تنفق في مصر ، فتفيد أبناءها ، والواقع أن أحمد بن طولون استطاع أن يرفع من مكانة مصر الاقتصادية إلى درجة ما كانت تحلم بها ، فهو قد بنى فيها مدينة **القطائع** ، وبنى قصره في مكان قريب من المكان الذي بنى فيه صلاح الدين قلعته فيما بعد ، وبنى أحمد **الجامع** بأبهة عظيمة . إن آثار هذا الجامع اليوم قائمة بهندسته العراقية ومئذنته الملويّة على الطريقة الكسروية القديمة ، يبدو سلّمه الحلزوني من الخارج ، وبنى ابن طولون **المستشفى** . خلاصة القول إن الدولة الطولونية أظهرت أن مصر قادرة على أن تستقل عن الخلافة ، وسنرى أنها استقلت فعلاً في عهد الفاطميين بعد محاولة مشابهة لحركة الطولونيين وهي حركة الإخشيديين .

☆ ☆ ☆

الدولة الإخشيدية في مصر والشام (٣٢٣-٣٥٨هـ)

أصل الإخشيديين أتراك من فرغانة ، ويقال إن جدهم كان من ملوكها . التحق أبو الإخشيد وهو طُغْج بخدمة الخليفة العباسي ، فعينه على بلاد الشام سنة ٢٨٣ هـ . ظهر محمد بن طغج في بلاد الشام ، وقد التحق بخدمة عامل الشام سنة ٢٩٧ هـ ، ثم دخل في خدمة تكين بن عبد الله الخَزري الذي تولى محاربة الفاطميين في مفتتح القرن ٤ هـ ، وقد بذل محمد بن طغج جهوداً عظيمة في مقاومتهم ، حتى نال ثقة الوالي والخليفة ، فأصبح والياً على مصر . وفي عهد ولايته تمكن من صدّ الفاطميين بنجاح ، مما دعا الخليفة أن يمنحه لقب الإخشيد (وهو لقب معروف في بلاده الأصلية) . حاول الفاطميون أن يستميلوا الإخشيد ، لكنهم لم ينجحوا . أدخل الإخشيد إصلاحات هامة على مصر ، وقاوم الحمدانيين الذين كانوا يطمعون بحكم بلاد الشام .

مات الإخشيد سنة ٣٣٤ هـ ، وترك ولدين تحت وصاية مولاه كافور الذي حكم مصر والشام كوصي على الولدين مدة عشرين عاماً . ثم أصبح والياً لمدة سنتين ثم توفي عام ٣٥٧ هـ . واضطربت الأحوال بمصر .

كانت الدعوة الفاطمية قد تغلغلت بمصر ؛ وفي سنة ٣٥٨ هـ ، دخل الجيش الفاطمي بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ .

☆ ☆ ☆

الدولة الزيادية في اليمن (٢٠٤ - ٤١٢ [1] هـ)

كانت بعض بلاد اليمن مستقلة بعض الاستقلال عن الخلافة ، ذلك أن

---

(١) اعتماداً على زمباور . هذه الخلاصة وضعها المنقح لإتمام البحث .

العباسيين لم يستطيعوا إخضاع رؤساء القبائل في اليمن إخضاعاً تاماً ، فكان عمالهم يختصمون دوماً مع هؤلاء الرؤساء . أرسل المأمون سنة ٢٠٤ هـ أحد الأشخاص المنتسبين إلى زياد بن أبيه واسمه محمد بن إبراهيم قائداً لتلك المنطقة كي يقضي على حركة علوية ، ويسوّي الأمور فيها ، فاستولى على جنوبي البلاد العربية وأقام في **زبيد** حكماً لنفسه مستقلاً بعض الاستقلال عن بغداد . رضي الخليفة المأمون بذلك ولعله رأى ذلك أفضل من حكم رؤساء القبائل . امتدّ حكم هذه الدولة حتى سنة ٤١٢ هـ .

☆ ☆ ☆

الزيدية في طبرستان وجنوبي بلاد اليمن

الزيدية في طبرستان :

يتبع حركة استقلال بعض الأمراء عن الدولة العباسية حركة للزيديين في الاستقلال في طبرستان وجنوبي بلاد اليمن . هذه الحركة ليست كذلك الاستقلال الذي بحثناه سابقاً ، لأنها تختلف عنه بالدعوة للفكرة العلوية الزيدية ، وهي تتفق معه في الاستفادة من وضع الخلافة المضطرب ، وفي الاستفادة خاصة من أوضاع الإقطاع والضغط على الشعب .

كان في طبرستان في النصف الأول من القرن الثالث ضغط على الفلاحين وكان الإقطاع متزايداً في هذه المنطقة ، حتى إن الخليفة المستعين أقطع **محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر** حاكم بغداد أراضي في طبرستان، فلم تكفِهِ هذه الأراضي ، بل وضع يده على الأراضي المجاورة لها . فضجّ الفلاحون من ذلك ووجد الزيديون : أبناء زيد بن علي الذين ما كفّوا عن الدعوة لأنفسهم في مناطق العالم الإسلامي المختلفة ، وجدوا هناك أرضاً خصبة لدعوتهم ، استجاب السكان لتلك الدعوة التي كانت تَعِدُ

برفع الظلم والإجحاف ، فثار **الحسن بن زيد** سنة خمسين ومئتين ، وجمع حوله عدداً كبيراً من الفلاحين ، واستولى على طبرستان وجرجان ، وأقام إمارة مستقلة باسمه ، وحكم هو وأولاده ، حتى أتى السامانيون سنة سبع وثمانين ومئتين ، فأزاحوا الزيدية عن هذه المنطقة .

مضى بعض الزمن ... وفي عام واحد وثلاثمائة قامت حركة أخرى زيدية في طبرستان قام بها **حسن بن علي الأطروش** ، ولقب نفسه **ناصر الحق** [1] ، وتبع طريق الحسن بن زيد ، فدعا إلى القضاء على الإقطاع ، والتف حوله الفلاحون فأقام حكماً له في طبرستان استمر حتى عام أربعة عشر وثلاثمائة حين أتت **الإمارة الزيارية** [2] فأطاحت بحكمه .

☆ ☆ ☆

الدولة الزيدية في اليمن
(٢٤٦ ـ حوالي سنة ٧٠٠ هـ)

أما في جنوبي الجزيرة العربية ، فقد ظهر أحد أبناء زيد بن علي واسمه **يحيى بن الحسين** وهو من أحفاد القاسم الرسي عالم من علماء المذهب الزيدي ظهر في خمسين رجلاً في منطقة بين مكة وصنعاء في مكان اسمه **صعدة** ، فأقام حكماً لنفسه واتخذ صعدة عاصمة له . وأصلح الأمر بين المسلمين وبين نصارى نجران ، فاستتب له الأمر ، لكن سلطته انحصرت في هذه المنطقة ، ولم تمتدّ إلى سواها ، إلا بعد زمن حين استطاع أولاده أن يستولوا على اليمن ، فيشكلوا فيها الدولة الزيدية الأولى (٢٤٦ ـ ٥٦٩ هـ) ثم الدولة الزيدية الثانية (٥٩٣ ـ حوالي ٧٠٠ هـ) .

---

(١) ابن الأثير يلقبه (الناصر) فقط ـ المنقح .

(٢) الدولة الزيارية حكمت جرجان وطبرستان بين ٣١٥ ـ ٤٧١ هـ المنقح .

حركة القرامطة

المقدمة :

ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث حركة فرقة دينية باطنية تستند في مبدئها الأساسي إلى أن لكل ظاهر باطناً ، فآيات القرآن ظاهرها يعطي معنى ، وباطنها يعطي معنى آخر ، ويمكن تفسير القرآن الكريم بباطنه ، فيختلف الأمر اختلافاً كلياً . أما السؤال الذي يتبادر إلى الذهن بالنسبة لهذه الحركة الباطنية فهو « من الذي يستطيع أن يؤوّل القرآن ذلك التأويل الباطني ، فيطلع على معانيه الحقيقية الباطنية » ؟ إن الإمام العلوي من أبناء علي بن أبي طالب ، وأبناءه ورثة النبوة والمطلعين على الأسرار والخفايا هم الذين يستطيعون أن يؤوّلوا القرآن وحدهم . مثل هذه الحركة ظهرت قبل هذا العصر في العهد الأموي ، ظهرت مع الكيسانية والسبئيّة . ليس موضوعنا هنا أن نهتم بالكيسانية والسبئيّة كعقيدة ، وأن نشرح مبادئها ، لكنّ علينا أن نقول إن الناحية السياسية ظاهرة في هذين المذهبين . وقد استفاد منها **المختار بن أبي عبيد الثقفي** ، فقام بحركته المشهورة ، ثم قضي على حركته ، فاختفت ونامت، لكنها كانت متجسّمة في النفوس . قامت الدولة العباسية في أول أمرها على الاستعانة بالكيسانية والسبئيّة بمظهر جديد هو **الهاشمية** ، لكن العباسيين حينما بلغوا الحكم ، وأصبحوا خلفاء تنحّوا جانباً عن هذه المبادئ المخالفة للفكرة السنية . أما فكرة الباطنية فقد استمرت تحارب العباسيين أنفسهم ، فقد حدث أن جعفراً الصادق ، عهد بالأمر من بعده إلى ابنه **إسماعيل** . لكن إسماعيل هذا توفي

تاركاً ولداً اسمه **محمد** . نقل جعفر الصادق الإمامة إلى ابن له آخر . لكن أصحاب إسماعيل استمروا على القول بإمامة محمد ، فكان **الإمام السابع** عندهم . ثم **توفي محمد مختفياً** ونسب إليه أنه **الإمام المستور والمهدي المنتظر** الذي سيأتي يوماً من الأيام ، وسيظهر العدل في بقاع الأرض . هذه الحركة تسمى **بالإسماعيلية** نسبة إلى إسماعيل ، وتسمى **بالسبعية** لأنها وقفت عند الإمام السابع ، وتسمى **بالوقفية** لأنها توقفت عند إمام معين ، وقد أنتجت حركتين سياسيتين مختلفتين بعض الاختلاف ، أولها حركة **القرامطة** والثانية حركة **الفاطميين** .

يصعب على المؤرخ كثيراً أن يستجلي نشأة الحركتين ، وأن يظهر اختلافها ، وأن يميّز إحداهما عن الأخرى ، بل يصعب عليه أن يرى نشأة هاتين الحركتين وتطورهما الأول ، والسبب في ذلك واضح هو أن الدعوة للفرقتين **دعوة سرية** لا تباح ولا تعرف ، وهي على درجات فلا يمكن للمؤرخ أن يرى تطور الأمور بشكل واضح ، بل يراه خلال خفايا الظروف . يجب علينا ألا نهتم اهتماماً بالغاً بنشأة الحركة ، فلعلّ هذه النشأة ، اكتنفها في الأصل الغموض ، ولم تكن واضحة عند أصحابها أنفسهم ، فكونها دعوة سرية ، يجعل لها اتجاهات مختلفة . كل اتجاه لا يعرف سيرة الآخر ولا موضوعه ولا كيف يعمل . ومما لا ريب فيه أن الحركتين تقفان عند عهد **المهدي محمد** ، ولكنهما تختلفان بكيفية الدعوة بعض الشيء ، وبالرأي والعقيدة أيضاً ، والسبب في ذلك أن الباطنية ليست دعوة دينية محضة ، فالجانب السياسي فيها هو الأساس ، وليس في حركة الفاطميين أو القرامطة رجل مؤمن كل الإيمان بمذهبه ودينه ، متمسك به كل التمسك ، يتخذه مذهباً أساسياً وعقيدة دينية دون أن يكون له غاية

سياسية ، إنما كان على رأس الباطنية أشخاص ذوو طموح ، يريدون أن يصلوا إلى تحقيق رغباتهم في الوصول إلى الحكم . وسنرى في أبحاثنا القادمة الدليل على ما نقول .

هذه المقدمة الوجيزة ، تفيدنا في فهم حركة القرامطة على حقيقتها الأساسية وتبين لنا الطريق الذي يجب أن نختطه في البحث .

نشأة حركة القرامطة :

حركة القرامطة نشأت في العراق وبصفة خاصة في سواد العراق ، أي في قراه لا في مدنه ، انتشرت قريباً من الكوفة ، واتجهت الدعوة إلى الفلاحين . الفلاحون من النبط ، والنبط[1] هم من سكان البلاد القدماء الذين استقروا في المزارع والأراضي ، يعملون عليها ، وهم يعتنقون أدياناً مختلفة ، ولهم عقائد كثيرة . انتشرت الدعوة القرمطية أيضاً بين أصحاب الحرف ، ثم آل بهـا الأمر في الشـام إلى أن اتجهت إلى الأعراب ، وسرت بينهم ، وقامت على أكتافهم ثورات وحروب . الذي جمع هؤلاء الجماعات (الذين وجهت إليهم الدعوة) هو كونهم فقراء في حالة بؤس شديد ؛ ولذلك فالحركة اتسمت بهذا الطابع المادي ، إذاً هي حركة دعوة بين الفقراء والبؤساء ، وهي تعبير عن هذا الاتجاه . يعني ذلك أن الحركة ينبغي لها أن تتجه لرفع مستوى الفقراء . رأينا في أبحاثنا السابقة حركة الزنج ، وكيف كانت تلك الحركة تعبيراً عن واقع الزنوج في جنوبي العراق وفي مستنقعات البصرة خاصة ، ورأينا أن صاحب الزنج قد استفاد من وضع الزنوج السيئ ، فوسع حركته بوعود منّى بها الزنوج ، واستطاع أن يثير تلك

---

(١) يجب ألا نخلط بين كلمتي (النبط) في العراق و (الأنباط) القدماء الذين كانوا سادة سورية الجنوبية قبل الإسلام - المنقح .

الحركة بينهم . القرامطة كما ذكرنا انتشروا بين الفلاحين والنبط أصحاب الحرف ثم الأعراب ، بثوا دعوتهم في الطبقة الكادحة البائسة المسكينة ، هذه الطبقة التي حاولت في العصر الأموي أن تثور على الأمويين . وقد استفاد من استيائها المختار بن أبي عبيد الثقفي فاستطاع أن يؤلبهم حوله . هذه الطبقة زادت حالها سوءاً في العهد العباسي ، فقد رأينا أن الثورة في العهد العباسي توسعت ، وكان خطرها كبيراً على المموّلين والأثرياء والإقطاعيين ، لقد استفاد هؤلاء من جهود الفلاحين (وأكثرهم من النبط) في الأرض ، واستفادوا من أصحاب الحرف يشغلونهم ، ويأخذون ثمرات أتعابهم ، فيستفيدون منها . إنهم أيضاً يجنون أرباحاً طائلة من التجارة هي أكثر بكثير مما يستفيد منها صانع السلعة نفسه . هذه الطبقة الكادحة المسكينة ، كان اتجاهها في الدين مختلفاً ، فالنبط أديانهم السابقة متعددة متشعبة ، فهم على دين الأكاسرة حيناً ، وعلى دين الصابئة حيناً آخر . وقد تؤثر فيهم مذاهب أخرى ، لكنهم إجمالاً لم يتفهموا الإسلام كما ينبغي ، إنما فهموه على أنه ذونزعة علوية كسروية أكثر من أنه ذو نزعة ديمقراطية .

ولنتخيلْ الآن رجلاً قابعاً في السلَمْيَة ، وهو ذو فكرة علوية إسماعيلية على الصفة التي ذكرناها . ولنتخيله ينظر في شأن العراق ، وفي الفوضى التي ضربت أطنابها في بغداد وسامراء (فوضى الأتراك التي رأيناها) . أليس من الطبيعي أن يخطر بباله أن أحسن مركز لنشر دعوته هو بين تلك الطبقة الكادحة المسكينة الفقيرة التي تنظر إلى الدين نظرة علوية كسروية ؟ لا يهمنا في هذا من هو ذلك الشخص ؟ أكان من أولاد عبد الله بن ميمون القداح أم من غيرهم ؟ إنما الذي يهمنا أنه استطاع أن يتعرف إلى نواحٍ ثلاث في الأمر :

أولاً : فوضى في الحكم العباسي يسهل الثورة وييسّر سبلها .

ثانياً : حالة اقتصادية بائسة لطبقة من الشعب أمام حالة اقتصادية رخيّة راضية عند طبقة أخرى من الشعب .

ثالثاً : جهل عند هذه الطبقة الكادحة وميل إلى فكرة علوية كسروية ، غايتها التحرر من الفقر والبؤس .

يهمنا من هذا أن نعرف أن ذلك الداعي يرى أن تتجه دعوته في ذلك القسم من العراق ، وفي ذلك الوقت بالذات ، فينجح نجاحاً عاجلاً ، لأن أسباب النجاح متيسرة أمامه . نشأة الدعوة ـ كما قلنا ـ مبهمة غامضة مضطربة ، ولكن لا يضيرنا كثيراً في بحثنا عدم معرفة هذه النشأة ، إذا عرفنا كيف اتجهت وإلى ما أدّت ، والذي نعرفه أن السَّلَمْيَة في سورية كانت مركز هذه الدعوة .

يقال إن ابناً **لعبد الله بن ميمون القداح** [1] **(واسمه أحمد)** قام في السلمية ، اتجه اتجاهاً إسماعيلياً ، فصار يوجّه دعوته من السلمية بهذه الفكرة . نعرف أيضاً أنه وجّه إلى سواد العراق وجهات الكوفة رجلاً من

---

(١) لا بد لنا من التعرف على أصل هؤلاء الناس الذين نشروا الدعوة الإسماعيلية : ميمون القداح رجل فارسي كان يعمل بقدح العيون التي أصابها الظلام والغشاوة ، ولا نعرف درجة ثقافته ودينه . ولكنه علّم ابنه عبد الله الشريعة الإسلامية ، فحضر حلقات الشيوخ وتمرّس على الجدل والمناقشات الفلسفية الدينية ليستطيع أن ينشر الدعوة .

كان لعبد الله بن ميمون ثلاثة أولاد هم : محمد والحسين وأحمد الملقب أبو الشلعلع ، وهو الذي أرسل داعية إلى العراق اسمه حسين الأهوازي ، فاتصل بحمدان قرمط ، وهو الذي أرسل ابن حوشب إلى اليمن لنشر الحركة الإسماعيلية . خلّف الحسين سعيداً : وهو الذي ادعى أنه عبيد الله المهدي ، سليل الأسرة الفاطمية ، وقد اخترع نسباً مربوطاً بالإمام السابع محمد المستور ، فذكر أجداده : عبد الله الرضا ، أحمد الوفي ، الحسين التقي ، عبد الله ، عبيد الله المهدي الذي ولد سنة ٢٥٩ هـ . وهو الذي أسس الدولة الفاطمية في القيروان سنة ٢٩٧ هـ بمسعى الداعية أبي عبد الله الشيعي ـ المنقح .

أتبـاعـه اسمـه **حسين الأهـوازي** ، فسـار هـذا إلى سـواد الكـوفـة ، ووقع مريضاً ، فانتشله من مرضه رجل اسمه **حمـدان قرمـط** ، فعني بـه ، وتلقى منه دعوته ، فدخلت في نفسه ، وجعل حسين يتصل بـأهل السواد ، وينشر الـدعوة بينهم ، لكنّ والي الكوفـة استطـاع أن يعرف نشـاطـه ، وأن يلقي القبض عليـه ، فسجنـه . هرب من السجن ، ورجع إلى سوريـة ، وبقي في سواد العراق **حمدان قرمط** نائباً عنه وقائماً بدعوته .

أهداف الدعوة :

لا ندري على الضبـط : مـاذا حقق حسين الأهوازي في شـأن الـدعوة ، وما هو المقدار الذي قطعه في ذلك السبيل ؟ إنما الذي يقال لنا في التـاريخ أنّ حمدان قرمط سأله عن دعوته ، وما ينبغي عليه منها فقال : « أمرت أن أروي هذه القرية ، وأغني أهلها ، وأن أنقـذهم من الفقر ، وأضع بيـدهم ثروة أسيـادهم » . يظهر لنـا من هـذا الكلام أن الـدعـوة اتجهت اتجـاهـاً اجتماعيـاً اقتصـاديـاً ، لا اتجـاهـاً دينيـاً ، والأصـحّ أن نقـول : إن الاتجـاه الاجتماعي الاقتصادي يغلب على الاتجاه الديني .

تنظيم الدعوة :

وأيّاً كان الأمر ، فإنّ حسيناً الأهوازي ومن بعده حمـدان قرمـط ، نظما الـدعـوة ونشراهـا في طبقـة الشعب الكادح ، وكان أول التنظيم في **المرحلة الأولى** انتساب الأشخاص إلى الدعوة ، وقد كان يحصل ذلك دون صعوبـة ، فهي دعوة مقرّبة إلى نفوس أهل السواد . وكانت **المرحلة الثانية** هي جمع الأموال لتقوية تلك الدعوة ولتمويلها ، وقـد وضع حسين الأهوازي وحمـدان قرمـط أصول ذلـك التنظيم ، فـأخـذا من المنتمين إلى الحركـة ضرائب وأموالاً بأشكال مختلفة ؛ وانتهى حمدان في يوم من الأيام إلى أن أعطى هذه الحركـة

صورة جديدة ، لعل صاحباً لـه اسمـه **عبـدان** وضع لـه اسمها بعـد دراسـة أحوال أهل النبط واتجاهاتهم وميولهم ، فقد جمع حمدان وعبـدان أموالاً بـاسم **« الأُلفة »** وهو اسم جديد ؛ والغـايـة من الألفـة ، أن يكون لهـذه الـدعوة بيت مال ، فيه أموال كل من انتمى إليها ، توزّع عليهم هـذه الأموال حسب حـاجتهم وحسب حـاجـات الـدعوة ، فـلا يترتّب على المنتسب إلا سـلاحـه وفرسه ؛ أما أمواله الأخرى وإنتاجه فيقـدمهـا أُلفـةً ، وينتظر من أصحـاب الدعوة ـ وهم يضعون رجلاً ثقة على هذه الأموال ـ أن يوزعوها بين الجميع . إذاً هـذه الـدعوة ـ كما ترون ـ اشتراكيـة شيـوعيـة . أقبـل المنتمـون إلى هـذه الحركة على هذه الدعوة وقبلوا أساليبها برضى منهم ، وقدموا إليها أموالهم .

تطبيق النظام ونشر الدعوة :

كانت هذ الأموال توزّع عليهم حسب حاجاتهم بـالتسـاوي وبـالعـدل ؛ وكانت مراكزهم في هذه الحركة متصلـة تعتمـد على كفـاءاتهم الشخصيـة وعلى مقدرتهم في إيقاد تلك الحركة ودفعها إلى الأمام . كل ذلك يتفق مع روحهم ومع الوضع الـذي كانـوا عليـه . أدّى كل ذلـك إلى انتشـار الـدعـوة انتشـاراً كبيراً . وجّـه حمـدان الـدعوة إلى خـارج العراق : أرسـل **ابن حَـوْشَب** إلى **اليمن** ، ووجـه **أبـا سعيـد الحسن بن بهرام الجنـابي** إلى جنـوبي إيران ، لكنه لم يتمكن من النجاح فيها ، فهرب منها وسـار إلى **البحرين** فنجح في البحرين أكثر .

انفجار الحركة :

ولما تهيأ الأمر لحمدان ، وكثر أتبـاعـه ، أعلن ثورتـه في أول أمره بشكل بسيط ، ثم ظهرت تلك الثورة بشكل قوي مفاجئ في عـام ٢٨٧ هـ في مكان اسمه **جنبلاء** بين الكوفة وواسـط ، فهـاجم المسلمين السنّيّين ، وقتل النسـاء

والأطفال ، وأحرق الدور ، وسار بدر عامل الخليفة المعتضد إلى القرامطة ، وشتتهم ، وأوقع فيهم مقتلة كبيرة ، إلا أنه لم يُفنِ حركتهم لأنه ـ على ما يقال ـ كان بحاجة إلى العمال والمزارعين ليقوموا بشؤون الأرض والعمل ؛ فعادت الدعوة ثانية ، وعادت الثورة عام ٢٨٩ هـ . شعر الخليفة بخطورة الحال ، وأرسل جيشاً كبيراً ، فهزمهم شرّ هزيمة .

توقّف الحركة :

وهنا نشاهد أمراً غريباً ، وهو أن حركة القرامطة في العراق تسكت وتخفت إلى أمد بعيد ؛ ولا ندري لماذا وقفت تلك الحركة ؟ أهو لأن الخليفة قضى عليها قضاء بحيث لا تقوم ثانية ؟ أم أنه حصل خلاف كبير بين أصحاب الدعوة فأدّى إلى إيقافها ؟ ـ مهما يكن من أمر فإن حمدان وعبدان اختلفا مع القائمين على الأمر بالسلمية ، وأرسل القائم بالأمر في السلمية إلى العراق رجلاً ليسوّي الأمور ، ويثير فيه الفتنة مرة أخرى ، فوصل إليه ، واجتمع بحمدان وعبدان ، لكنه لم يجد السبيل إلى التفاهم معهما فقتلهما . دبّر ذلك القتل ـ على ما يقال ـ مع شخص اسمه **زكرويه بن مهرويه** ، وكانت شخصية هذا الرجل وأولاده غامضة . وقفت الدعوة على كل حال في سواد العراق وانتقلت منه إلى الشام بين الأعراب .

انتقال الحركة إلى الشام :

قامت الدعوة في الشام للقرامطة على يد **صاحب الناقة** ، وصاحب الناقة اسمه **يحيى** وهو على رأي بعض المؤرخين الابن الأكبر لزكرويه . نشر صاحب الناقة دعوته بين الأعراب من بني **العُلَّيْص** ، وكانوا في حالة شديدة من الفقر والبؤس ، فتلقفوا دعوته ، وثاروا على الدولة الطولونية ، وكانت إذ ذاك في حالة ضعف شديد . ادعى صاحب الناقة أنه صاحب

الأمر ، وهو الخليفة ، وتلقب بلقب أمير المؤمنين . لم ير الطولونيون في ذلك خطراً جسيماً ، حتى أنهم لم يهتموا به كل الاهتمام . فصار صاحب الناقة يُغير على المدن والقرى ، ويسفك الدماء ، ويسلب الأموال . أدرك المعتضد خطورة الأمر ، فأرسل إليه جيشاً لم يستطع الصمود أمامه ، وأرسل إليه الطولونيون واليهم على سورية واسمه **طُغْج** ، فهزمه صاحب الناقة ؛ وسار طغج إلى دمشق ، وتحصّن بها ، وقد سلمت دمشق من غارات القرامطة . أتت النجدة إلى طُغْج سنة مئتين وتسعين ، فتقدم إلى القرامطة ، وهزمهم شرّ هزيمة ، وقتل صاحب الناقة . كان لصاحب الناقة أخ عُرف بلقب **صاحب الشامة**[1] ، وتذكر الروايات التاريخية أن اسمه **حسين** ثم أسمى نفسه **أحمد** ويقال إنه من أبناء زكرويه أيضاً ، فاستولى على الأمر من بعده .

ودعا صاحب الشامة لنفسه ، وخُطب له في حمص بإمارة المؤمنين ، وتفاقم خطره . وكان الخليفة في ذلك الوقت **المكتفي** ، فأرسل إليه جيشاً عدّته عشرة آلاف مقاتل ؛ لكن هذا الجيش لم يصمد أمامه ، بل هزم ، وسار صاحب الشامة إلى دمشق ، فصالحه أهلها على جُعْل يؤدّونه إليه . ويقال إنه سار بعد ذلك إلى السلمية وقصد فيها الدعاة وصاحب الأمر هناك ، وأراد أن يقتله . في هذه الأثناء جهّز المكتفي جيشاً قوياً لمحاربته ، ووضع على رأس الجيش **محمد بن سليمان الكاتب** فسار إليه محمد هذا وهزمه في موقعة حاسمة ، وألقى القبض عليه وأرسله إلى بغداد ، فقتل فيها .

وبذلك انتهى أمر القرامطة في الشام ، ولم يستمرّ أمرهم فيها مدة طويلة ، وكان سبب نجاحهم ضعف الطولونيين وفقر الأعراب ، واستعدادهم

---

(١) أكثر المراجع تذكر لقبه صاحب الشامة وبعضها القليل صاحب الخال ـ المنقح .

لقبول الدعوة القرمطية . الذي سبّب بعد ذلك إخفاق القرامطة أن الطولونيين ألقوا بمقاليد الأمر للخليفة في بغداد ، وكان الخليفة قدْ انتهى من أمر القرامطة في العراق ، فاستطاع أن يُجْهِز على حركتهم في سورية ، ولاقى القرامطة في دمشق مقاومة كبيرة ، ولم يستطيعوا أن يتفاهموا مع **عبيد الله المهدي** رأس الحركة الفاطمية الذي كان في السلمية . هاتان الحركتان القرمطية والفاطمية سارتا باتجاه مختلف ؛ لو أنهما اجتمعتا لتفاقم الحال في سورية .

القرامطة في الجزيرة العربية :

قضي على الحركة في العراق وسورية ، لكنهما استمرت خطيرة جداً في منطقة أخرى ، فقد رأينا أن حمدان القرمطي أرسل أبا **سعيد الحسن بن بهرام الجنّابي** إلى **البحرين** ، ونشر الجنّابي دعوته بين القبائل العربية من بني عبد القيس ، واستقامت له الدعوة في الأحساء ، فاستطاع أن ينشئ دولة مستقلة عاصمتها **المؤمنية** ، وحكم هذه الدولة هو وأولاده باسم **إمام مستور** سيظهر يوما . ولكي يقوّي شأنه في هذه المنطقة ، ولكي يساير البدو فيها ، جعلهم يشاركون في الأمر معه حتى يحين ظهور الإمام المختفي . كوّن منهم **مجلس سيادة** يوجّهون الأمر معه ، واشترك شيوخ القبائل في مجلس السيادة ينتظرون الإمام المستور . ظهر خطر القرامطة في الأحساء ومنطقتها ظهوراً واضحاً ، فأغاروا على الحج ، سلبوا وقتلوا وسفكوا الدماء ، وتوزعوا في مناطق مختلفة من البحرين ، حتى أنهم في عام ٣١٧ هـ بلغوا مكة ، وأخذوا الحجر الأسود منها ، واستبقوه عندهم مدة ثلاثين عاماً ، حتى توسّط الخليفة الفاطمي معهم بشأن إعادته فأعادوه . حاولوا أن يسيروا

إلى اليمن ، وحـاولـوا أن يصلـوا إلى منـاطـق أخرى في العـالم الإسـلامي ، فامتدت أيديهم إلى الديلم ، ولكنهم لم يؤسسوا فيه حكماً معيّناً[1] .

هـذه خـلاصـة عن القرامطـة وعن مبـدئهم وأعمـالهم ، ويقـول **ماسّينيـون** : « إن القرامطـة هم الـذين أسسـوا نقـابـات العمال في ديـار الإسـلام ، وإنهم أول من فعـل ذلـك ، فجمعـوا بين العمال ووحّـدوهم » ولا ريب أن القرامطـة كوّنوا هـذا النـوع من الاتحـاد للعمال ليستفيـدوا من حركتهم ، وليجعلوهم تحت لوائهم . أما أنهم كانوا أول من وضع نظام الاتحاد العمالي في ديـار الإسلام ، فـإن هـذا أمر غير مقبول . الـدكتور عبـد العزيز الدوري ينفي ذلك ويقول : « إن اتحـادات العمال بـدأت منـذ القرن الثـاني للهجرة : فـالعمال جمعـوا أمـورهم ، وتنـاصروا ، وتسـاعـدوا ليخرجـوا من الضـائقـة الاقتصـاديـة التي كانت تحيـط بهم » . والـدليل على وجود حركـة النقـابـات من قبل ـ كما يقول الـدوري ـ هـو وجـود الشطّـار والعيّـارين . فهؤلاء وجـدوا في العراق قبـل عصر القرامطـة ، لقـد خرجـوا من العمال ، وكانت لهم علاقة بنقاباتهم . وأيّاً كان الأمر ، فحركة القرامطـة ـ كما رأينـا ـ استفادت من عناصر مختلفـة . من عنصر **البـاطنيين وإمـامهم المستور** ، ومن **الفـلاحين النبطيين** الـذين لم يتشربـوا روح الإسـلام كل التشرب ، ومن **الأعراب** الفقراء البـائسين الـذين لمعـوا في أسـاليب السلب والنهب ، ومن **العمال الفقراء** ؛ ثم كـوّن القرامطـة من كل ذلـك جمـاعـة نشرت

---

(١) بعدما استولى الفاطميون على مصر سنة ٣٥٨ هـ ، حـاول القرامطـة في الأحسـاء بـالاتفـاق مع بعض الأعراب الاستيلاء على مصر ، لكن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله استطـاع أن يفلت من هـذه الكارثـة بـالخداع والسياسة . استولى القرامطـة على فلسطين ودمشق ، وضربوا بها النقود في السنوات ٣٦١ و ٣٦٢ و ٣٦٤ و ٣٦٧ هـ . أخيراً استطاع الفاطميون طردهم من الشام ـ المنقح .

مـذهبهم ، فكان أولـه دينيـاً وآخره شيـوعيـاً . وفي خضمّ الاضطراب الـذي حاق بالدولة الإسلاميـة في ذلـك العصر استطـاعوا أن ينفـذوا إلى منـاطق ، وأن يعملوا السلب والنهب ، وأن يسفكوا الـدمـاء ؛ وكان من ذلـك أن بثّوا الإرهـاب والخوف في قلـوب النـاس والحكّـام ، فصـار صيتهم المُرعب في كل مكان ، وسـاعـدهم هـذا على التـوسـع وممـارسـة العـدوان ، وتقهقرت أمـامهم الجيوش ، وعَظُم أمرهم .



عودة سلطة الخلافة إلى حين

(٢٥٦ ـ ٢٩٥ هـ)

رأينا في الأبحاث السابقة تقلّص سلطة الخلافة العباسية ، وقد سردنا الحوادث التي نتجت عن ذلك ، ثم علمنا كيف تمكّن العباسيون من القضاء على النزعات المختلفة التي انبثقت من الأوضاع الشاذّة ، ولم نتعرض للبحث عن الخلفاء الذين أعادوا سلطة الخلافة . نريد الآن أن ندرس وضع هؤلاء الخلفاء ، ونستعرض عهدهم بالإجمال ، لنرى كيف استطاعوا أن يستعيدوا السلطة ، وماذا نتج عن ذلك .

إعادة السلطة إلى الخليفة :

من سنة ٢٥٦ إلى سنة ٢٩٥ هـ تولى ثلاثة خلفاء وهم : **المعتمد والمعتضد والمكتفي** . أما الخليفة الأول فهو خليفة اسمي لا شأن له كبيراً ، إنما كان دمية في يد أخيه **الموفق** يوجّهه حيث يشاء ، فالأمر يرجع إذاً إلى خليفتين وقائم بأمور الخلافة ؛ وهم الذين أعادوا السلطة إلى الخلافة ، أعادوا تلك السلطة لكفاءة خاصة وقوة وحيلة . أما الموفق فقد كان أقواهم ، وقد كان أجرأهم وأشدّهم حيلة ، وأقدرهم ، ولولا الموفق لتزعزعت سلطة الخلافة أكثر فأكثر ؛ إلا أنه وقف إلى جانب أخيه : فحُلّت المشاكل أمامه واحدة بعد واحدة . أول شيء فعله هو أنه أعاد الأمر إلى نصابه في بغداد ؛ ثم قضى على حركة الزنج ـ كما رأينا ـ عام ٢٧٠ للهجرة بعد جهد كبير وتنظيمات هائلة . وكان في الوقت نفسه يقف أمام

الصفّارين والطولونيين يحاربهم تارة ، ويتحايل عليهم تارة أخرى ، ويثير عليهم القلاقل تارة ثالثة ، حتى استطاع أن يوقفهم عند حدّ معيّن ، فأتى الخلفاء من بعده وأوقفوا حركتهم .

أما المعتضد الذي تولى الخلافة عام ٢٧٩ هـ ، فقد كان حازماً أيضاً ، وهو ا بن الموفق ، وأخذ عن والده سياسته ، وحنكته ، وتعلم على يديه فنون الحرب ، فاستطاع أن يقضي على الثورات الداخلية كالخوارج ، وضرب الأعراب بالأكراد في ثوراتهم ، وحارب القرامطة ؛ ولئن لم يستطع أن يتغلب عليهم تغلّباً نهائياً ، فقد أوقفهم عند حدّ ، وهو الذي أخضع الأمراء المستقلين ، وقضى على السلطة الطولونية . أما المكتفي فقد أتمّ عمل من جاء قبله ، فهو قد قضى على القرامطة في الشام والعراق ، وحارب الروم حينما أرادوا أن يستغلوا الفوضى الكائنة في الخلافة العباسية وأن ينقضّوا عليها ، وظل يحاربهم حتى توفّي . خلاصة القول : إن أيامه شهدت إعادة سلطة الخلافة بشكلها النهائي .

وسائل الخلفاء الثلاثة في استعادة السلطة :

هؤلاء الخلفاء الثلاثة قاموا بما قاموا به من إعادة سلطة الخلافة دون أن يكون للقواد الأتراك دور كبير في ذلك ، وضعوا أولئك القواد في كنفهم ، فتقلص سلطانهم ، وعادت هيبة الخلافة . إن هؤلاء الخلفاء لم يستطيعوا أن يقضوا على أسباب الفوضى الأساسية ، وعلى أسباب النزعات الاستقلالية وعلى الحركات الثورية . قد رأينا أن السبب الأصيل للمشاكل الداخلية هو تلك الحالة الاجتماعية والاقتصادية التي كان العدل لا يسود فيها . طبقات الشعب ـ كما رأينا ـ كانت تئن من الضرائب ، وتئن من اضطهاد الحكام . هذا هو السبب الرئيسي الأصيل الذي لم يعمل أولئك الخلفاء على تفاديه ،

بـل سيروا سيـــاستهم على أســـاس آخر . وهـو أن يقضـوا على الحركات الاستقلاليـة والحركات الثوريـة بـالقوة والحيلـة ، وقضـوا عليهـا ، إلا أنهم لم ينظروا إلى أعمـاق الأمور ، ويحلوا المشـاكل جـذريـاً ، فهم لم يحسّنـوا حـال الفلاحين ويرفعوا الظلم عن عامة الناس والعمال .

هـاهم أولاء يعـالجون مظـاهر الفوضى والتمرّد الصـادرة من الأتراك . لم يعـالجوهـا بـأن يجلـوا الأتراك ويقصـوهم عن مراكـز الحكم ، بـل نظروا في السبب المبـاشر الـذي كان يجعل هـؤلاء الأتراك يثـورون . كان السبب هـو ضعف بيت المـال : فـالأتراك كانـوا يتخـذون عجـز بيت المـال حجـة لهم ليثوروا ، ويطلبوا الرواتب والنفقات . ظنّ الخلفـاء أنهم إذا جمعوا المـال من خزائنهم وكدسوه ، فهم يستطيعون في كل حين أن يؤدوا للجند مطالبهم بل أكثر من مطـالبهم إذا اقتضى الأمر : ظنّـوا أنّ عليهم أن يجمعـوا المـال في خزائنهم حتى يعطوا الرواتب دون تأخر . الواقع أن جمع المـال كان حـاجـة من الحاجات التي كان لا بد من تحقيقها في عصرهم ، فالحرب كانت تقوم من حين لآخر ، وكانت تتطلب الكثير من الأمـوال . مـع ذلـك كانت إجـابـة مطاليب الجند سبباً دعاهم إلى إصلاح الحالة المالية والحالة الاقتصادية .

كيف تمّ الإصلاح المالي والاقتصادي ؟ :

اشترك في هذا خليفتان هما المعتضد والمكتفي ، وعمل المعتضـد أكثر من المكتفي في هذا الأمر : فهو قد حسّن حـالـة الريّ ، وفتح العـدد الكبير من الأقنية ، وحسّن حال الزراع بـأن قـدّم لهم البـذور الكثيرة سلفـاً ، ثم أجّل دفـع الضريبـة إلى شهر حـزيران (يـونيـو) ، أي بعـد جمـع المحصول من الإنتـاج : وبـذلـك سـاعـد المزارعين مسـاعـدة كبيرة ، فتحسنت أحـوالهم ، وصاروا يرسلون الضرائب بانتظـام أكثر ممـا كانوا يفعلون . توفّي المعتضـد ،

وفي بيت ماله الخاص لنفسه ما يقرب من عشرة ملايين دينار ، سوى ما كان في بيت مال الخلافة العام . أتى المكتفي فاتّبع سيرته في جمع الأموال وكان مقتّرا ، فجمع منها الشيء الكثير ؛ وحين توفي ترك في بيت ماله الخاص خمسة عشر مليون دينار .

نتائج الإصلاح المالي :

هذا الجمع والتكديس للمال أدّى إلى شرّ مما كان يظن الخلفاء أنه سيؤدي إليه . أدّى إلى تقوية سلطان أصحاب الدواوين والوزراء والكتاب ، الذين كانوا يجمعون المال ؛ فهم الذين يتولّون ديوان الخراج وديوان الإنفاق ، وغيرهما من الدواوين . هؤلاء الكتّاب يصلون إلى مرتبة الوزارة والوزير هو الذي في يده الأموال والدواوين يشرف عليها جميعاً ، كان الوزير نفسه من طبقة الكتّاب وهو في معظم الحالات كاتب صغير ، أخذ في الترقي حتى صار صاحب ديوان ثم أصبح وزيراً ، واتخذ لنفسه بطانة من الكتّاب أيضاً ، فأخذ يسَيِّر الأمور عن طريقهم ، ولا يأمن إلا لأصحابه ؛ تركه الخليفة يفعل مايشاء لأنه كان يبغي المال . صار يتمّ تحصيل الخراج والضرائب عن **طريق الضمان** ، لأن الخليفة يريد أن يحصل على مقدار معين من المال يضمه إلى ما عنده ، ولا يريد أن يتعب نفسه في وضع ميزانية للوارد لا يعرف أيأتي أم لا ؟ فهو إذاً يسلّم الضرائب إلى وزيره وإلى كتابه وإلى عمّاله في الأقطار . العمال في الأقطار هم تحت يد الوزير ، يطلب الخليفة إليهم أن يؤدوا مقداراً معيناً من المال ، يضمنون به الضرائب التي يجمعونها ، ولا يهمه بعد ذلك كيف يجمعون تلك الضرائب . هذا الوضع أعطى الوزير وأصحابه وعمال الخراج قوة وشأنا ، فهم ما كانوا يجمعون مال الضمان فقط ويؤدونه للخليفة ، إنما كانوا يجمعون علاوات عليه يأخذونها لأنفسهم .

وقد رأينا في أبحاثنا الماضية أن هؤلاء الكتّاب كانوا يضطهدون حيناً ، وتصادر أموالهم بعد أن يعزلوا . انتهى بهم الأمر إلى أن وجدوا طريقة للتخلص من ضنك المصادرة ، تلك الطريقة هي **الوقف** ؛ فهم يجمعون الأموال ثم يوقفونها على أنفسهم وعلى ذراريهم ، ويديرونها بأنفسهم في حال حياتهم ، ويديرها أبناؤهم بعد وفاتهم ، وبذلك يضمنون بقاء المال في أيديهم . فالخليفة إذا صادر ، فإنما يصادر أموالهم الشخصية دون أموال الوقف . يلاحظ كذلك أن سلطان الكتّاب قد زاد بزيادة المال بين أيديهم وبتقديم هذا المال للخليفة من عندهم .

وهكذا نرى أن طبقة الكتّاب وأصحاب الدواوين قد ظهرت مرة أخرى إلى الوجود[1] ؛ وكان الخليفة مضطراً أن يلجأ إلى هذه الطبقة لإدارة أموره وأحواله الداخلية ، بل هو مفتقر للأموال التي يقدمونها إليه ، لأنه مشغول بالحرب ، والثورات الشعبية ؛ والوزراء هم المتصرفون في أحوال الدولة داخلياً ، بتعيين العمال والولاة والقضاة وما يلي ذلك من جباية الأموال ومراقبة تلك الجباية .

وضع الخليفة وتأرجح نفوذه بين طبقتي الموظفين والعسكريين :

وفي عهد الخلفاء الثلاثة نرى أنه لايزال يوجد في عاصمة الدولة العباسية طائفتان خطيرتان : وهما الجيش الذي لم يقض على نفوذه ، وطبقة الوزراء والكتّاب الذين مكنّوا سلطانهم مرة أخرى . نعم إن الخليفة يتحكم بالجيش وفي وزرائه وكتّابه ويسيرهم كما يشاء ، إذا كان قديراً

---

(١) يحسن أن ينتبه الباحث إلى أن هذا الدور يمثل تفوق نفوذ الطبقة البوروقراطية التي بيدها النفوذ والمال على الطبقة العسكرية المفتقرة إلى المال ـ المنقح .

وقـويّـا ، لكن الأمر يختلف اختـلافـا كبيراً إذا أتى خليفـة ضعيف ، فيظهر خطر هاتين الطائفتين : يظهر الوزراء والكتاب يستأثرون بالمال الـذي بين أيديهم ويعتزّون بسلطـانهم على أمراء الأقطـار وعمـالها ، يقف تجـاههم قواد الجيش فهم الـذين بين أيـديهم الجنـد ، والجنـد هم أصحـاب القوة والسلاح : والخليفة لا يستطيع أن يفعل شيئاً أمامهم ، ولا يستطيع أن يقصّر في تأدية الأموال إليهم . كانت الأمـوال في أيـدي الـوزراء : فـإذا حصـل تنـافس بين الفئتين اختـل نظـام الـوزارة واختـل نظـام الجيش ، وتضعضعت الـدولـة . أحيـانـاً يحـدث اختـلاف بين الـوزراء أنفسهم ، فينقسمـون إلى قسمين ـ كما سنرى ـ كلّ قسم منهم ينظر إلى الثـاني بعين حمئـة : والجنـد لم يكونـوا على اتفاق تـام فيا بينهم ، ويمكن أن يثور الخلاف بينهم في كل لحظـة . إذا ثـار النزاع بين القواد والوزراء وكان الخليفة ضعيفاً ، انهـارت السلطـة السيـاسيـة وعـادت الفوضى إلى مـا كانت عليـه . هـذا مـا حـدث بـالفعل . في النصف الأول من القرن الرابع كان الخليفـة المكتفي آخر الخلفـاء الأقويـاء في ذلـك العهد ، فكّر فيمن يوليه الخلافة من بعده ، لكنه لم يكتب عهداً بذلـك ، بل تـوفي دون أن يكـون هنـاك وليّ للعهـد . من يرجـع إليـه الأمر في تـوليـة الخليفة حينئذ ؟ ـ أيرجع للوزير والقواد ؟ الوزير الـذي تغلب وسيطر في آخر عهـد المكتفي **كان العبـاس بن حسن الجرجرائي** ، اتجهت إليــه الأنظار ليجد وليّاً للعهد ، وكان هنـاك فئتـان من الراغبين ، فئـة ترى أنه يجب أن يوكل الأمر إلى ا بن المكتفي وقد **لُقّب المقتـدر** ، وهو غلام صغير يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاما ، وفئة أخرى ترى أن يوكل الأمر إلى **عبـد الله بن المعتز** الشاعر المشهور : أمـا الجرجرائي فقـد كان في ذهنـه ألا يولي خليفة قوياً ، لأن الخليفة القوي يقضي على سلطانه ، فتوجّه إذاً إلى المقتـدر ذلك الغلام ، فجمع القواد والوزراء والكتـاب لمبـايعتـه ، فـاضطروا إلى أن

يقبلوا بذلك . في عهد هذا الخليفة الضعيف الصغير كان لابدّ من أن يحدث الحدث الذي توقعناه ، وهو أن تقع الواقعة بين الوزراء والكتّاب من جهة وبين رجال الجيش من جهة أخرى ، وتبرز في هذا الخضم سلطة جديدة تمتد إلى الخلافة ، وهي سلطة الحريم وسلطة النساء ، أي أم الخليفة ومن يتبعها من نساء في بيت الخلافة ، فالخليفة موجود في كنفهن ، وقد ربي بينهن ، وهن القيّات عليه ، فلا بدّ من أن يطيع أمرهن .

تقهقر سلطة الخلافة مرة أخرى
(٢٩٥ - ٣٣٥ هـ)

الاضطراب بسبب المبايعة للمقتدر :

بويع **المقتدر** بالخلافة بتأثير من الوزير **العباس بن الحسن الجرجرائي** ، وكانت هناك طائفة من الكتّاب تقول بمبايعة **عبد الله بن المعتزّ** ، لأنه قوي وقدير ، ولأنه ليس صغير السن كالمقتدر . هذه الطائفة من **آل الجراح**[1] ، ولما بويع المقتدر بالخلافة ، جمعت هذه الطائفة أمرها وخرجت من المبايعة ، والتفّ أصحابها حول عبد الله بن المعتز وبايعوه ، وقاموا بثورة قتلوا بها الوزير الجرجرائي ، وكاد الأمر ينتهي بأن يتنازل المقتدر عن الخلافة لعبد الله بن المعتز ، غير أن حادثاً وقع وهو أن **مؤنساً الخادم** (وكان صاحب مكانة ارتقى من دور الخادم إلى دور القائد) كان قد عاد من مكة بعد أن أرسل إليها ، فترأس حركة المعارضة مع حرس

---

(١) هو محمد بن داود بن الجراح انضم إلى ابن المعتز سنة ٢٩٦ هـ ؛ لكن علي بن عيسى بن داود الجراح من هذه الأسرة وزر للمقتدر بين (٣٠١ - ٣٠٤هـ) ثم (٣١٤ - ٣١٦ هـ) - المنقح .

الخليفة ، فأوقف المتآمرين وقضى على حركتهم ، وقتل ا بن المعتز وأعيد المقتدر . امتدت فقط خلافة عبد الله بن المعتز يوماً واحداً .

تثبيت بيعة المقتدر ونفوذ الحريم والوزراء :

وهكذا استقر الأمر للمقتدر ، وهو غلام في الثالثة عشرة من عمره ، لا يعرف من أمور الدولة شيئاً . جرى على التبذير والانهاك في الملذات والشرب والعزوف عن شؤون الدولة ، مع أنه كان حين يصحو من شراب يصلي كثيراً ويتعبّد . ومن المعقول أن خليفة كهذا لايستطيع أن يتسلم ناصية الأمر ، ولا بدّ من أن يكون إلى جانبه جماعة يسيِّرون الأمور ، وينوبون عنه لينطلق هو إلى ملذاته . كانت الأيدي كثيرة لتوجيهه ، وكانت أمه واسمها شَغَب تحيط به ، وتوجّهه على طريقتها ، ويحيط به الحريم في دار الخلافة ، ويشيرون عليه ، وهو صغير ناشئ . صار لأول مرة في تاريخ الخلافة العباسية تأثير للحريم في توجيه سياسة الدولة ، وإلى جانب الحريم الوزراء ، والوزراء لا صلة لهم إلا بالخليفة ، لكن الخليفة الآن غير قادر ، فهم يستفيدون من ذلك ، ويركِّزون سلطانهم ، ويوجِّهونه بشكل يوافق مصالحهم الشخصية . الخليفة بطبيعة الحال يودّ أن يرى أشخاصاً حوله يقومون بالأمر . الواقع أن للحريم تأثيراً في انتخاب الوزراء ، وللوزراء أيضاً أثر في تأثّر الخليفة بالحريم . هذا أمر معقد متشابك ينتهي أخيراً بأن يضطرب الحال ، ولا يعرف من هو الموجّه للخليفة ، ويبقى الخليفة في مهبّ الريح ، يطلق السلطان حيناً لحريمه ، وحيناً آخر لوزرائه .

اضطراب الحالة المالية :

الذي يهمّ الخليفة من الوزراء أن يقدموا له المال ، وأن يشبعوا

رغباته ، في الإنفاق والتبذير . وهم يعرفون منه هذه الحال ، فيتنافسون بينهم في السبق إلى تلبية رغباته ، فهم يقدمون له المال الذي يأخذونه من الشعب ، ويستفيدون من ماله لأنفسهم ، فلا يعطون الخليفة إلا قسماً من المال الذي يجمعون ، ولما كانت نفقات الخليفة كبيرة ، والمال الذي وجده في بيت مال الخاصة (وهو خمسة عشر مليون دينار) لا ينبع بل ينضب ، وعدد الجيش مع الحرس كبير ، فإن الحاجة إلى المال تزداد مع الزمن ، وإذا تأخر عن دفع المال يعود الجيش إلى سيرته الأولى في عهد تقهقر الخلافة ، يطالب برواتبه فيضطرب الحال .

وضع الجيش :

لم يكن الجيش مؤلفاً من الأتراك وحدهم بل أصبح خليطاً غير موحَّد ، نُظِّم على فئات ، ولم يكن التفاهم سائداً بين تلك الفئات : هناك الفرسان ، وهناك المشاة ، وهناك الحرس وما أشبه ذلك .

التنافس بين الجيش والوزراء :

وتظهر هنا شخصية **مؤنس الخادم**[1] في الجيش فهو الذي مكّن مركز الخليفة ، وهو ينتظر من الخليفة أن يوافقه على مطالبه وأن يعترف له بفضله ؛ لكن الخليفة مأخوذ بمن حوله من الوزراء ، وبين الوزراء من لا يرغب بمؤنس ، بل يحسده على مكانته ، ويوغر صدر الخليفة عليه معتقداً أن الخليفة أقوى منه . الواقع أن الخليفة المقتدر ورث عمن سبقوه قوة الخلافة وسلطانها ، فلم يكن باستطاعة مؤنس أن يكون صاحب الأمر إلا إذا تخلّى له الخليفة عن ذلك . الخليفة مهتمّ بوزرائه ومهتمّ بنسائه ومهتم

(١) هناك مؤنس الخادم ومؤنس الخازن . ولى المقتدر في أول عهده مؤنساً الخازن أمر الشرطة (ابن الأثير ٨ : ٦) ـ المنقح .

بالمال . الوزراء متحاسدون متباغضون ، يسعى كل منهم إلى أن يبقى في الوزارة ، وإلى أن يوقع غيره في مأزق ، وإذا خرج من الوزارة سعى إلى العودة إليها بمؤامرات على الوزير القائم . على هذا النحو كانت الأحوال تضطرب ويكثر عدد الوزراء ، فالخليفة لا يستقرّ على واحد منهم ، ويجد أن التغيير أصلح لحاله وأكثر حلاً لمشاكله . يقوم في تلك الفترة أربع عشرة وزارة يتولاها تسعة من الوزراء المختلفين متتابعين الواحد بعد الآخر ، يخرب الواحد منهم ما صنعه الآخر .

ابن الفرات :

ظهرت شخصيتان من الوزراء التسعة ، كانتا صاحبتي الأثر في تطور تلك الفترة ، وهما شخصيتا **ا بن الفرات و علي بن عيسى بن الجراح** ، ولكلا الشخصيتين صفات ، فابن الفرات رجل قويّ متسلط قاس في أكثر أموره ، محبّ للسلطان ، ولا يهمّه في سبيل احتكار السلطة شيء ؛ سياسته لها عدة أغراض : سياسة البلوغ ، وسياسة تسوية الأمور ، وسياسة التسلط بصفة خاصة ، لا يهمّه في سبيل ذلك اختلال الأحوال المالية ولا اختلال النظام ، لايهمه أمر الدولة إلا بمقدار ما يرقى به النفوذ والسلطان . ينفق الأموال الكثيرة ، ويقدم للخليفة مطلوبه منها ، ويجمع حوله عصبة من الكتّاب يطلق لهم الأمر ، فيجمعون المال بالضغط على الناس ويتصرفون بالأمور كا يشتهون .

علي بن عيسى بن الجراح وإصلاحه المالي :

أما الشخص الآخر ، وهو علي بن عيسى بن الجراح ، يأخذ صفته من العصر الذي هو فيه ، ويتأثر من جوّ المؤامرات ، لكنه يبغي الإصلاح في الدولة إلى جانب سعيه لتقوية مركزه الشخصي . لا يهتم كثيراً بالناس ، أو

بالكتاب ، بل يريد أن ينقذ الوضع المالي ، وهو يستند على مقدرته الشخصية في تسوية الأمور ، وفي إصلاح حال الدولة ، له صاحب يعتمد عليه وهو مؤنس الخادم ، ولا ندري وجه الاتفاق بين الاثنين ، ولعل مؤنسا على غير ما وصفه المؤرخون ، فلعله كان يريد إصلاح الحال والنهوض بالدولة إلى جانب رغبة له لا تظهر واضحة في الاستيلاء على الأمر وتوطيد شأن الخلافة .

ينبغي أن نقف قليلاً عند ابن الجراح ، فَنَصِفَ الإصلاح المالي الذي قام به . تولىّ ابن الجراح الوزارة مرتين وتوّلاها مرة ثالثة وزير آخر ، كان رئيساً له ظاهرياً . في وزارته الأولى : نظر في الأحوال المالية ، فوجد الشعب يئن من ظلم الكتّاب ، فالرشوة كانت منتشرة بينهم ، ولا يقوم كاتب بعمل إلا إذا أخذ المال عليه . كان الكتاب غير قديرين ، بل هم جماعة انتهازيون ، يريدون الوصول إلى المال بكل سبيل . كانت الضرائب كثيرة ، تعوق التقدم الاقتصادي وترهق الفلاح . تصدى ابن الجراح لكل ذلك ، فمنع الرشوة وكان لها ديوان خاص اسمه **ديوان المرافق** ، ومنع الفساد وعيّن الكتّاب القديرين . نعم إنه اتخذ لنفسه كتاباً من أصحابه وأقاربه ، لكنه اختارهم من بين الأكفاء ، وأعلن منشوراً بإعطاء الحقوق لأصحابها ، وبرفع الظلامات عن الناس ، ونظر في شكوى المتظلمين من الضرائب ومن سوء تحصيل الأموال . ألغى ابن الجراح بعض الضرائب التي كانت تثقل كاهل الشعب والفلاحين خاصة ، وقلّل من النفقات ، فضيق بعض التضييق على الأمراء وعلى الجنود ، وبذلك استطاع أن يجعل دخل الدولة يكفيها . نظر الناس إلى ذلك الإصلاح ، فاطمأنوا إليه وأمنوا على أنفسهم من ظلم الدولة ، فصاروا يعمرون المساكن والأراضي والمتاجر ، فكثرت الحركة وازدهرت الحياة الاقتصادية .

اعتمد ابن الجراح على نظام مالي أوجده بنفسه ، وكان أول من أوجده في الإسلام : الدولة كانت في حاجة ملحة للمال ، والخليفة لا يقبل أن يتعرض أحد لمسّ بيت ماله الخاصّ ، وقد أخذ حريته ، فأنفق في أمد يسير ما في خزانته . هذه الطريقة لا تضمن استقرار الأمور ؛ لأن الجيش لا يؤمن جانبه إلا إذا دفعت إليه الرواتب في ميعادها ، بل قبل ميعادها أحياناً ، فمن أين يأتي الوزير بالمال ؟ كانت طريقة الحصول على المال في مثل ذلك الظرف مصادرة أموال الكتاب والوزراء ، لكن هذه الطريقة تتنافى مع الأمان والاطمئنان ، وتدفع الكتّاب والوزراء إلى ظلم الشعب ، وأخذ أمواله بدون حق لتُقدّم حين الطلب . كان ابن الجراح لا يريد أن يلجأ إلى هذه الطريقة ، لأنه منع الرشوة وحرم الفساد . لذا وجد أسلوباً لدفع الرواتب في حينها ، فتعاقد مع اثنين من أثرياء اليهود على أن يسلفا الدولة الأموال التي ترغب فيها ، ومالهما مضمون مقابل دخل الدولة وأرباحها وضرائبها ، ولهما أرباح يحصلان عليها مقابل هذه السلفة . **هذا النظام الجديد يشبه نظام المصارف** ، وقد أحدث هذا النظام اطمئناناً إلى أن الدولة تدفع الرواتب في المواعيد ، بل صار كبار التجار يتقدمون إلى الدولة ، يسلفونها الأموال بعد أن اطمأنوا إلى قوتها المالية . إلا أن ابن الجراح لم يستمر في تلك الوزارة ، بسبب تدخل الحريم ، فسقطت وزارته ، وعاد ابن الفرات فألغى القواعد التي وضعها ابن الجراح .

عاد علي بن عيسى بن الجراح إلى الوزارة مرة ثانية ، فوجد الأمور مضطربة كل الاضطراب ، فبحث عن أسباب الاضطراب (غير الرشوة والظلم مما حاول إصلاحه سابقاً) ، فوجد أن الدولة تنفق من مال لا تستطيع معرفة مقدار ما يردها منه ، ينفق الوزير المال دون أن يعرف مدخوله ؛ فالأمر إذاً أن نعرف حاجة الدولة إلى الأموال ، وأن نعرف

مقدار الدخل ، ثم نوازن بين الاثنين ، فمنع كل إنفاق يخالف ما وضع من تقدير سابق ، وسعى إلى أن يتوازن الدخل والنفقة . ونظر ابن الجراح فيما أنفق عام ٣٠٤ هـ فوضع ما نسميه اليوم **بالميزانية** ، وضع الميزانية (أو كما كان يسمى **بالجريدة** بشكل متزن) ، وعمد إلى الإنفاق بحسب الأرقام المقدرة ، وجعل الحسابات ترده كل أسبوع فتسجل وتقيد ، ويعرف كل أسبوع ما هو دخل الدولة وما هو إنفاقها ، ويقابل ذلك بما هو مخزون في بيت المال ، فتتزن الأمور وتسير على شكل منتظم .

إلى جانب هذا الإصلاح الكبير الذي هو شيء جديد في تاريخ الدولة العربية الإسلامية حاول ابن الجراح **أن يقتصد من النفقات** ، فخفّف الرواتب ، وضيق الجيش ، فتحسنت الأمور ، واعتدلت ميزانية الدولة ؛ لكن المقتدر المبذّر ما كان يعرف تلك الحدود ، وكان يمشي مع رغباته الشخصية ، ووجد نفسه مضطراً إلى أن يزيد ديناراً لكل جندي ، فأخل بالجريدة ، فاضطر ابن الجراح أن يترك الوزارة ، تركها مع إصلاحه وجريدته الناظمة لأمور المال .

تدخل الجيش :

أما ابن الفرات ، فعاد يسير على طريقته يريد التسلط ، وكان الذي يقف أمامه يريد الحدّ من هذا التسلط هو مؤنس الخادم ، الذي كان له السلطان بقوة جنده ؛ فوسوس ابن الفرات للمقتدر ، وحسّن له إبعاده عن العاصمة ، وإرساله إلى الرقة لمحاربة الروم الذين كانوا يغيرون على بلاد الإسلام . أرسل الخليفة مؤنساً ، لكنه لم يتأخر كثيراً ، بل عاد وتدخّل مع الجيش في إسقاط الوزير . تحرك الجيش بعد أن أسقط الوزير ، فطلب إعدامه فشنق ، وانتهت وزارته ووزارة أصحابه . بعد أن قتل ابن الفرات

أصبح الرجل القوي النافذ في الدولة هو مؤنس الخادم ، ولم يَرَ - على ما يقول المؤرخون - قبل مؤنس الخادم من وصل إلى ما وصل إليه من النفوذ ؛ ومن وراء مؤنس الجيش . قلنا سابقاً إن الجيش مختلف التركيب ، وكانت كل فئة مستعدة لتشغب على الأخرى ؛ لذا حاول الخليفة أن يتخلص من مؤنس ، لأنه لايثق به مع أنّه أفاده قبل ذلك .

خلع المقتدر وتولية القاهر :

أخذالخليفة يدسّ في شأن مؤنس ويحاول إبعاده . وعلم مؤنس ما حصل من مؤامرات حوله ، وظنّ أن الخليفة يريد الفتك به ، فوقع الخلاف في نهاية الأمر بين الجيش والخليفة ، وذلك عام ٣١٧ هـ ، وتآمر الجيش على الخليفة وهجم على داره ، فهرب المقتدر . . . ولم يجد له ملجأ إلا عند مؤنس نفسه فاحتمى به . عيّن المتآمرون القاهر خليفة وهو أخو المقتدر إلا أنه لم يمض عليه أيام حتى عجز عن دفع الأموال للجيش ، فثار الجيش عليه وطلب إعادة المقتدر مرة أخرى . عاد المقتدر وتجددت له البيعة ثانية وعفا عن أخيه القاهر .

عودة المقتدر إلى الخلافة :

كان على المقتدر أن يعترف بفضل مؤنس وحمايته له ، لكنه لم يكن مطمئناً إلى إخلاصه ، فقد اعتاد أن يعيش في جوّ من الدسائس والمؤامرات السياسية . بحث عن حليف آخر غير مؤنس ، فوجد رجلاً اسمه **ياقوت** وابنه **محمد بن ياقوت** . أحسّ مؤنس بهدف المقتدر ، فطالب بتنحية ياقوت وابنه محمد عن الوزارة . ثار الشعب على الوزيرين ، غير أن محمد بن ياقوت صمد أمام هذا الشعب ، وقضى عليه . إلا أن مؤنسا عاد فألحّ على

الخليفة بإخراجه ، وخرج بجيشه إلى الشماسية[1] مغضباً ، خشي الخليفة العاقبة ، وسرّح محمد بن ياقوت ، وأتى بوزير آخر هو **الحسين بن القاسم ،** فتألف هذا بعض رجال الجيش كفرقة المشاة ، وجمعهم حوله ، واستطاع أن يبعد مؤنسا .

خروج مؤنس إلى الموصل ونهاية المقتدر :

فرّ مؤنس ملتجئاً إلى الحَمْدانيين بالمَوْصل ، فلم يلجئه الحمدانيُّون فقاتلهم وتغلب عليهم . أكسبته هذه الغلبة سلطانا وشأناً فعاد إلى بغداد . وهنا وجد الخليفة نفسه مضطراً للخروج لمحاربة مؤنس ، برز الخليفة بلباسه وعُدّته الحربية يصول في الميدان صولة أو صولتين ثم قتل[2] . دخل مؤنس بغداد مظفراً .

يمكن تلخيص ما انتهى إليه الوضع على الصورة الآتية :

أولاً ـ إن مؤنسا[3] انتصر على الخليفة وفي يده السلطان ، لكنه تردد ، وكأنه لم يكن ذا شكية قوية ، وكأنه لم يكن يريد أن يعرّض نفسه لإدارة الدولة ، وأن يلعب دوراً حاسماً حينذاك .

ثانياً ـ بمقتل الخليفة المقتدر زال أثر الحريم إلى غير رجعة ، فقد زال الرجل الذي كان يفتقر للحريم عندما كان طفلاً .

ثالثاً ـ هنالك خليفة عيّنه مؤنس وهو **القاهر** . هذا الخليفة يريد أن يعيد سلطان الخلافة ، فيعمل إذاً على تفريق الجماعة التي كانت تقود

---

(١) حي في بغداد ـ المنقح .

(٢) امتد حكم المقتدر بين (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) ـ المنقح .

(٣) اتخذ مؤنس لنفسه لقب أمير الأمراء سنة ٣١٧ هـ ـ المنقح .

الدولة . وهم مؤنس والوزراء وأرباب الجيش ، هذه الخطة اتّبعها الخلفاء الذين أتوا بعد المقتدر .

رابعاً ـ إن الوزراء ما كانوا يريدون أن يزول سلطانهم ، فكانوا يلعبون دورين مختلفين ، مرة مع الخليفة ليحظوا بحبّه ، ومرة مع قواد الجيش ومؤنس ليقووا بهم . وهم على كل حال أصحاب قوة بما يملكون من إدارة الأموال ؛ إلا أن نجاحهم متوقف على إدارة الأموال ، أي على تأديتهم الرواتب للجيش .

خامساً ـ الأمر الأهم هو تسوية الحالة المالية وتقديم المال للجيش ، على هذا تقوم حوادث هذا الدور . لو استطاع الوزراء أو الخليفة أن يدبروا الأموال للجيش في العهد السابق وفي هذا العهد لامتنعت كثير من الحوادث التي حصلت ؛ إلا أن تدبير ذلك المال كان عقدة العقد : قصرت أمام حلّ هذه العقدة كل إرادة وكل قوة ، وتضارب الجيش مع الوزراء ، والوزراء مع الخليفة ، والخليفة مع مؤنس ؛ وانتهى الأمر بأن تضعضعت الأحوال ، حتى إذا انتهى الأمر إلى ما انتهى إليه ، رأى الخليفة نفسه مضطراً إلى أن يلجأ إلى رجل يسلمه كل الأمر عسى أن يهيئ له مخرجاً مما هو فيه .

خلافة القاهر (٣٢٠ ـ ٣٢٢ هـ)

هذا هو تصوير الوضع ، أما الحوادث التى حدثت حول هذا الوضع ، وأعطته شكله الأخير ، فقد حدثت على الصورة الآتية : كان مؤنس بعد أن قتل المقتدر ، يريد أن يولي ابنه أحمد الخلافة لمقدرة أحمد هذا وكفايته وتقاه ؛ مع أننا لم نعرف شخصية مؤنس من خلال كتب التاريخ كما ينبغي ، يبدو لنا أنه كان ميالاً إلى الإصلاح وتسوية الأمور ؛ إلا أن

أصحابه خائرا من أثر الحريم في الحكم ، فجعلوه يعدل عن أحمد ويكلف القاهر ، فولّى القاهر الخلافة . كان القاهر سيئ التدبير في السياسة شحيحاً قاسياً عنيفاً . أول شيء عمله هو أنه قضى على سلطة الحريم وأحضر السيدة أم المقتدر ، وطالبها بالمال الكثير ، وعلّقها من رجلها وعذّبها أشد العذاب ، واستخرج منها مئة وثلاثين ألف دينار . دفع مؤنس الخليفة إلى أن يتخذ **ابن مقلة** وزيراً له فولاّه الوزارة . مهمة الوزير في ذلك العصر - كما قلنا - هي أن يقدم الرواتب للجيش وأن يرضيه . عمل ابن مقلة على إرضاء الجيش ما استطاع إليه سبيلا ، فاتخذ وسيلة المصادرة للوصول إلى المال .

أما الخليفة فقد كانت له سياسته ، وهي أن يتخلّص من نفوذ مؤنس ، فقرّب إليه أصحاب الخليفة المقتول مثل **محمد بن ياقوت** وغيره ، وضرب الجيش بعضه ببعض ؛ وحاول أن يبعد ابن مقلة فشعر هذا بما يدور حوله ، فدبّر مؤامرة لخلع الخليفة القاهر وللبقاء في الوزارة . اكتشف القاهر تلك المؤامرة فهرب ابن مقلة ، واستدعى الخليفة مؤنسا متذرعا بحجة استشارته ، وأخذ رأيه ، ولما أتى إليه ، ألقى القبض عليه وقتله ؛ وبهذا أصبح سيّد الموقف . لم يقف ابن مقلة ساكتاً ، بل صار يحرض الجيش في الخفاء ، ويحرض الناس على الخليفة ، ويصفه بأنه فتح القصر سجناً للقواد ، وبأنه يسكر حتى يثمل . . وبأشياء كثيرة أخرى . ثار الناس على الخليفة ، فوجدوه سكران فقبضوا عليه ، وسملوا عينيه .

خلافة الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ)

بويع أحمد بن المقتدر خليفة باسم **الراضي** ، وعيّن **ابن مقلة** وزيراً ، إلا أن ابن مقلة لم يفلح هذه المرة في سياسته المالية ، ولم يستطع أن يقدم

للجيش ما يجب من رواتب وعطاءات . ظهر رجل قد بلغ منزلة سامية وهو **محمد بن رائق** ، وكان في البصرة وواسط ، وصاحب الأمر عليها ، وفي يده بعض المال ، فضنّ به على ابن مقلة ليوقعه ، ويستولي على الوزارة دونه . سقط ابن مقلة من قلة المال ، فاستوزر الخليفة الراضي من بعده وزراء كثيرين ، الواحد تلو الآخر : عبد الرحمن بن عيسى بن الجراح أخا علي بن عيسى المشهور ، ثم محمد بن القاسم الكرخي ، ثم سليمان بن الحسن بن مخلد[1] ، لكنهم جميعاً لم يستطيعوا أن يحلّوا الأزمة المالية وأن يقدموا المطلوب من المال .

محمد بن رائق أمير الأمراء :

خاف الخليفة الراضي على نفسه من الجيش ، ولم يجد وزيراً يستطيع أن يسوّي الحالة المالية ، وفكّر كثيراً . . . فوجد أن الاضطراب واقع من تزاوج السلطان بين الوزراء وبين الجيش ، ثم رأى نفسه مضطراً إلى أن يقبل ما عرضه عليه **محمد بن رائق** : أي أن يسوّي كل شيء إذا منحه سلطة واسعة (الجيش وإمرته ، والضرائب وتجميعها ، والإدارة وتسييرها) بذلك فقط يستطيع أن يحلّ المشاكل وأن يضمن تسيير الأمور . لجأ الخليفة إلى هذا الحل اضطراراً ، فسلم ابن رائق جميع السلطات ، ولقبه **بأمير الأمراء** ، ونقش اسمه على السكة معه ، وذكر اسمه مع الخليفة في خطبة الجمعة : أي أنه أصبح صاحب السلطان بكامله ، وليس للخليفة من شيء ، إلا أنه هو الذي أعطاه السلطان .

اضطراب الدولة في الفترة ٣٢٤ ـ ٣٣٤ هـ

انتهى الخلاف إذاً بين الجيش والوزراء والقواد والخليفة ، حين عجز

(١) كان وزيراً في عهد المقتدر سنة ٣١٨ هـ ـ المنقح .

الجميع عن تسوية الحال ، فاضطروا إلى أن يلجؤوا جميعاً ، إلى حاكم فرد يقوم بالأمر . هذا الحاكم لم يستطع أن يحلّ المشاكل و الأزمة المالية ، لاسيّما وقد خلقت أمامه مشاكل أخرى ، أتت هذه المشاكل من طامعين جُدُد ؛ فقد كان الحَمْدانيون في الموصل يتوقون إلى السلطة في دار الخلافة ، وكان الثوار يهاجمون دار الخلافة من حين لآخر ، فعجز ابن رائق ومن تبعه عن صدّهم في عهد الخليفة الراضي .

ما كان يهمّ الخلفاء[1] من يتسلّمّ إمارة الأمراء[2] ، فلم يبق له من الأمر إلا سلطانه الروحي . عندما تقدم أحمد بن بويه ليدخل بغداد ، وكاتَبَ المستكفي بذلك في السرّ ، فَقبِل منه ، لينتهي من أولئك الطامعين الذين لا يقدرون على شيء . دخل جيش الديلم إلى بغداد ، برئاسة البويهيين ، فاستولوا على مركز أمير الأمراء ، ووضعوا الخليفة تحت وصايتهم : واستولوا على كل شيء في العراق ، اللهم إلا السلطة الروحية التي كان يتمتع بها الخليفة بحكم منصبه .

تقدّم الحضارة العربية الإسلامية

شهد القرن الرابع والقرن الخامس نهضة في أرجاء العالم الإسلامي ، ارتفعت إلى الذروة ، وهي نهضة فكرية وأدبية وفنية ، أعطت الحضارة الإسلامية العربية نضجاً ورفعة وأصالة .

---

(١) الخلفاء في هذه الفترة : الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) ، المتقي (٣٢٩ ـ ٣٣٣هـ) ، المستكفي (٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ) ـ المنقح .

(٢) تسلم إمارة الأمراء بعد محمد بن رائق : بجكم الرائقي ٣٢٦ هـ ، ثم عاد محمد بن رائق للمرة الثانية ٣٢٩هـ ، ثم استولى عليها حسن بن حمدان ٣٣٠ هـ ، ثم توزون ٣٣١ هـ ، ثم محمد بن يحيى بن شيرازد ٣٣٤ هـ ، وكانوا كلهم ضعافاً حتى آل الأمر إلى البويهيين ـ المنقح .

هذه النهضة الحضارية يقابلها من حوادث السياسة ظهور دول تقاسمت ممتلكات الخلافة العباسية وهي : دول بني بويه وبني حَمْدان والفاطميين . وسنعرض أولا تشكّل هذه الدول والدور السياسي الذي لعبته ، ثم نستعرض النهضة التي اتسم بها هذا العصر .

نظرة إلى خريطة الدولة العباسية في أوائل القرن الرابع تشير إلى أربع مناطق حريّة بأن تلعب دورها في هذه النهضة وهي : بلاد إيران ، العراق ، الشام ، مصر . وقد لعبت كل منها دورها ، غير أن العراق انضوى تحت لواء إيران ، وانفصلت الشام إلى قسمين . قسم مستقل في الشمال وقسم في الجنوب التحق بمصر ، ولعب كل قسم دوره في نطاقه الخاص .

ينبغي ألا يؤخذ بعنوان هذا الفصل (تقدم الحضارة العربية الإسلامية) فنظن أن السياسة سارت جنباً إلى جنب مع رقيّ الحضارة . لا ، فالعصر مضطرب في شؤونه السياسية ولعله مضطرب في شؤونه العمرانية ، ولا سيا في العراق . غير أن النهضة العامة للعصر هي نهضة في الحضارة بلغت الأوج ، والحضارة الإسلامية العربية بعد هذا العصر تأخذ في التقهقر شيئاً فشيئاً .

حريّ بنا أن نلفت النظر الآن إلى أن هذه النهضة لم تكن وليدة الحضارة العربية الإسلامية ، تأخذ من منبعها فحسب ، بل نهلت من كل حضارة سابقة ، ثم قامت على سواعد عباقرة ، بذلوا من نفوسهم وعقولهم وأعمالهم ، فوثبوا وثبة خلدها لهم التاريخ .



حكم بني بويه في العراق

(٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ)

الحركات الاستقلالية في إيران :

تقدم معنا وصف الحركات الاستقلالية التي تمّت في خراسان وفي سجستان ، وفي جرجان والديلم ، وذكرنا أن الموفق ـ ولم يكن خليفة ـ استطاع أن يسوّي هذه الحركات الانفصالية ، وأن يوقفها عند حدّ ، لكنّ الخلفاء الذين أتوا بعد ذلك لم يستطيعوا القضاء على الفكرة الانفصالية التي استقرت في أذهان الشعوب ، يشجّعها عجز الخلفاء عن تسيير الأمور في العراق ، بل بلغ هذا الاتجاه حداً وصل به إلى الاستقلال النهائي عن الخلافة .

بلاد الديلم :

نرى بوادر ذلك في بلاد الديلم (طبرستان) ، وبلاد الديلم ، تقع في جنوبي بحر الخزر ، وهي منطقة جبلية يسكنها أقوام يسمّون **بالديالمة** ، لغتهم هي اللغة الفارسية ، وثقافتهم ـ إن كان لهم ثقافة ـ هي الثقافة الفارسية ، إلا أن أصلهم ـ على ما يقول المؤرخون ـ ليس إيرانياً ، ولعلهم مزيج من الإيرانيين والأتراك والشعوب الأخرى . هذا المزيج شعب صلب قوي ، شديد المراس ، معتاد على الحرب والقتال ، شجاع غاية الشجاعة . أما دينهم فهو الوثنية حتى في عهد العباسيين ، وكانت دارهم تعتبر دار

حرب ، وكان العباسيون[1] يرسلون الجيش للجهاد في هذه المنطقة . استطاع الزيديون من آل علي أن يستميلوا الديالمة إلى الإسلام ، وعاملوهم معاملة حسنة ، ونشروا فيهم المذهب الزيدي ، فأقبل الديالمة على التشيع وتركوا الوثنية .

نشوء الدولة الزيارية :

ظهر من الديالمة **مرداويج بن زيار** ، فأسس سنة ٣١٥ هـ **الدولة الزيارية** التي حلّت محل الدولة الزيدية ، وكان مع مرداويج بعض بني بويه فولاهم بعض المناطق التابعة له . وكان منهم **علي بن بويه** حصل على إدارة **الكرج** ، وكان صاحب طموح ، فلم يقتصر على هذه الولاية ، بل مدّ سلطانه إلى أصفهان ، ومدّ أخواه الحسن وأحمد سلطانها إلى كرمان والريّ والأهواز ، وخاف مرداويج من هؤلاء الإخوة الذين أظهروا له الطاعة ، واختفوا وراء سلطانه حيناً من الزمن ، غير أن الأتراك في جيشه قتلوه سنة ٣٢٣ هـ ، وأعطوا الحكم إلى أخيه .

ظهور بني بويه :

استفاد بنو بويه من هذه الفرصة السانحة ، فمدّوا أيديهم هنا وهناك واستولوا على فارس والجبال وهمذان ، وشكّلوا دولة بني بويه .

بنو بويه يدخلون بغداد :

كان قد وصل إلى الخلافة **المستكفي** ، فكاتبه ـ كما ذكرنا ـ **أحمد بن**

---

(١) في عهد الرشيد قويت الاتصالات مع طبرستان حتى إن الرشيد عيّن ولاة متعددين ، ضربوا نقوداً عربية ساسانية ، ووضعوا أسماءهم عليها باللغة العربية ، وقليل منهم وضعوا أسماءهم بالفهلوية (وهي الكتابة الفارسية القديمة) ـ المنقح .

بويه[1] ففتح له أبواب بغداد سنة ٣٣٤ هـ ، ودخل ابن بويه إلى بغداد ، فلقّبه المستكفي (**معزّ الدولة**) ومنح أخاه علياً لقب عماد الدولة ، وأخاه الحسن لقب ركن الدولة .

دولة بني بويه :

انتقل الأمر إذاً إلى بني بويه ، وادّعى هؤلاء أنهم من نسل بهرام جور ، أحد الملوك الساسانيين : وأرادوا أن يعيدوا حكم بني ساسان ، مع أن دعواهم بأنهم ساسانيون غير صحيحة ، وأنهم ليسوا من تلك السلالة : ويقول بعض المؤرخين إن أصلهم ليس إيرانياً ، ومهما يكن من أمر ، فهم يتكلمون لغة إيرانية فارسية ، وهم يمثلون دولة الديلم ، وهي دولة ذات ثقافة إيرانية ومجد إيراني .

البويهيون والخلافة :

وهكذا نصب بنو بويه أنفسهم خلفاء للساسانيين ، وهم من مذهب شيعي زيدي ، وكان حريّاً بهم أن يأتوا بخليفة من الشيعة الزيديّة ، لكنهم رضوا بالخلافة العباسية ، فما هو السبب في ذلك ؟ ـ موقفهم يظهر في هذا متناقضاً .

إنهم كانوا بعيدي النظر ، ويذكر لنا المؤرخون أن أحمد بن بويه استشار أصحابه في تنصيب خليفة من آل علي ، فأشار عليه أصحابه بأن يتجنّب ذلك ، وقالوا : « إنك لو أتيت بواحد منهم لكنت خادماً له ، ولكان هو صاحب الأمر من دونك ، فالديلم شيعته ، وإذا أمرهم بقتلك قتلوك ، وكنت بين يديه كالخاتم ، أما إذا تركت الخليفة العباسي ، فقد

---

(١) وكان مسيطراً على ولاية فارس والأهواز جنوباً ـ المنقح .

ضمنت لنفسك رجلاً تسيّره كما تشاء ، تخلعه حين تريد ، وتحضر غيره متى شئت ، فالديالمة جندك وأصحابك ، لا يدينون له بالطاعة باسم المذهب وباسم البيعة التي له في أعناقكم » . وعلى هذا النحو ابتعد أحمد بن بويه عن تنصيب خليفة من آل علي .

إبقاء الخلافة في العباسيين

هذا ما يذكره المؤرخون ، والحجة التي قدمها أصحاب أحمد صريحة ، واضحة ، لكنا ينبغي علينا أن نزيد عليها شيئاً آخر : وهو أن أهل العراق كانوا قد قبلوا بالخلافة العباسية ، واعتادوا عليها ، وأصبحت قطعة من حياتهم ، وللخلفاء العباسيين قوة بالسنّية المنتشرة في العراق . إن رَفْع هذا المنصب من السنيّة وتَنْصيب خليفة شيعي ، لا يمكن أن يلقى رضاء العراقيين ، بل لعله كان يسيء إلى حكم بني بويه كل الإساءة ، فثورات الشعب ستقوم ، لذا لجأ ابن بويه إلى ما فيه عافيته وفيه مصلحته ، فأقرّ الحكم العباسي .

هذا ويجب التنبه إلى أمر له أهمّيته ، ولو أن المؤرخين لم يشيروا إليه ، وهو أن الشيعة في العراق الذين قد يسعى بنو بويه إلى إرضائهم ، كانوا شيعة إمامية لا زيديّة ؛ وهذا يعني أن بني بويه لا يكسبون مكسباً كبيراً إذا أتوا بإمام زيدي ، إذ يكاد أن يكون الأمر واحداً عند شيعة العراق عندما يكون الخليفة عباسياً أو زيدياً .

صفة الحكم عند بني بويه :

ما هي صفة حكم بني بويه ؟ وكيف تكونت هذه الصفة ؟ وما هي العوامل التي أحاطت بها ؟ إن صفة هذا الحكم أتت من وضع الدولة البويهية نفسها ومن وضع العراق معها فما هو ذلك الوضع ؟

أولاً : إن الدولة البويهية اجتاحت الحكم العباسي ، **فوقع عليها** عبء الدولة الإسلامية ، وكان الحمل ثقيلاً عليها ، لأن الدولة العباسية دولة واسعة كبيرة الرقعة ، عظيمة الأهمية .

ثانياً : إن هذا الاجتياح من الدولة البويهية للعراق لم يسبقه نوع من التمرن على الحكم وممارسته في دولة واسعة كالدولة العباسية . ففي سنة (٣٢٠) هـ عُيّن **علي بن بويه** عاملاً على الكرج من قبل مرداويج الزياري ، وفي سنة ٣٣٤ هـ أصبح أخوه **أحمد** الحاكم بأمره في العراق والدولة العباسية ، وليس بين التاريخين زمن كبير للتدرّب والممارسة .

ثالثاً : لم يكن في بني بويه رأس متنفّذ واحد يقود الدولة جميعاً ، بل كانوا ثلاثة إخوة ، لكل منهم شطر من المملكة ، فعاصمة أحدهم **شيراز** ، والآخر **بغداد** ، والثالث **الريّ** . وقد كانوا أول الأمر متفاهمين فيما بينهم ، إلا أن ذريتهم اختلفت وتقاتلت كما سنرى .

رابعاً : إن الجيش الذي يعتمدون عليه ليس مؤلفاً من عصبية واحدة يستندون إليها ، بل هو مكوّن من طائفتين ، **المشاة الديالمة** ، وهم مجهّزون باللباس الحسن والدروع الباهية ، **والفرسان الأتراك** ومنظرهم على خيولهم جميل بأسلحتهم وسروجهم . الفريقان مختلفان في الطبع ومختلفان في الرأي .

خامساً : إن هذين الفريقين مختلفان أيضاً في المذهب ، **فالديالمة زيديون والأتراك سنيّون** ، ولهذا الاختلاف أثره الكبير .

سادساً : إن ماورثه البويهيون في العراق كان تراثاً صعباً جداً ، رأينا مراحل الاضطراب فيه ، فالمال والحكم والأنظمة قد آلت إلى درجة مضطربة

مشتبكة ، وأصبحت الدولة متناهية في الضعف . فلم يجد البويهيون إذاً أنظمة صالحة ولا وزارة منظمة ولا عهداً متسقاً . أما هم فليس لديهم الخبرة السابقة في تنظيم الدولة ، فاضطرب الحال .

☆ ☆ ☆

إن ما ذكرناه يدلّ على أن عناصر الإخفاق كثيرة أمام هذه الدولة ، فهل استطاع البويهيون أن يتغلبوا على المصاعب ، وأن يمكنوا لأنفسهم حكماً مستمراً صالحاً ؟ ـ إن ما فعلوه لا يدل على ذلك ، بالرغم من أن أحدهم **عضد الدولة** حاول الكثير في هذا الشأن .

لننظر إذاً كيف سارت شؤون الدولة ، وما هي أوضاع الخليفة والجيش وأجهزة الدولة :

١ ـ وضع الخلفاء :

إن البويهيين بعدما أقروا العباسيين في الخلافة جرّدوهم من كل سلطان ، فقد منعوا عن الخليفة وارده ، واستلموه لأنفسهم ، وخصّصوا له وارداً محدداً ، مقداره خمسة آلاف درهم في اليوم . كان ذلك في عهد المستكفي ، ثم أنقصوا المرتّب فخصصوا ألفي درهم للمطيع كل يوم ، وبعد المطيع جعلوا المبلغ سنوياً دفعة واحدة ، وهو مائتا ألف دينار ، ولكن مع ذلك إذا كانوا بحاجة إلى المال ، يطلبونه من الخليفة ويحصلون عليه : طلب بختيار من الخليفة مالاً للجهاد ، فباع هذا جواهره لتأدية ذلك المال .

كان الخليفة لايستطيع أن يعيّن كتّابه ووزراءه ، وإنما كان يعينهم

الملك البويهي بنفسه . كان الملك البويهي يقرن اسمه على السكة (النقد) باسم الخليفة ، ويضع على السكة ألقابه وكنيته كما يضع الخليفة لقبه وكنيته ، بل كان لا يترك الملك البويهي للخليفة أن يتميّز عنه بشيء . كان من أعراف الخلافة أن يقرع الطبل للخليفة خمس مرات في اليوم ، مرة قبل كل صلاة . قلّد البويهيون الخليفة ، وقرعوا الطبل لأنفسهم ثلاث مرات في اليوم أولا ، ثم جعلوها خمساً كاملة بعد ذلك .

لم يبق للخليفة من شيء إلا المظهر الخارجي ، فهو الذي يقلد الملك البويهي سلطانه ويعطيه العهد ، لكنه ليس هو الذي يحرّر العهد ويضع شكله ، بل يكتبه البويهي ويوقّعه الخليفة . يمنح الخليفة الملك البويهي الألقاب ، لكن الذي يضع الألقاب هو هذا الملك بالذات ، وإذا لم يوافق الخليفة على ألقابه ، استعملها دون أمر الخليفة . وكان كل ما على الملك البويهي أن يفعله نحو الخليفة هو أن يتظاهر باحترامه له . كان هذا لا بدّ منه أمام الشعب الذي اعتاد على احترام الخلافة العباسية . أراد البويهيون أن يسايروا الشعب فاحترموا الخليفة ظاهرياً ، واستمرت الرسوم التقليدية قائمة في الولاية والعهد ، وظلّ البويهي يسجد أمام الخليفة مرات ، وقد يبالغ في ذلك ؛ الأمر الذي يدعو إلى سخرية من يعرفون الحقائق .

أما إذا أرادوا أن يزيحوا خليفة عن عرشه فهم يأمرون ديالمتهم أن يأخذوه من يده ويسحبوه ـ كما فعلوا مع المستكفي .

تركوا للخليفة شيئاً ما كان باستطاعتهم أن ينالوه من الخليفة ، ذلك هو الخطط الدينية : فالخليفة هو الذي كان يعيّن القضاة والمفتين ، وهو الذي يعيّن الأئمة والخطباء ، ولا ريب أنه ما كان لملك شيعي أن يتدخل في شأن هؤلاء باعتبار أن أكثرهم من أهل السنة ، حتى لو أنه أراد أن

يتدخل يخالفه الخليفة ولا يرضى بما قام به . إذا أراد الملك أن يصرّ ، عندئذ يثور عليه الناس ، ويتحرج الموقف .

٢ ـ وضع الجيش :

من عوامل الاضطراب في الحكم البويهي وجود جيش مؤلف من الديلم والأتراك ، تميل الكفّة يوماً إلى هؤلاء ، ويوماً آخر إلى هؤلاء ، فيختلف الطرفان ويتشاحنان ، وتقوم الوقيعة بينهما ، فيضطرب الحال أكثر مما كان عليه ، قرّب معز الدولة الأتراك أولاً ، ولعله فعل ذلك إرضاءً للسنيين في بغداد ، فالأتراك سنّيون مثلهم ؛ ولعله فعل ذلك أيضاً لأن الأتراك مطيعون أكثر من الديالمة ، فالديالمة شديدون ، جُفاة ، لم يعتادوا على الطاعة ؛ أما الأتراك فإنّ من يحكمهم في أول الأمر يلقى منهم طاعة واستكانة . غضب الديالمة لأن الملك أبعدهم عنه ، ولأنه أغدق على أتراكه قطائع وأموالاً ، فثار **روزبهان الديلمي** في الأهواز ، ومال الديالمة عن معز الدولة إلى روزبهان . ولما قضى معز الدولة على ثورته ، زادت الوحشة بينه وبين الديلم ، فأبعدهم عنه أكثر فأكثر . ثم أتى **بختيار بن معز الدولة** فوجد الأتراك على ثراء فاحش يتسلّطون على إقطاعات كبيرة . وكان بختيار في حاجة إلى الأموال ، فوضع يده على أموال رئيسهم سُبُكتكين ، وقرّب إليه الديلم ليأمن جانب الأتراك ، فوقعت الوقيعة بينه وبينهم على ما رأينا ، حتى أسعفه عضد الدولة فأقرّ أمره .

٣ ـ القطائع وتنظيم الدولة :

إن دولة بني بويه لم يكن لها مران في أمور الحكم كما ينبغي لها أن تكون ، وقد ذكرنا أنها لم تمارس الحكم كدولة كبيرة ، بل مارسته في حكومة صغيرة ، وفي بقعة محدودة ، ها هي ذي قد ورثت الحكم العباسي ،

ذلك الحكم الثقيل الواسع الذي ترك تراثا ضخماً تنوء بحمله أحسن الدول تنظيما . أخفقت دولة بني بويه بصفة خاصة في الشؤون المالية ، وكانت تلك الشؤون أثقل حمل ورثته دولة بني بويه عن العباسيين . وقد رأينا أن الإفلاس كان يهدد الدولة العباسية من حين إلى آخر ، وأن الخزينة كانت تفرغ من المال ، فلا يجد الخلفاء وسيلة إلى تأدية رواتب الجند ، هذا الأمر هو الذي واجه دولة بني بويه ، فرزحت تحته وناءت به . هذا وإن دولة بني بويه ورثت نظام الإقطاع عن العباسيين ، وورثت عنهم فكرة تقوية الجند بالإقطاع والمال ، فكان على البويهيين أن يرضوا جندهم من الديلم والترك ، وكيف يرضون هذا الجند ؟ أطلق معز الدولة لهم أراضي الدولة في العراق وكأنها أراضيه بالذات ، أعطاهم تلك الأراضي يتصرفون بها كما يشاؤون . أراد بعض الأفراد من أصحاب المتلكات أن يقووا بقوة الجند ليتخلصوا من الضرائب ، فلجؤوا إلى الديالمة والأتراك يحتمون بهم ، وانتهى الأمر بهؤلاء إلى أن وضعوا أيديهم على المتلكات ، وأسلموها إلى غيرهم .

أما تنظيم الضرائب فقد كان تنظيما لايمكن أن يعطي الدولة دخلاً كافياً : فالجندي الذي امتلك الأرض ، كان يقدم **الضمان** الذي تعهد به للدولة إذا كان إنتاج الأرض كبيراً ، أو كانت صالحة للزراعة والإنتاج ، أما إذا كانت الأرض ضعيفة بعض الضعف ، فقد كان يردّها إلى بيت المال ، ويطلب استبدال أرض أخرى بها بعد أن زاد في ضعفها وخرابها . على هذا كانت القطائع تنتقل بين الأيدي ، ولا تقف في يد إلا إذا كانت تؤتي الكثير دون جهد كبير . هذا وقد أصبح الجندي مشغولاً في زرع الأرض ، ولكن مع ذلك فإنه لا يستطيع الاهتمام بها . وعلى هذا النحو ضعف محصول الأرض .

حدث ما يسمى **بالحطائط** ، وهي أن تنقص قيمة الضريبة على أرض يدّعون أنها لم تؤت أُكُلها ، كان الملك البويهي يتساهل في هذا ، لأنه يميل إلى إرضاء جنده ، ثم لا يستطيع مراقبو الضرائب وموظفو الريّ أن يراقبوا الأعمال في الأراضي ، فهم يخشون من هؤلاء الجند الخشنين ، فيستبدّ هؤلاء بالماء والأقنية والسدود ، ويستعملونها حسب رغباتهم ، دون عناية ، فتخرب ، ويتدنى حال الزراعة في المنطقة ، ويزداد الطين بلّة ، حينما تنقص غلة الفلاح بازدياد الضرائب ، فهذه الضرائب إنما تقع على الفلاح وعلى أصحاب الممتلكات من غير ذوي النفوذ . النتيجة أن الفلاح يشكو ويئن من الظلم ، وليس من يرحم .

محاولة الإصلاح :

هذا هو الوضع في عهد معز الدولة ، ولقد أشار **علي بن عيسى الجراح** عليه بإصلاح الحال ، فسار مدة على ما أشار به عليه ، **وهو سدّ البثوق** ، يعني رمّ المجاري التي كانت معطلة وسدّ الثغرات التي تهرّب الماء ، ففتحها وأصلحها وعمل سدوداً وطرقاً للريّ . قام معز الدولة بهذا الأمر ، لكن الحاجة إلى المال اضطرته إلى أن يترك هذا الإصلاح وإلى أن يعطي جنده بدلاً من الأموال قطائع ، فاضطرب الحال على ما ذكرنا سابقاً ، ثم جاء **بختيار بن معز الدولة** بعده ، فبالغ في توزيع القطائع ، وطلب من الوزراء أن يقدموا الأموال ، ولما عجزوا عن ذلك ، صار يصادرهم ، فساءت الحال أكثر من ذي قبل ، حتى إذا أتى **عضد الدولة** ، استطاع أن يفعل شيئاً عظيماً . تعرّض عضد الدولة للإصلاح بهمة عظيمة ، لم تأخذه في ذلك لومة لائم ، لم يهتم بالجند ولم يهتم بالوزراء . أقبل على الإصلاح بكل نفسه . كان الإصلاح خطوطه واضحة بيّنة . **أولها** ـ إصلاح وسائل الريّ ،

وثانيها - رفع الظلم عن الشعب ، **وثالثها** - العمران والبناء . وهذا ما عمد إليه عضد الدولة ، فقد فتح مجاري المياه في بغداد وكانت بمعظمها مسدودة ، وأقام المسنيّات (آلات لتوجيه الماء) ، وفتح أقنية جديدة ، فسال الماء يروي الأرض . لكي يمنع الناس من الاستبداد بالأقنية والمياه ، ووضع عليها الحراس ، بحيث لايعتدي أحد على حق غيره ، ثم اهتمّ بإقامة العدل بين الناس والفلاحين ، فأبطل الضرائب المزيدة على الفلاحين ، ورفع الظلامات ، وأجاب شكوى المشتكين ، ولم يراع بذلك الجند ، بل طلب منهم تأدية ما عليهم . ثم إنه نظر في حال المزارعين ، فوجد أنهم لا يستطيعون تأدية الضرائب في المواعيد المحدّدة ، لأن المحصول كان يأتي بعد تلك المواعيد ، فأخّرها إلى ميعاد سماه (**النيروز العضدي**) وهو يأتي في وقت يكون محصول الأرض فيه قد ظهر وبان .

أقام مع كل ذلك العمارات ، واهتمّ بما فيه فائدة الشعب وصحته ، فأقام في بغداد **البيمارستان العضدي** ، وأقام قصوراً له ، منها قصر في شيراز فيه ثلاثمئة غرفة ، وهو قصر عظيم ، وفيه خزائن كتب هائلة مفتوحة للعلماء .

إن حكم عضد الدولة لم يستمر طويلاً ، وما أن توفي حتى عادت الفوضى ، وعاد الإقطاع ، ووجد الجند متنفّساً بوفاته ، فعادوا إلى الجور وإلى الحصول على الأراضي ، واستفادوا من السدود التي أقيمت والقنوات التي فتحت ، فكسبوا المال لأنفسهم ، وعاد نفوذهم ، وعاد مع ذلك النفوذ ظلم الرعية ، وتدنّت الحالة الاقتصادية بعد ذلك ، حتى قال المقدسي حين زار بغداد أول عام ٣٧٥ هـ : « إنها تكاد تكون خراباً من الظلم فيها والاستبداد ، واهتمام القواد بالكسب ، والكتّاب بأخذ الأموال ، والشعب يئن وإذا كان الشعب غير مطمئن ، فلا مجال للعمران أو التقدم » .

٤ ـ وضع الشعب وظهور الفتوة :

في هذا الوضع السيّئ ، كان الشعب في بغداد والعراق عامة يبحث عن الخلاص ، لكنه لا يجد سبيلاً إليه ، فالخليفة غير قادر ، والحكام أشدّاء ، والجند شرس ، حتى إذا اجتمع الشعب ضد الجند ، ووقع الخصام بين الطرفين ، تغلب الجند على الشعب ، وزاد في اضطهاده وظلمه . وقعت واقعة سنة ٤١٧ هـ ، تألم فيها الشعب ، لكنه باء بالخسران حينما حاول أن يقاوم الجند ، وبحث الشعب عن مخرج من هذا الأمر ، فلم يجد الأقوياء منه إلا أن ينتموا إلى **حركة العيّارين** ، وهم فئة من الناس أصحاب حيلة ، وأصحاب فنّ ومقدرة ، يسعون عن طريق اللصوصية للوصول إلى المال ، لكنهم عبّدوا هذا الطريق بشكل يجعلون منه نظاماً شريفاً . نظامهم أمسى يشبه **نظام الفتوة** الذي امتدّ وقوي في عهد الخليفة الناصر ، والفتوة من المروءة كما تعلمون ، والعيّارون أخذوا **بمبدأ المروءة** . فالعيّار على حدّ تعبيرهم هو الفتى الذي لا يزني ولا يكذب ، ويحفظ الحريم ، **ولا يهتك ستر امرأة** ، وهو إن أحلّ السرقة فلا يسرق إلا المثرين ؛ وإذا قطع الطريق وعرض له رجل فقير ، فهو يتركه يسير بسلام ؛ وإذا قطع الطريق وعرض له رجل متوسط في الغنى لا يزيد ماله على الألف دينار ، قاسمه المال شطراً بشطر ؛ وإذا لجأ أحدهم إليه أجاره وحماه . فحركة العيّارين حركة منصبّة على أولئك الأغنياء الذين أثروا ثراء فاحشاً عن طريق غير طريق الحق . أما الشعب الذي يئن من الظلم ومن الضعف ، فلا يتعرض له العيّارون بل قد يساعدونه بالمال ، ولا تقتصر فئة العيّارين على طبقة الشعب العادي ، **بل دخل فيها من الأمراء العباسيين** أنفسهم ، ومن الأشراف من آل علي ، فهي إذاً **حركة اجتماعية** أكثر منها

حركة قطع للطرقات وسلب ونهب . اشتدت هذه الحركة اشتداداً كبيراً ، حتى أمست بغداد في قبضة العيارين ، يحمونها ويجمعون الضرائب (الأتاوات) المفروضة على الخمارات ومراكز اللهو ؛ يحمون هذه المراكز ، ويضعون عليها الضرائب . هذا هو **البرجمي** كبير العيارين يأخذ بيده السلطان في بغداد أربع سنوات (٤٢١ ـ ٤٢٥) فهو السيد ، وهو الذي يجمع في يديه الأمر . حركة العيارين منظمة ، فعندهم ترتيب في الترقي والألقاب ، من مقدم إلى قائد إلى أمير ، وعندهم طرائق خاصة في الدعوة .

٥ ـ ملوك بني بويه وحوادثهم الكبرى :

إن البويهيين اختلفوا فيما بينهم بعد قليل من حكمهم تلك المملكة الواسعة ، وقد ذكرنا أن لكل منهم عاصمة كان يقوم فيها ، واستمر هذا الأمر بين الأخوة الثلاثة ، إلا أن أحدهم وهو **عماد الدولة** ، توفي بعد أن أوصى بملكه لابن أخيه **عضد الدولة** بن ركن الدولة ، ثم لما توفي **معز الدولة** انتقل الأمر إلى بختيار ، لكن بختيار تعرّض لصعوبات في عهده ، فقد كان سيئ الإدارة والفكر ، طمع في الأتراك ، وفي ثروتهم ، فوضع يده على قطائع **سبكتكين** ، فثار هذا عليه ، واستطاع أن يخرجه من بغداد ، فاستنجد بابن عمه **عضد الدولة** . سار هذا إلى بغداد ففتحها وأراد أن يستقل بالأمر دون بختيار ، لكن والده منعه من ذلك حفظاً للعهد إلى إخوته . لكن والده **ركن الدولة** توفي بعد ذلك ، فما إن توفّي حتى سارع عضد الدولة إلى بغداد ، فأخذها من يد بختيار ، ثم إنه سلخ عن أخيه **فخر الدولة وأخيه مؤيد الدولة** أملاكهما ، وجمع الدولة بكاملها في يديه .

وكان عضد الدولة خير ملك في بني بويه ، فقد أصلح الدولة ، وحسّن أمورها وقيادتها ، وعَظُم سلطانه ؛ إلا أنه لم يستمر كثيراً في الحكم ؛ ترك

الأمر من بعده لابنه **بهاء الدولة** . استمر بهاء الدولة مدة طويلة في الحكم ، إلا أن حكمه كان مضطرباً ، وقد عاد **فخر الدولة** بعد وفاة عمّه ، فاستولى على ملكه الأصيل ، وانتقل هذا الملك إلى ابن له ، عمره تسع سنوات ، فقامت بالأمر وصاية عنه والدته **السيدة** وبعد وفاتها آل الأمر إلى ابنها هذا ، فاستنجد بالسلطان **محمود الغزنوي** ، فأنجده ، لكنه استولى على ملكه . أما **بهاء الدولة** بن عضد الدولة فقد نقل حكمه إلى أبنائه فتنازعوا عليه ، إلى أن تقدّم **طغرل بك السلجوقي** واستولى على العراق سنة ٤٤٧ هـ ، فزال حكم بني بويه .

لعلنا صوّرنا عصر بني بويه مع شيء من المبالغة لتتضح الصورة . وعلينا أن نقول إن بلاد فارس كانت على حال أحسن من العراق ؛ ومهما يكن من أمر ، فوسائل الحضارة في العصر البويهي لم تكن قليلة ، والنهضة التي أحدثها عضد الدولة ـ ولو أن مدة حكمه قصيرة ـ خلّفت أثراً كبيراً ، فنشط العلم ، ونشطت الفلسفة ، ونشط البحث الديني ، فازدهرت الحضارة إلا أن الأحوال الاقتصادية والسياسية والمالية السيئة كان لها بعض الأثر على نمّو الحضارة وتقدّمها . ويمكن أن نقول إن هذه الحضارة قامت بتأثير أفكار عباقرة قدموا مجهودهم للمجتمع الذي كانوا يعيشون فيه ، وكان للحكام أثر كبير في تشجيعهم ورعايتهم



الحمدانيون
٣١٧ - ٣٩٩ هـ

• زال حكم العصبية العربيـة بزوال بني أميـة ، وأتى العبـاسيـون بحكم لا عربي ولا فارسي هو حكم العباسيين خاصة دون عصبية إلا عصبيتهم[1] ؛ إلا أن العرب في الشام ومصر ما زالوا يثورون ويضطربون ، ويريـدون أن يعود الأمر إليهم ، فيقفـون إلى جـانب الخلفـاء الـذين يـأخـذون بـالنزعة العربية ، كالأمين والمتوكل . أمـا بنو العبـاس ، فقـد حـاربوا كل الثورات ، ومنها ثورات العرب . ولنذكر أن جعفراً البرمكي أخضع الفتنـة التي حصلت في الشـام ، وأن طـاهر بن الحسين أخضـع فتنـات أخرى في الشـام ومصر . لكنّ العرب ما فتئوا يبحثون عن متنفّس لهم ، لا سيّما أولئـك الـذين كانوا منهم في حال فقر شديد ، ووجد هؤلاء متنفّسهم مع القرامطة ، فحاربوا إلى جـانبهم ، إلا أنهم كسروا في حربهم هـذه ، وقضي على حركـة القرامطـة في الشـام ، كما قضي عليهـا في العراق . ولا يـذرّ القرن الرابع حتى تشيع يقظـة عربية كبيرة في قبـائل العرب ، ويحمل لواء هـذه اليقظـة بنو تغلب . وبنو تغلب رجال أشـداء أقويـاء كثيرو العـدد ، ذوو أثر في العصر الجـاهلي ، بل لقد قـال عنهم التبريزي : « إنـه لو لم يظهر الإسلام لكان بنو تغلب التهموا كل العرب » . وبنـو تغلب ينتمـون إلى آل ربيعـة ، وكانـوا نصـارى قبـل الإسلام ، وبقوا على دينهم في أوائل الإسلام ، غير أنّا نجـدهم في أواخر القرن

(١) كنا أشرنا إلى هذه النقطة ، وذكرنا أن العباسيين ما أرادوا أن يستندوا إلى عصبيـة معينـة ، واعتبروا الرعيـة كلهـا عصبيتهم ؛ إلا أنهم في الواقع كأسرة كبيرة يشكّلون عصبيـة صغيرة ، ضعفت مع الأيـام ؛ لـذا تـأرجح حكمهم بين أصحاب القوى ـ المنقح .

الثالث للهجرة مسلمين ، ونجد منهم **الحسن بن عمر بن الخطاب** ، وقد أسس الجزيرة المنسوبة إليه (جزيرة ابن عمر) في عام ٢٥٠ هـ ؛ على أن الحالة المادية كانت سيئة ، واضطر قسم كبير من بني تغلب إلى الهجرة فهاجروا إلى البحرين ، وبقي قسم منهم في الجزيرة وفي شمالي العراق . هذا القسم هو الذي قاد لواء اليقظة الفكرية والسياسية في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع ، والذي ترأس هذه اليقظة هم بنو حَمْدان من تغلب ، وكان **حَمْدان** حليفاً لأحد الخوارج واسمه **هارون** ، ثم استولى حمدان على مدينة **ماردين** ، فذهب إليه الخليفة **المعتضد** ودخل بلده ، وكان حمدان قد هرب منها ، ووقف **الحسين** أحد أولاده إلى جانب الخليفة ، وحارب **هارون الخارجي** وأخضعه ، فاستسلم له ، فعفا الخليفة عن حمدان ووزع الأعمال عليه وعلى أولاده ، وأقام قسم من أولاد حمدان في بغداد ، فاشتركوا في الحوادث التي كانت تحدث فيها وانتموا إلى المؤامرة التي نصبت ابن المعتز خليفة ، فقهروا مع من قهر في هذه المؤامرة . ثم عفا عنهم **المقتدر** وعيّن **أبا الهيجاء بن حمدان** على المَوْصل ، فبقي في الموصل ، وخلفه فيها ابنه الحسن واستولى على ديار بكر ومصر والجزيرة كلها ، ثم إن الخليفة **المتقي** هرب من **البريدي** وقد استولى على بغداد ، فالتجأ إلى الحسن هذا مع أمير الأمراء ابن رائق ، وأخذ مكانه في إمارة الأمراء ، ولقبه الخليفة (ناصر الدولة) ، ولقب أخاه علياً (سيف الدولة) ، وسار الحمدانيون بالخليفة إلى بغداد ، فاستولوا عليها من البَرَيْدي ، لكنهم لم يبقوا فيها أمداً طويلاً ، فإن **توزون** أخرجهم منها ، لكن الموصل والجزيرة بقيتا في أيديهم . ولما أتى البويهيون إلى العراق ناوشوهم ، فوجدوا أنهم غير قادرين عليهم ، فاستسلموا لهم ودخلوا في حكمهم ، وكانوا يؤدون لهم جزية سنويّة وهم في الموصل .

سيف الدولة :

نبغ من الحمدانيين رجل عظيم هو **سيف الدولة** ، وكان صاحب فكر نيّر ، فوجد بعد البحث أن مقامه بالموصل والجزيرة غير مُجْدٍ له ، ووجد أن **الإخشيديين** ، وكانوا مستولين على مصر والشام ضعفاء في الشام ، فاتجه إلى ناحية الضعف هذه ، واستطاع أن يستولي على حلب وذلك عام ٣٣٣ هـ ؛ فأرسل الإخشيد **كافوراً** ليحاربه ، فوقع القتال بينهما ، لكن **الإخشيد** توفي في أثناء ذلك فعاد كافور إلى مصر ، وقصد سيف الدولة مصر ليحصل عليها ، إلا أن المصريين خرجوا إليه ، والتقوا به في الأردن ، فهزموه وعقد الصلح بين الطرفين على تراض ، وهو أن يأخذ سيف الدولة شمالي سورية ، والإخشيديون جنوبيها اعتباراً من دمشق . يذكر بهذه المناسبة أن سيف الدولة أراد عندما دخل دمشق أن يوزع الغوطة بين قواده ، فعرف ذلك أهل دمشق ، فوقفوا في سبيله وطلبوا النجدة من المصريين ، ولعلهم كانوا سبباً في إنقاذ دمشق من حكم الحمدانيين .

سورية مهددة من قبل الروم :

هذه هي الحوادث التي جرت في تأسيس دولة بني حمدان ، ونرى فيها أن الحمدانيين استطاعوا أن يكوّنوا فرعين : فرعاً في الموصل وما يلحقها ، وفرعاً في حلب وشماليها وجنوبيها ، الفرع الأول خاضع لحكم بني بويه ، أما الثاني فمستقل له قوته وشأنه . هذا الفرع الثاني هو دولة الحمدانيين في حلب ، هو الذي لعب دوراً هاماً في تاريخ تلك الحقبة ، ذلك أن حلب كانت مهدّدة من جهة الروم ، فقد حدثٍ أن ظهرت نهضة في بلاد الروم ، وتيقظ الشعب هناك ، وتشكلت **دولة المقدونيين** ، وهي دولة قوية ، سارت على خُطا الدولة اليونانية القديمة ، وأرادت أن تبعث مجدها ،

واستمدت هذه الدولة عناصر سلافية ، كانت قد نشأت في جهات الشمال منها ، وهي قبائل بربرية بالأصل ، إلا أنها أخذت في هذا العصر تتحضّر ولكن مع قوة سلاح ومراس في الحروب . مدّت الدولة المقدونية يدها إلى بلاد الإسلام ، وكأنها كانت تبغي أن تستولي على القدس .

وجد الحمدانيون في حلب أنفسهم أمام هذه الدولة ، وهي تريد التوسع في بلادهم ، تصدّى سيف الدولة لحرب الروم ، وحاربهم محاربة شديدة ، وكان كفؤاً لهم في حربه ، لكن أولاده غلبوا أمامهم . وإليكم خلاصة ذلك فيما يلي : تقدم سيف الدولة في بلاد الروم سنة ٣٣٩ هـ ، ليقضي على طمعهم ، وليريهم قوته ، حتى بلغ قيسارية ووصل إلى أواسط آسيا الصغرى ، فاستولى منهم على غنائم كبيرة ، وأظهر هيبته فيهم ، لكنه فوجئ[1] بهم وهو عائد إلى حلب ، فانقضّوا عليه على حين غرّة ، واستولوا على الغنائم التي كانت بين يديه ، واستطاع بشقّ الأنفس أن ينقذ نفسه وأتباعه ؛ ثم أدرك هو والروم أن أحد الطرفين لا يستطيع التغلب على الآخر ، فكوّنوا بينهم حدوداً محصّنة قوية ، ووزعت الجنود في هذه الحدود ، وأقطعت الأراضي على أولئك الجنود ، لكن الحرب كانت تحدث كل سنة تقريباً بين الطرفين .

كانت أهم الحروب وقعت بين المسلمين والروم بقيادة الدُّمُستق (دومستيك) هجم الروم على بلاد الشام ، وقد كوّنوا جيشاً كبيراً من الروس والبلغار والخزر ، فتصدى له سيف الدولة وهزمه في معركة كبيرة

---

(١) تكرر مثل هذه الحادثة سنة ٣٤٩ هـ ،وكانت الغزوات العربية قبلها من سنة ٣٣٩ ـ ٣٤٩ هـ أكثرها موفقة ، مع أن الروم كانوا يغيرون بين حين وآخر ثم ينسحبون ، وينتقم المسلمون منهم . إلا أن هذه النكسة التي وقعت في المسلمين سنة ٣٤٩ هـ لمخالفة سيف الدولة رأي مستشاريه أطمعت الروم بالمسلمين ، حتى أنهم استولوا على عين زربة سنة ٣٥١ هـ وعلى خمسين حصناً ؛ ثم شنعوا بالأسرى المسلمين تشنيعاً فظيعاً ـ المنقح .

وأسر قسطنطين ابن الدمستق وأحضره إلى حلب ، فمات في حلب وأخرج له جنازة كبيرة .

تهيأ الروم خلال أمد طويل لحرب كبيرة في الشام ، فجمع **نقفور**[1] ملكهم نحواً من مئتي ألف مقاتل ، وسار بهم إلى سيف الدولة وغافله ، فوصل إلى أبواب حلب ، ولم يصمد له سيف الدولة ، وأحاط نقفور بحلب ، ووقع الاختلاف بين أهلها والشرطة ، فاغتنم نقفور هذا الاختلاف ، ودخل حلب فقتل فيها عشرة آلاف إنسان ، وخرّب قصر سيف الدولة المسمى **بالدارين** وهو خارج حلب .

استمرت الحرب بين سيف الدولة وبين الروم ، تسعر تارة ، وتهدأ تارة ، ويتغلب سيف الدولة مرة ، ويتغلب الروم مرة أخرى ؛ وسار سيف الدولة في هذه الحرب سيرته ، حتى إذا أصابه فالج لم يهتم به ، بل استمر على محاربة الروم . لم يمهله الزمن كثيراً ، بل توفاه الله بعد ذلك عام ٣٥٦ هـ ، فأوصى بأن يجمع الغبار الذي علق بدرعه وثيابه في أثناء حروبه مع الروم ، فيعمل من ذلك لبنة يوضع رأسه عليها في قبره حين يدفن ، ونفّذت وصيته .

سيف الدولة يمثّل لنا إذاً بطلاً عربياً رهن نفسه وجسمه للجهاد ، يحارب الروم بقوة وعزم ، مع أن الروم كانوا أقوياء في عصره غاية القوة ، ويمثل لنا عهده أيضاً نهضة فكرية ، قلّ مثيلها ، شملت نواحي مختلفة من العلم والأدب والفن والعمران .

سيرة سيف الدولة مع **أبي الطيب المتنبي** معروفة ، وكذلك مع **أبي**

---

(١) ابن الأثير ٨ / ١٧٨ يذكر أن مهاجم حلب هو الدمستق لا القيصر نفسه ، وكان ذلك سنة ٣٥١ هـ بعد فاجعة عين زربة ، وهو نقفور الثاني (الملقب بالنقّاش) ـ المنقح .

فراس الحمداني ، تحدثنا كتب الأدب عن مجالسه التي كان يقع فيها المناظرات ، ولا سيا بين **ابن خالويه اللغوي** وأبي الطيب المتنبي . شجع سيف الدولة الكتّاب والمؤلفين غاية التشجيع ، فأعطى **أبا الفرج الأصفهاني** ألف دينار لتأليفه كتاب الأغاني ، وأقام عنده **الفارابي** فخصص له جراية معينة ، بل إن سيف الدولة كان طباخه شاعراً وهو **كُشاجم** ، وكان له خطيب مصقع هو **ابن نُباتة** ، وكان ابن نباتة يحرّض الجيش على قتال الروم بخطبه العظيمة . أصبحت حلب في عهد سيف الدولة مركزاً مهمّاً للثقافة والحضارة ، وبنى فيها سيف الدولة مقرّاً له أسماه **الدارين** ، وأقام في حلب داراً للعلم ، جمع فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد ، وسَبَّلَها للعلماء . فازدهرت حلب بالرغم من الحروب الكثيرة ، ومن النكبات التي كانت تأتيها من تلك الحروب .

سعد الدولة وعلاقة الروم بالحمدانيين والفاطميين :

أما سعد الدولة ابنه فقد استولى على الحكم بعده ، وكان له قائد اسمه **فرغويه** ، فأخذ له البيعة في حلب ، واستقر فرغويه في حلب ، ثم لمع فيها ، وأراد أن يكون صاحب الأمر ، وما كان باستطاعته أن يحارب سعد الدولة ، وأن يقف أمامه دون عون ، فأرسل إلى الروم وطلب عونهم ، وصالحهم على جزية سنوية يؤديها لهم . ولما هجم سعد الدولة على حلب لاستخلاصها من بين يديه ، أتاه الروم ، ودفعوه عن حلب ، ثم إن سعد الدولة جمع أمره ، وقوّى نفسه ، وهجم على حلب فاستولى عليها ، فسار إليه الروم ، ووجد أنه لا قبَل له بهم ، فصالحهم على الجزية نفسها التي كان يؤديها فرغويه . ظهر في هذه الأثناء الفاطميون في مصر ، وامتدت يدهم إلى سورية ، فوقعت الواقعة بينهم وبين الحمدانيين ، ووجد الروم مصلحتهم

إلى جانب الحمدانيين ، ذلك أنه كان أسهل عليهم أن تقوم دويلات من أن تأتي دولة كبرى كدولة الفاطميين ، فتقف إلى جوارهم ، ثم يضطرون إلى محاربتها . وهكذا ساعدوا الحمدانيين في حلب على الفاطميين ، وعقدوا معهم صلحاً حتى إذا سار الفاطميون إلى حلب ، استنجد الحمدانيون بالروم ، فسار إليهم باسيل الثاني بجيش قدره سبعة عشر ألف رجل ، فأجلى الفاطميين عن حلب ، ولم يدخلها ، وكان بإمكانه أن يستولي عليها ، وكان كل ذلك بحساب مقدر ، فلو أنه قضى على دولة الحمدانيين ، لواجه الفاطميين وجهاً لوجه ، والروم كانوا مشغولين بحروب واضطرابات في بلادهم .

سعيد الدولة ونهاية الدولة الحمدانية :

وأتى بعد سعد الدولة ابنه سعيد الدولة ، وكان إلى جانبه قائد اسمه لؤلؤ ، وهو والد زوجته . مد لؤلؤ يده إلى الحكم وسجن سعيد الدولة ، فدانت له حلب ، ثم تقدم نحو الفاطميين فطلب حمايتهم ، وبذلك انتهى حكم الحمدانيين في سورية ، ودخل الفاطميون حلب .

حكم الحمدانيون في حلب وفي الموصل حكم دولة عربية شيعية ، اعتمدت على قوة ساعدها وبنت أمرها على الحرب والجهاد ، وسارت سيرتها كالدول الشيعية الأخرى البويهية والفاطمية ، فاعتمدت على نوع من الدعوة ، واعتمدت بصفة خاصة على تشجيع العلم والثقافة وعلى العناية بالعمران . أخطأت في آخر عهدها فتحالفت مع الروم لتنقذ نفسها من الهلاك ، لكن وحدة مصر والشام كانت أقوى من أن توقفها المنافع المحلية ، فدالت دولتها .



الفاطميون

٢٩٧ ـ ٥٦٧ هـ

تشكل الدولة الفاطمية :

رأينا تشكل دولتين شيعيتين استقلتا بالأمر وخضعتا للحكم العباسي عن طريق الاعتراف بالخلافة ، ولنر الآن سعي سلالة تدّعي النسب إلى فاطمة ابنة الرسول للحصول على الخلافة نفسها كاملة عامة موحدة . إنه سعي القائلين بالإمام السابع ، أي **السبعية** . وقد رأينا وضع هؤلاء حين البحث عن القرامطة ، وقد مرّ معنا كيف أن القرامطة درجوا على أسلوب خاص لهم في الدعاية ، وفي تكوين الدولة . كان رأس هذه الحركة ميمون القداح ، وهو الذي وضع حجر الأساس لحكم الباطنيين ، لكن غاية ميمون[1] القداح ترمي إلى شيء آخر فهو إنما يريد الخلافة ، ولا يريد ثورة هنا وهناك وبطشاً وقتلاً ونهباً . وهكذا يمكن القول إنه يجب الفصل بين الفاطميين والقرامطة .

نسب الفاطميين :

تثار قضية في شأن ميمون القداح ، وهي أن أولاده الذين استولوا على الخلافة الفاطمية كانوا غير فاطميين ، مع أنهم كانوا يدّعون أنهم من سلالة فاطمة الزهراء . وقف المؤرخون في هذا الأمر موقفين مختلفين : فبعضهم يرى أن الفاطميين ليسوا من سلالة فاطمة ، وبعضهم الآخر يرى أنهم من

---

(١) ربما توضحت غاية الحركة في الوصول إلى الحكم في عهد ابنه عبد الله ـ المنقح .

تلك السلالة ، ويقدّم كل من الطرفين حججه ودلائله . الدلائل تميل إلى جانب من ينكرون صحة نسب السلالة : فآل علي أنفسهم كانوا يرفضون الاعتراف بصحة سلالة الفاطميين ، والقرامطة أنفسهم وقفوا موقفاً مماثلاً في هذا الأمر ، وهم سبعية كالفاطميين . ومهما يكن من أمر فإننا ميالون مع معظم المؤرخين إلى أن الفاطميين ليسوا من سلالة علوية ، على أن هذا الأمر من الناحية التاريخية لا يقف سداً يحول بين الفاطميين وبين الحصول على الخلافة ، فوسائل التمويه في الأمر كثيرة ، والمهمّ الوصول إلى الحكم ، وقد تيسر لمن سُمّوا بالفاطميين الوصول إلى الحكم .

أسلوب الفاطميين في الدعوة :

تيسر لهم بلوغ الحكم والخلافة بأسلوب أرى أنه يشابه أسلوب العباسيين ، وأرى أننا إذا اتبعنا عرضاً يشابه عرضنا لوصول العباسيين إلى الحكم عن طريق الدعوة ، فهمنا تطور تاريخ الفاطميين الأوّل . هذا رجل ولنسمّه **ميمون القداح** ، وكان يسمّي نفسه أو سُميّ بعد ذلك **بمحمد الطيب** ، يختار السلمية[1] (قرية تقع شرقي حماه) مركزاً للدعوة إلى **المهدي المنتظر** من أبناء محمد بن إسماعيل ، ويوجه الدعاة إلى أقطار العالم الإسلامي ، وهو في نظر دعاته **رئيس الدعوة** لهذا المهدي المنتظر ، كما كان محمد بن علي بن عبد الله بن عباس يرأس الدعوة من الحميمة إلى أقطار العالم الإسلامي . إنّ الدعوة القدّاحية لا تسمي الخليفة ، وكل ما في الأمر أن رئيسها عارف كيف يوجهها ، وعارف بالأماكن التي يمكن أن تنشر فيها دعوته ، وعارف بالأشخاص الذين يتقبلون هذه الدعوة ويؤدون إليه خمس أموالهم . وتمضي الأيام فتنتشر الدعوة على شكل قرمطي في العراق ثم تمتد

---

(١) إعبد الله بن ميمون القداح هو الذي اتخذ سَلَمْيَة مركزاً له ـ المنقح ـ

إلى بلاد الشام ، فيجد ابن[1] ميمون القداح وهو عبيد الله ، أن الدعوة اتجهت اتجاه الثورة والقلاقل والاضطراب ، وأنها أخفقت في العراق ، وهي الآن في سورية تسعى سعيها ، ولكنها لا تمشي باضطراد .

نقل الدعوة إلى المغرب :

ويلوح له في الجو بسمة أمل تعطيه صورة تشابه الصورة التي حصلت للعباسيين فهذا **أبو عبد الله الشيعي** أحد دعاته يسير إلى مكة ، فيجتمع ببعض أفراد قبيلة كتامة من البربر ، فيجد عندهم استعداداً كبيراً لتقبل دعوة الفاطميين ، فيذهب معهم في المغرب[2] ويبثّ دعوته بينهم . وهكذا وجد عبيد الله طريقتين في العمل : إحداهما أن يتحالف مع القرامطة ، وأن يثور بثورتهم ، والأخرى هي أن يلتحق بالمغرب ، فينشر دعوته هناك ، ثم يسعى سعيه منه في الانقضاض على الخلافة العباسية . أيّ الأمرين أجدى له ؟ لا ريب أن وجوده في سورية يعرّضه للمخاطر ، أما في المغرب فسيكون بين قبيلة بربرية قوية شديدة المراس . إنّ الجوّ ممهّد في المغرب ، فقد أسس الأدارسة دولتهم هناك على أسس شيعية ، فتعرّف السكان على الشيعة ، فلا يمتعضون إن صدرت دعوة شيعيّة بينهم . إنّ القرامطة يعرفون أصل عبيد الله حق المعرفة ، ولعل بادرة ظهرت منهم نحوه في أنّه ، وإن كان رئيسهم ، إلا أنّه يدعو للمهدي المنتظر ، وهو ليس

---

(١) ليس القصد هنا بأنه ابن ميمون بالذات ، لأن المعروف أن عبيد الله هو ابن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح : لكن النسب الذي ادعاه عبيد الله المهدي هو عبيد الله بن عبد الله بن الحسين التقي ابن أحمد الوفي ابن عبد الله الرضا ابن محمد المكتوم ابن إسماعيل ـ المنقح عن زمباور . أما فيليب حتي فهو يلقب محمداً (التام) ـ المنقح .

(٢) قبل أن يذهب الشيعي إلى مكة ويتعرف بالكتاميين اتصل بابن حوشب الذي كان ينشر الدعوة في بعض بلاد اليمن وساعده ـ المنقح .

ذلك المهدي كما يعرفون . أما في المغرب فليس يعرفه إنسان ، اللهم إلا داعيته أبو عبد الله الشيعي ، وهو يأمن جانبه وعلى ذلك فقد كان الخيار واضحاً أمامه ، ولما قدم عليه زكرويه وابنه يطلبان منه تفاهماً معهما في شأن الثورة بالشام ، لم يأبه لهما ، وسافر بعد ذلك إلى مصر ، ومن مصر إلى القيروان ، لكنه حدث له في سِجِلْماسه ما حدث لإبراهيم بن محمد بن علي قبله ، فقد ألقي القبض عليه ، غير أن الأمور كانت تسير في مصلحته ، فأبو عبد الله الشيعي استطاع أن يضرب الأغالبة أصحاب تونس ، وأن يستولي على القيروان وعلى ملكهم جميعاً ، وبذلك أنقذ عبيد الله وأخرجه من سجن صاحب سجلماسة واستقدمه إلى القيروان فدخلها منتصراً سنة ٢٩٧ هـ .

تأسيس الدولة الفاطمية :

وهكذا وجد عبيد الله نفسه وهو على رأس جيش وحكومة ، قائد هذا الجيش أبو عبد الله الشيعي ، وهو رئيس الدولة ، فدعا نفسه **المهديّ** ، واتخذ لقب **أمير المؤمنين** ، وعدّ ذاته خليفة ، ثم اتخذ سبيل العباسيين أيضاً ، فعمر مدينة لنفسه ولجيشه سماها **المهدية** ، وذلك سنة ٣٠٨ هـ ، وهو في هذا يفعل ما فعل أبو جعفر المنصور حين عمر بغداد .

ويقتضي بنا الأمر أن نذكر أنّ هناك تشابهاً واضحاً في ثورة العباسيين على الحكم الأموي ، وثورة الفاطميين على الحكم العباسي ، والأسلوب يظهر تقريباً واحداً ، بل الحوادث متشابهة أيضاً في العلاقة بين أبي عبد الله الشيعي قائد الفاطميين وبين المهدي عبيد الله أمير المؤمنين للفاطميين ، فأبو عبد الله الشيعي يريد أن يكون له شيء من الأمر والشأن ، وهو الذي فتح المغرب للفاطميين ، والمهدي عبيد الله يريد أن يكون له كل الأمر ، ويثور عليه أبو عبد الله فتخفق ثورته ، ويقتله المهدي كما قتل أبو جعفر المنصور قبل ذلك أبا مسلم الخراساني .

التوسع نحو الغرب وضمّ مراكش :

وكان أمـام الفـاطميين بعـد هـذا أن يسـوّوا الأمر في المغرب ، وأن يبسطـوا سلطـانهم فيـه ، فـألفـوا أنفسهم أمـام صعـوبتين : أولاهمـا : وجـود الإدريسيين في مراكش ، والأخرى : وجود الخوارج بين البرابرة . قـاموا بما يقتضي عليهم الأمر في ذلك ، فحـاربوا الأدارسـة وتخلصوا[1] منهم وانـدفعت جيوشهم في بـلاد المغرب ، ووصلت إلى مراكش ، لكن عبـد الرحمن الثـالث الأمـوي أوقفهم في جهـات سبتـة ، على أن المغرب وقـع أكثره في قبضـة أيديهم . أما مع الخوارج فقد اضطروا إلى حرب شديدة واسعـة ، فقـد خرج عليهم رجل من الخوارج اسمه **أبو يزيد** ، وعانوا في شـأنـه الأمرّين ، حتى استطاعوا بعد معارك طويلة علم ٣٣٦ هـ أن يقضوا عليه .

النظر إلى الشرق والتفكير بضم مصر :

كانت غـايـة الفـاطميين الأسـاسيـة أن يكوّنوا خلافـة عـامـة تحلّ محلّ الخلافة العباسية ، لذلـك كان عليهم أن يتوجّهوا في فتوحهم إلى مصر ، ومن مصر إلى العراق ، والـواقـع أنهم لم يكفّـوا عن التفكير في ذلـك ، حتى في الساعات الحالكة من تاريخهم بـالمغرب ، ومن المهـديـة وجهوا إلى مصر عـدة حـملات في السنـوات : ٣٠٢ و ٣٠٧ و ٣٢١ هـ و ٣٢٣ و ٣٣٢ هـ لكن هـذه الحملات أخفقت بالرغم من أن الفاطميين استولوا على الإسكندريـة واضطروا إلى الانسحـاب . يعـود سبب الإخفـاق إلى أن مصر كانت في وضـع متين ، لا سيا أخيراً في عهد الإخشيد ، وهو رجل سيـاسـة وحكم ، حكم مصر ودعـا

---

(١) ليس لدينـا دليل واضح على التخلص منهم ؛ ذلـك لأن حكم الأدارسـة امتـدّ حتى أواخر القرن الرابع الهجري ، ثم انقسموا على أنفسهم ، وخلفهم أسر حاكة في المغرب . وظل المغرب الأقصى بمنـأى عن الحكم الفـاطمي ـ المنقح .

فيها للخليفة العباسي ، ولقّبه الخليفة **الإخشيد** أي ملك الملوك ، وهو لقب تركي معروف في بلاده الأصلية ، ولم يصرف هذا الإخفاق الفاطميين عن رغبتهم في الاستيلاء على مصر ، ولم يمض أمد يسير حتى توفي الإخشيد ، فاضطربت الأحوال من بعده واستولى على مصر **كافور** ، وهو عبد أسود ، واضطرّ الناس إلى أن يقبلوا بحكمه عليهم مرغمين غير راضين ، ولم يستمرّ كافور أكثر من سنتين [1] . ثم أشرف على الأمور الوزير جعفر بن الفرات ، فساءت الأمور في عهده أكثر . واستاء الشعب من شغب الجند وبذخ الحكام الذين أقبلوا على ملذاتهم ؛ وظهرت أزمات اقتصادية ومجاعات ، ووقع ظلم على السكان ؛ وكان القرامطة لا يزالون في سورية يقومون بضرباتهم المتوالية ، كانت جهتهم هذه المرة مصر ، أخذوا يهيئون أنفسهم للانقضاض عليها . كان أهل مصر يشعرون بذلك ، لكنهم لا يستطيعون القيام بشيء أمام هذا الخطر الداهم ، في ذلك الحين جهز المعزّ الفاطمي جيشاً للاستيلاء على مصر ، وكان قبل ذلك قد أرسل دعاته إليها يبثّون الدعوة بين السكان .

الحالة الراهنة في مصر قبل الاحتلال الفاطمي :

لنتخيّل الآن موقف مصر من هذه الدعوة : كانت مصر في الواقع أمام أعداء ثلاثة : العدو الأول : هو القرامطة بمذهبهم وبثوراتهم وقلاقلهم ، وكان العدو الثاني ماثلاً في مصر نفسها وهو اضطراب الحالة ، واختلاف الجنود ، وتفاقم الأزمات الاقتصادية ، والظلم المحيق بالسكان ؛ وكان العدو الثالث هو ذلك الذي يتربص ليهجم على مصر من جهة المغرب ، وهو جيش الفاطميين

---

(١) حكم كافور كوصي على أبناء الإخشيد مدة عشرين سنة ، ثم حكم مباشرة مدة سنتين (٣٥٥ ـ ٣٥٧ هـ) ـ المنقح .

وقد أعدّ إعداداً حسناً ، هذا الجيش يدعو دعوة فاطمية إسماعيلية ، أو دعوة شيعية فيها شيء من المغالاة ، وكان على أهل مصر أن يختاروا بين أحد الأعداء الثلاثة . لا ريب أنهم لم يختاروا القرامطة فهم يخشون شرّهم أكثر من شرّ العدوين الآخرين ، ثم إن العدو الداخلي شديد عليهم ، فهم في حالة اضطراب وأزمة عامة ، أما ذلك العدو الآتي من المغرب ، فهم لم يروا بعدُ من سيئاته شيئاً ، بل سمعوا عنه أنه يعيش عيشة بدوية بعدل واستقامة ، ولاينفق الأموال على البذخ والتهتك كما يفعل أمراء مصر في ذلك العصر ، لكنه مع ذلك عدو ذو مذهب يخالف مذهب أهل مصر ، فهو شيعي ، وأهل مصر مالكية وشافعية متحفظون ، فهل يرضون به ؟ - يبدو لي أن الفاطميين في المغرب لم يتخذوا في بادئ الأمر مذهباً مغالياً في التشيّع ، ولعلهم كانوا على مذهب علوي لا يعدو[1] كثيراً مذهب الإمامية إلا بوقوفهم عند الإمام السابع ، ثم إنهم كانوا عارفين بطبيعة الشعب المصري وميله المذهبي ، فبثّوا دعاتهم فيه بأسلوب حسن ليّن لطيف ، فماذا كانوا يقولون ؟

العهد الفاطمي إلى أهل مصر قبل الاحتلال :

ليس بين أيدينا نصوص تدلنا على سير دعوتهم في مصر لنعرضها هنا ، لكن حدث حين هاجم الفاطميون مصر أن أعطوا عهداً لأهل مصر ، يظهر فيه شكل الدعوة التي كانوا يبثونها ، فلنستعرض إذاً هذا العهد الذي قطعه القائد **جوهر** باسم الخليفة **المعزّ** لأهل مصر حين دخل أبوابها ، ولما يصل إلى مصر نفسها ، هذا العهد يمكن أن نلحظ فيه ثلاثة أمور : **الأمر**

---

(١) ظهرت حقيقة دعوة الفاطميين فيما بعد ، وما كان من صالحهم أن تعرف لا في شمالي إفريقية ولا في مصر قبل أن يتوطد مركزهم - المنقح .

الأول : الإشارة إلى الخطر الذي كان يتهدد مصر من جهة الجنوب مع القرامطة ، ويصوّر هذا الخطر في العهد تصويراً قوياً ، ولا بد أنّ الدعاة كانوا يصوّرونه في خطر أشد مما كان يصوّره العهد ، يقول هذا في فقرة من فقراته : « ... إنّه - صلوات الله عليه - لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ، إذ قد تخطّفتكم الأيدي واستطال عليكم المستذلّ ، وألمعته[1] نفسه بالاعتداء على بلدكم في هذه السنة والتغلب عليه ، وأسر من فيه ، والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان الشرق ، وتأكّد عزمه ، واشتدّ كَلَبه ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - بإخراج العساكر المنصورة ، وبادر بإنفاذ الجيوش المظفرة دونكم ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين عمّهم الخزي وشملتهم الذلّة . واكتنفتهم المصائب وتتابعت الرزايا ... » .

هذا واضح في إظهار الخطر الذي يريد الفاطميون أن ينقذوا منه مصر ، وهو خطر القرامطة ، وهنالك خطر آخر ينذر الفاطميون به أهل مصر أيضاً ، وهو **الأمر الثاني :** خطر الحالة الداخلية المتفككة . ففي نص آخر من العهد يؤكد القائد **جوهر** أن أمير المؤمنين أوعز به إلى عبده (جوهر) « من نشر العدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفي الأذى ، ورفع المؤن ، والقيام في الحق وإغاثة المظلوم مع الشفقة والإحسان . الخ » ويستأنف بعد ذلك قائلاً : إن أمير المؤمنين يأمرني به من « إسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضي - صلوات الله عليه - بإثباتها

---

(١) كذا وردت في (المقريزي - اتعاظ الحنفا ... طبعة HUGO BUNZ ليبريغ ١٩٠٩ ص ٦٧) ؛ أما الدكتور جمال الشيال في طبعته ١٩٤٨ - ص ١٤٩ - فقد أصلحها وقال : (وأطمعته) - المنقح .

عليكم ، وأن أجيركم[1] في المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات[2] موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفا (كذا) بها ، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال ، وأن أتقدم في رمّ مساجدكم ، وتزيينها بالفرش والإيقاد ، وأن أعطي مؤذنيها وقَومَتَها ومن يؤمن الناس فيها أرزاقهم ... » وظاهر من هذا أنه سيترك ما كان على ما كان في شؤون الأوقاف ، وهو بهذا يستميل القائمين على المساجد ودور العبادة ، وهو **الأمر الثالث** وغايته **الإصلاح** الداخلي .

أما الطريقة التي يستميل بها السكان بصفة خاصة لإزالة تخوّفهم من المذهب الشيعي فإنه يبدو في قوله : « إذ كان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهي إقامتكم على مذهبكم وأن تُتْرَكوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سَلَفُ الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجري الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونصّه نبيه صلى الله عليه في سنته ، وإجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه ، ولكم عليّ أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم ... الخ » .

هذا العهد هو الذي كان يدّعيه الدعاة ، بل لعلهم كانوا يستزيدون فيه شيئاً وأشياء يتبسطون بها ، لأنّ القول غير العهد المكتوب .

---

(١) الشيال (أجريكم) - المنقح .

(٢)) كما وردت في طبعة الشيال ، أما طبعة BUNZ فقد وردت فيها (بركات) - المنقح .

يبدو واضحاً أن العبيديين (أو كما يسميهم المؤرخون الفاطميين) ضمنوا لأهل مصر ألا يؤذوا في مذهبهم وأن يستمروا على سنتهم ، فلم يبق إذاً أمام المصريين مجال للتردد في انتخاب أحد الأعداء الثلاثة ، إلا أن ينتخبوا عدوهم الفاطمي الذي تخلى عن العداوة ، وجاء إليهم لينقذهم من القرامطة ، ولينقذهم من الفوضى والظلم الذي هم فيه ، وليترك لهم أمر دينهم يقومون به كما يشاؤون .

الاستيلاء على مصر :

هيأ الفاطميون إذاً دخولهم إلى مصر تهيئة محكمة ، وهيؤوا جيوشاً لغزو مصر ، إن وقع القتال مع أهلها ؛ فقد أعدّ المعزّ جيشاً ينوف على المئة ألف مقاتل من البربر والمغاربة عامة والروم والصقالبة والسودان ؛ وكان قد جمع ثروة هائلة بسبب تقشفه وحياته البدوية ؛ قُدِّرت هذه الثروة بأربعة وعشرين مليون دينار ، كانت بين يديه تعدّ في الصناديق ، فوضعها لهذه الحملة . بعد أن تلقى وفداً من المصريين في المهدية أتاه شبه مبايع ، أرسل أحسن قواده **جوهراً الصقلي** وأصله رومي من صقلّية ، وسيّره بأوامره ، وما بلغ أبواب مصر حتى خرج إليه من المصريين وفد يؤيدون الوفد الأول . تلقى جوهر الوفد بالترحاب وعقد لهم عقده الذي ذكرنا بعضاً من نصوصه ، فأمنوا له ، واستسلموا لأمره ؛ غير أن الإخشيديين ومن كانوا يميلون إليهم لم يستسلموا لتلك القوة الدافقة ، ويذعنوا لرغبة الشعب ، بل خرجوا ليصدّوا جيش جوهر الصقلي ، فوقفوا وراء النيل من جهة الجيزة ، ولما وصل جوهر خاض جيشه النيل إليهم ، وهاجمهم هجوم الأسد الكاسر ، وقتل فيهم مقتلة كبيرة ، ثم دخل جوهر الصقلي الفسطاط .

تأسيس الدولة الفاطمية في مصر :

وكانت أمامه خطة واضحة للعمل ، وهو أن يشرع حالاً في تأسيس مدينة لجنده لئلا يختلط بالسكان وتقع المشاكل : أسس ما يسمى بعد ذلك **بالقاهرة المعزّيّة** ، نسبة للخليفة المعزّ وهي القاهرة ، أسسها وخططها خططاً مختلفة ، فوزع الجند فيها ، وجعل لكل طائفة منهم حياً خاصاً ، فللبربر حيّهم ، وآخر للروم وثالث للسودان .. وهكذا ، ثم وجد المعزّ لدين الله الأمور في مصر قد مهّدت له ، وأقيمت مدينة من أجله والحاشية ، فانتقل من مقره في المهديّة إلى مدينته الجديدة القاهرة المعزية وذلك سنة ٣٦٢ هـ .

التوسع خارج مصر :

وكان أول ما فعله المعزّ أنه تصدّى لجيش القرامطة ، وكان هذا الجيش خطراً على مصر وخطراً عليه . نعم إن أصل الفاطميين المذهبي وأصل القرامطة المذهبي واحد ، فهم جميعاً يعترفون بالإمام السابع ، ولكن القضية المذهبية ، إنما هي أمر ثانوي بالنسبة إلى القضية السياسية الأساسية : فالفاطميون يريدون أن يكونوا أسياداً بخلافة لهم خاصة ، والقرامطة يريدون أن يستولوا على مصر لأنفسهم ، وهكذا وقع الصدام بين فئتين يكاد يكون مذهبهما واحداً . ظهر شأن القرامطة خطيراً، فقد استطاعوا مرة ومرتين أن يصلوا إلى أبواب القاهرة ، وأن يهددوا الفاطميين في عقر دارهم ، لكن جوهراً استطاع أن يردّهم ، وخرج المعزّ لهم أيضاً واستعمل الحيلة في تفريقهم عن محالفيهم من البدو ، فدحروا وكان البويهيون يسندونهم ، بعد أن كانوا مخالفين لهم ، يسندونهم ليتخلصوا من عدو جديد فاجأهم إلى جانبهم في بلاد واسعة الثراء ، كبيرة النفوذ ، قوية الجيش ، ومركزها وسط في العالم

الإسلامي ، فخطر الدولة الجديدة عليهم فيها شديد . لم يأبه الفاطميون لمساندة البويهيين بل أخذوا في التوسع ، فساروا إلى بلاد الشام ، ودحروا فيها القرامطة مرة أخرى ، ووصلوا إلى جهات الشمال ، فوجدوا الحمدانيين أمامهم فحاربوهم ، وتقدموا في بلادهم حتى بلغوا حلب ، وقد رأينا أن الحمدانيين لجؤوا إلى الروم لحمايتهم من الفاطميين . إن اندفاع الفاطميين في بلاد الشام ظل يستمرّ حتى استطاعوا أن يضمنوا آخر الحمدانيين ، فاستسلم لهم ودخلوا حلب .

تقدم الفاطميون أيضا من جهة الجنوب فدخلوا **الحجاز** ، وتمكن أمرهم في جنوبيه ، وهكذا سيطروا على رقعة من العالم الإسلامي هي أكبر رقعة في عصرهم ، فقد امتدّ حكمهم من البحر الأطلسي إلى بلاد الشام المتاخمة للعراق ، إلى الجزيرة العربية وأراضيها الواسعة الشاسعة ، وكذلك تكونت دولة كبيرة ، لعل دولة بني العباس لم تكن أوسع سلطاناً منها إلا في عصور محدودة .

أدوار تطوّر الدولة الفاطمية :

امتد حكم الدولة الفاطمية في العالم الإسلامي نحواً من مئتين وسبعين عاماً منذ أول تأسيسها في المغرب إلى تاريخ انقراضها ، من هذا العدد من السنين كان نحوّ من مئة وخمسة عشر عاماً يعتبر عصر العز والقوة للدولة الفاطمية ، وتلا ذلك نحوّ من سبعين عاماً كانت الدولة الفاطمية على ضعف سياسي ولكن مع حضارة وصلت إلى ذروتها ، ثم أتت خمسة وثمانون عاماً تدهورت الأمور فيها وآلت إلى انقراض تلك الدولة .

ينبغي لنا قبل الدخول في عرض هذه المراحل ، أن نذكر ما هي صفات العصر الفاطمي إجمالاً ، فعهدهم الطويل الذي امتدّ أكثر من قرنين

ونصف ، ترك أثراً كبيراً في مصر وفي العالم الإسلامي ، فما هي صفته ؟ سنتكلم عن الحالة والمزايا العامة للدولة الفاطمية ، في مصر خاصة ، وعهد الفاطميين في مصر يظهر على الشكل الآتي إجمالاً :

أولا ـ تتجلى فيه مظاهر الأبّهة والعظمة ، فالمظاهر هي السائدة فيه والمال الكثير والفخامة في كل شأنه .

ثانيا ـ الحكم متسامح في ظاهره مع الشعب ، فللشعب أن يقوم بأعماله بحرية في الإجمال ، وأن يعتقد ما يشاء بحرية ، إلا في أوقات معينة ، سنبحث بها بعد هذا ، والشعب أيضاً على الإجمال غني في بعض طبقاته ، يعيش في بحبوحة .

ثالثا ـ العمران كثير ووسائله كثيرة والدار فخمة ، تصل إلى إحدى عشرة طبقة ، لكن المتلكين لهذه الدور إنما هم الخلفاء ، لا أفراد الشعب ، والشعب إنما يمتلك داره ودكاكينه وحوانيته ومصانعه .

رابعا ـ العلم منتشر انتشاراً كبيراً ، وللعلم دوره ، وهو يدرس في المساجد أيضاً ، ويلقن في قصر الخليفة نفسه ، لكن هذا العلم هو علم فاطمي لغاية فاطمية ، والقصد منه الدعوة الإسماعيلية ، ونشر تلك الدعوة . ومع ذلك فإن دور العلم هذه وتلك الدعوة لم تكن ناجحة كما كان يأمل الخلفاء الفاطميون ؛ أما الشعب فمتمسك بسنيته لا يحيد عنها ، بل هو يستخدم دور العلم وحلقات الدراسة لنشر فكرته السنية ، وللتغلب على الفكرة الإسماعيلية ، ويرى الخلفاء ذلك ، فتثور ثائرتهم ، لكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً كبيراً .

خامساً ـ ترتيب دقيق في أنظمة الدولة وفي دواوينها ، وتسلسل في طبقات

الوظفين ، وقوانين تطبق بالشدة أو بالتسامح ، لكنها تطبق ويمكن أن نقول إجمالاً : إن العدل كان سائداً في المملكة .

☆ ☆ ☆

الوضع العام تحت الحكم الفاطمي :

هذه الصفات تنبئنا عن صفة عامة أساسية تنطبق على العهد الفاطمي وهي أن هذا العصر عصر حضارة وتنظيم ، كل شيء فيه منتظم على قدر الأبهة والحضارة والبنيان والعمران كل ذلك سائر سيرته ، وطبيعي مع هذا أن يستمر الحكم الفاطمي على ضعفه الأساسي من حيث الأصل . والواقع أن الحكم ضعيف حقاً ، لأنه حكم طبقة ليست من الشعب ، فالفاطميون مهما كان نسبهم لم يكونوا من منبت مصري ، بل هم لم يعيّنوا المصريين في أعمال الدولة الكبرى ، فقد كانوا لايعيّنون في المراكز الأساسية إلا من كان على مذهبهم ، والمصريون من أهل السنة ، غير أن الفاطميين تساهلوا مع المسيحيين واليهود الذين لايخشون شرّهم فأسلموهم المراكز ، وكان من اليسير عليهم أن ينتزعوها منهم متى يشاؤون . نعم إن المسيحيين واليهود من الشعب المصري ، إلا أنهم كانوا أقلية . فالضعف إذاً في الحكم الفاطمي هو أنه لم يحكم عن طريق الكثرة الشعبية ، عدّل هذا الضعف وخفّف أثره ذلك التنظيم الإداري في الحكم ، والنمو الاقتصادي الذي أخذ ينعم به معظم السكان من طبقة المثرين والمتوسطين .

الجيش الفاطمي :

استطاع الفاطميون أن يسندوا حكمهم سنداً قويّاً من الناحية

العسكرية فقد كان جيشهم قويّاً أيضاً ، ولم يسمح للجيش بالتدخل في شؤون الحكم كما كان الأمر عند العباسيين ، والسبب في ذلك هو ما ذكر من أن الفاطميين اعتمدوا في مصر أول الأمر على المغاربة والبربر الذين أتوا بهم من المغرب ، لكنهم وضعوا إلى جانب ذلك الجيش جيشاً آخر مكوّناً من الأتراك والأكراد والسودان ، فكان هذا الجيش أو الحرس يقف أمام جيش المغاربة ، وكان المستولي على الأمر في عهد الفاطميين يستطيع أن يحكم بين هاتين الطائفتين من الجيش ، ويوازن بينهما ، فلا تتغلب إحداهما على الأخرى .

☆ ☆ ☆

فأصول العهد الفاطمي إذاً تنحصر برقيّ في الحضارة ، واقتصاد مزدهر ، وترتيب وتنظيم في القوانين ، وجيش لايستطيع أن يلعب دوره في توجيه الخليفة أو السيطرة عليه .

أما تدهور الحكم الفاطمي ، فقد نتج أولا من الفاطميين أنفسهم كما سنرى ، ثم نتج من ضعف أثر الخلافة الفاطمية في خارج مصر ، ثم أتى أخيراً من أن الخلفاء الفاطميين أنفسهم أمسوا في عصر من العصور أولاداً صغاراً لايعرفون التصرف ، فيقعون تحت نفوذ أشخاص طامحين طامعين .



عهد سلطة الخلفاء الفاطميين :

نتتقل الآن إلى العهد الأول للخلفاء الفاطميين في مصر ، وهو عهد

سلطة الخلفاء . أول هؤلاء الخلفاء **المعز لدين الله** ، وثانيهم ابنه **العزيز** نزار وثالثهم **الحاكم بأمر الله** . إن الذي أسس الدولة الفاطمية على الأسس التي ذكرناها ، وأعطاها صفاتها التي رأيناها إنما هو **العزيز** . فهذا رجل يشبه أبا جعفر المنصور في الدور الذي لعبه وهو الذي أرسى أسس الدولة الفاطمية ، وعيّن خطّ سيرها ، وإليكم السياسة التي اتبعها في ذلك نلخصها بما يلي :

أعمال العزيز التنظيمية :

شكل الوزارة على أسس قوية ، وجعل الدواوين مرتبة ترتيباً متقناً ، وانتخب وزراء أقوياء في ترتيبهم ونظامهم وفكرهم لكنهم ضعفاء أمامه ، وقد اختارهم من اليهود والنصارى كابن كِلِّس[1] وعيسى بن نسطوريوس[2] الخ ، ثم إنه وضع أصول الأبهة والمظاهر الفخمة للخلافة ، فاحاط الخليفة بهالة من المظاهر الطنانة ، وجعل الناس ينظرون إليه نظرتهم لعزيز مصر ، ثم إنه نظر في جيشه وحرسه فوجده متألفاً من المغاربة البربر على الأكثر ، فخشي أن يتغلب هؤلاء المغاربة على الحكم والخليفة ، وهو قد بدّل شكل الحكم عما كان عليه في المغرب ، وأراد أن يمنع حدوث أي خطر قد يصدر من المغاربة في المستقبل ، فاستخدم في الوقت نفسه جيشاً من الترك والأكراد والسودان ، واعتمد على هذا الجيش بصفة خاصة ، فعهد إلى قواده بولاية الولايات ، فكان من ذلك أن اضطرب حال المغاربة ، ووقعت بينهم وبين الأتراك والأكراد الواقعة ، إلاّ أن هذه الواقعة ـ كما رأينا ـ كانت في مصلحة الحكم إجمالاً ، خلافاً لما يقوله المؤرخون ، لأنها

---

(١) هو يعقوب بن يوسف ... بن كلس اليهودي الأصل تولى مرتين ٣٦٥ ـ ٣٨١هـ ـ المنقح .

(٢) عيسى بن نسطوريوس المسيحي ، تولى ٣٨٥ ـ ٣٨٦هـ ـ المنقح

منعت كلاً من الطرفين من أن يستبد بالحكم ، ولاريب أنّ الفتنة بينهما كان لها أثر سيئ على الشعب في العهد الفاطمي ، لكن هذا الأثر السيئ هو الذي سبّب نقص[1] الحكم الفاطمي ، فأسباب نقص ذلك الحكم يأتي من جهة أخرى ، أما الوسيلة التي وضعها العزيز لدوام الحكم في الخلافة الفاطمية فهي أنه عرف كيف يستخدم سلاحين مهمّين ، وهما السيف والمال ، فهيبة الخليفة الفاطمي كانت مع السيف ، إلا أنه لم يكن يضطر كثيراً إلى استعمال السيف ، فالذهب الكثير كان يطلق هنا وهناك ، فيخضع الناس ويعشون راغبين .

سياسة العزيز الدينية :

أراد العزيز أن يجعل **الإسماعيلية** هي المذهب الأساسي الرسمي في مصر ، فاستبعد كلّ من لم يأخذ بالإسماعيلية ، وقرر سبّ الصحابة ونشر الدعوة الإسماعيلية ، واستطاع بمساعدة جوهر القائد أن يفتح قسماً كبيراً من الدولة الإسلامية ، فيصل حكمه حتى المُوْصل ، ويُدعى له فيها مرة ، ويسري حكمه على سورية بأجمعها ، وعلى الحجاز ، ناهيك عن شمالي إفريقية . وزبدة القول إنه هو الذي وضع أسس الحكم الفاطمي في مصر .

☆ ☆ ☆

الحاكم بأمر الله : أعماله

والخليفة الذي أتى بعده ، وهو ابنه الحاكم بأمر الله ، سار على طريقة والده في أول الأمر ، وذلك في تقوية جهاز الدولة وتثبيت الأمور ، بل

---

(١) القصد من هذه الكلمة (قصور الحكم الفاطمي عن إكمال وضعه العام) ـ المنقح

أصلح موقف والده من أهل السنّة ، فأظهر ميلاً إليهم ، وتودّد إلى علمائهم ، وأنفق عليهم المال ، وأقام لهم دار العلم[1] وأجلسهم فيها ، وصار يتّبع أوامر الدين بدقة ، بل يغالي في ذلك . مثال ذلك : أنه منع الناس من زراعة العنب حتى لايستحصلوا منه على الخمر ، ومنع النسوة من الخروج إلى الشارع ... وسار سيرته في ذلك مدة من الزمن ، واضطهد المسيحيين واليهود وخرب بعض كنائسهم ، ككنيسة القيامة في بيت المقدس ، وألزمهم لبس السواد ليتميزوا عن المسلمين ، واضطرهم إلى أن يحملو في أعناقهم صلباناً كبيرة بوزن كبير قبل أن يدخلوا إلى الحمامات ، وأفرد لهم حمامات يدخلون إليها وحدهم ، فلا يدخلون حمامات المسلمين .

تقلب الحاكم وشذوذه :

ولكن الحاكم كان ذا شخصية متقلّبة كل التقلب ، وهو لايدري ماذا يفعل ، ويسير مع عاطفته ومع اضطراب مزاجه ، فبعد أن يتسامح مع أهل السنة ، يتتبعهم بشدة ، ويقتل بعضهم ، وبعد أن كان قد التزم بأمور الدين التزاماً متشدداً مترمتاً ، إذا به ينظر إلى نفسه نظرة الألوهيّة ، ويسمح لأتباعه بأن يذكروا في الجامع الأزهر فضائله ، وأن فيه شيئاً من روح الإله ، يسمح بذلك **لدرزي** في أول الأمر ، فيتبعه الناس محاولين قتله ، فيختفي ، ويسمح بعد ذلك **لحمزة** ، فيتبعه الناس أيضاً ، فيلتجىء إلى دار الحاكم . ويبدو الحاكم راضياً عنها ، وعما يقولان ، وقد اتخذ لنفسه في آخر عهده صفة التمجيد ومظاهر التأليه ، فأضر هذا الاتجاه بالإسماعيلية ، فقد ثار الشعب على ذلك واضطرب وهاج ، ولا ندري على الضبط ماذا

---

(١) دار العلم هي المكتبة الملحقة بدار الحكمة ـ المنقح .

حصل حوالي عام ٤١١هـ ، والذي نعلمه أن الحاكم خرج خارج القاهرة ولم يَعُدْ واختفى ، ولعل الفاطميين أنفسهم هم الذين دبّروا وسيلة إخفائه وقتله ، فقد أمست الحالة في آخر عهده لاتطاق .

الوضع العام بعد الحاكم :

وما أن اختفى الحاكم حتى تغيّرت الأمور ، وانقلبت بالنسبة للفاطميين ، وبدأ عهد الانحطاط بقوتهم السياسية . وقد يكون مردّ ذلك إلى أن العاقلين من الفاطميين ومن الوزراء والحريم ، رأوا أن من المصلحة أن تخمد فكرة التأليه ، وألا يكون على عرش الفاطميين رجل قويّ يفرض إرادته ويؤلّه نفسه ؛ فعمدوا إلى اختيار الأولاد الصغار الذين لم يبلغوا الحُلُم ، يوجهونهم وِجهتهم كما يريدون . ولعل ذلك الاختيار حصل عفواً فابن الحاكم - وهو **الظاهر** - كان صغير السن حين توفي والده ، لكن كثرة الخلفاء الصغار الذين تولّوا الحكم أمر يلفت النظر ، ولعله حدث عمداً وليس صدفة . هذا العهد الجديد هو **عهد الحريم** أولا ، ثم زال حكم الحريم فأتى **حكم الوزراء** ثم زال حكم هؤلاء فأتى **حكم قواد وزراء** على صفة الديكتاتورية ، ومع هذا الانحطاط السياسي كانت الحضارة مازالت زاهية قوية في بداية القرن الخامس ، وسنذكر حوادث العهد باختصار .

الفتن والأخطار في دور الانحطاط :

تولى **الظاهر** ، وكان صغيرا ، فحكمت أخت الحاكم واسمها **ست الملك** باسم ابن أخيها ، وسيّرت الأمور تسييراً حسنا ، لكنها لم تدم طويلاً على الحكم . ثم خلف الظاهر **المستنصر** ابنه ، فحكمت أمّه باسمه أيضاً ، ثم زالت أمه ، وحكم وزراؤه وظهر الاضطراب بعد ذلك بين المغاربة والأتراك ، وكثرت الفتن ، وامتدت ؛ ولم يستطع الخليفة أن يقف أمام هذه الفتن ،

وزالت هيبته ، ولم يجد حلاً لهذه المشكلة الطارئة التي لم يكن وزراؤه قادرين على حلّها ، إلا أن يستدعي ديكتاتوراً يقوم بالحكم ، ذلك الديكتاتور هو **بدر الجمالي** ، وأصله أرمني أسلم ، وكان يحكم في فلسطين ، وكان ذا قوة وشكيمة ومعرفة ؛ فسلّمه المستنصر قيادة الجيش والوزارة ، فحكم حكماً شديداً صالحاً ، وأعاد هيبة الخلافة ، لكنه لم يستطع أن يقف أمام تيار خارجي كان يهدد الدولة الفاطمية ، ذلك أن **الأتراك السلاجقة** أخذوا يدخلون إلى العراق ، ومن العراق إلى بلاد الشام ، وأخذ حكمهم في بلاد الشام ينتقل من مدينة إلى مدينة ، فينسحب الفاطميون أمامه . هذا وقد بدا إلى جانبهم تيار آخر أخذ ينتشر ويتقدم ، وهو **تيار الصليبيين** ، فهؤلاء تقدموا في ساحل سورية واستولوا على **بيت المقدس** نفسه ولم يبق في يد الخليفة الفاطمي إلا عسقلان ومدينة أخرى .

إصلاح بدر الجمالي وحضارة الفاطميين :

سوّى بدر الجمالي الحالة الداخلية في مصر ، وأصلح شأن الأمور المالية ، وقويت الحضارة قوة هائلة ، فوصلت إلى الذروة في عهد المستنصر ، ودام عهد المستنصر أمداً طويلاً . ولنا في وصف **ناصر خسرو**[1] في رحلته إلى مصر دلائل واسعة على قوة تلك الحضارة . ينبغي أن ننبّه إلى أن ناصر خسرو يصف لنا الفاطميين بمديح كبير ، ولعله مبالغ في وصفه ، ولعله وهو على مذهبهم أو شبهه دعا لهم دعوة كبيرة ، ونحن هنا نورد خلاصة عن وصفه لذلك العهد ، يقول ناصر خسرو :« إن في قصر الخليفة المستنصر ثلاثين ألف شخص يخدمون ، وإن للمستنصر على النيل إحدى وعشرين سفينة تنتظره لتنقلاته على النيل ، وكل واحدة منها طولها خمسون ذراعاً

(١) راجع المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار عن كنوز الفاطميين ـ المنقح .

وعرضها عشرون ، ويملك الخليفة عشرين ألف دكان وثمانية آلاف بيت يؤجّرها . أما الشعب فغني ، والدليل على غنائه أنه كان في القاهرة وحدها خمسون ألف بهيمة مسرجة تكرى في التنقلات في أنحاء البلد .. » يظهر لنا من كل هذا أن حالة الرخاء[1] كانت سائدة في عهد المستنصر ، ولو أن الحالة السياسية لم تكن متناسبة مع المستوى الحضاري .

الدولة بعد المستنصر :

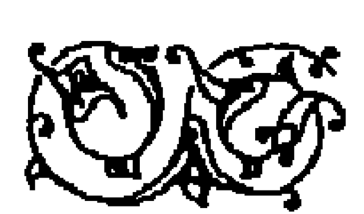
استمرت الخلافة الفاطمية يحكمها ديكتاتور ، فبعد بدر الجمالي حكم ابنه الملك الأفضل ، وهو الذي عيّن خليفة بعد المستنصر وهو **المستعلي** أخذه من صغار أبناء المستنصر ، وكان في ذلك سبب انشقاق في الإسماعيلية نفسها ، إذ انقسمت إلى مستعليّة ونزارية . كان نزار الابن الأكبر للمستنصر ، استبعده الملك الأفضل ، بسبب خلاف وقع بينهما في عهد المستنصر ، ووضع بذلك حجر العثار في سبيل تقدم تلك الدولة . ثم أتى خليفة قويّ لم يخول أحداً أن يلعب دوراً إلى جانبه ، وهو **الآمر بأحكام الله** ، قتل الملك الأفضل لينفرد بالسلطة ، إلا أنه كان سيئ الإدارة ، فلم ينفع بشيء . عادت الخلافة الفاطمية بعده تستعين بالوزراء والقواد ، فدخل مع **الفائز** رجل اسمه الملك الصالح وأصل اسمه **طلائع بن رُزِّيْك** ، ولم يَرقَ إلى درجة بدر الجمالي ، إلا أنه عمل ما في وسعه وجهده ، وواجهته مشاكل ، منها مجاعات كثيرة سبّبها انخفاض مستوى النيل ، فصار يصادر

---

(١) من الجدير بالذكر أن نلمح إلى الشدة العظمى التي حلت بمصر وبالعالم الإسلامي ؛ والتي استمرت ثماني سنوات بين ٤٤٦ ـ ٤٥٤هـ حيث عم القحط والوباء ، وانتشرت الجاعة في جميع الأرجاء حتى أكل الناس القطط والكلاب ، وكان يموت عشرة آلاف شخص كل يوم ، حتى اضطر المستنصر أن يبيع كنوزه ... كان هذا قبل أن يعهد المستنصر إلى بدر الجمالي بالسلطة سنة ٤٦٤هـ ـ المنقح .

الأموال ويضع الضرائب فساء حال الشعب ، وتدهورت الحالة الاقتصادية ، واضطرب الحكم .

أتى آخر الخلفاء الفاطميين **العاضد** وكان صغير السن ، وكان الحريم يتنافس على الحكم مع المتسلطين وأخيراً قتل الملك العادل رُزّيك بن طلائع ، ووثب إلى الحكم شاور حاكم قوص . كانت المشاكل في مصر كبيرة ، **فالصليبيون** بلغوا مصر ، والزنكيون مدّوا أيديهم ليمنعوا الصليبيين ، وجاءت المجاعات ، فاضطر الخليفة العاضد إلى أن يلجأ سنة ٥٦٣هـ إلى القائد الزنكي شيركوه[١] ، فعينه وزيراً له ، ومنحه السلطات الواسعة ليضع حداً لسوء النظام ؛ ثم خلفه صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٤هـ فحلّ محلّ شيركوه بعد وفاته . بعد أن مات العاضد نقض صلاح الدين الخلافة الفاطمية ، وقضى على المذهب الإسماعيلي[٢] ، ووحّد بين مصر والشام ، ثم قاتل الصليبيين ، فنجح في طردهم من بيت المقدس[٣] .



(١) هو عم صلاح الدين الأيوبي وهو من الأكراد ـ المنقح .

(٢) يرجع إليه الفضل في إعادة السنية مذهباً رسمياً ـ المنقح .

(٣) هذه الخلاصة عن نهاية العهد الفاطمي غير وافية . يمكن مراجعتها في نشوء الدولة الأيوبية في بحث آخر ـ المنقح .

آراء عامة عن عصر الحكم الشيعي

رأينا أن الخلافة العباسية استطاعت أن تخرج من غمرة فوضى الأتراك ، وأن تستعيد سلطانها ثم رأينا أنها عادت مرة أخرى ، فتعرضت لصعوبات جديدة ، وانتهى بها الأمر إلى أن استسلمت إلى الديكتاتورية بعد أن عجزت عن إدارة الأمور . ثم ظهرت دولة بني بويه ، وطغت عليها ، وظهرت قبل ذلك دولة بني حمدان ، فاستقلت عنها ، وظهرت بعد ذلك دولة الفاطميين ، وأسست حكماً سياسياً دينياً خلافياً جديدا . وهكذا رأينا أن العالم الإسلامي قد انضوى في معظمه تحت سلطان الدول الشيعية : بني بويه والقرامطة والحمدانيين والفاطميين والزيديين في جنوبي الجزيرة العربية . كيف حصل كل ذلك ؟ - لاريب أن هناك أسباباً بعيدة : إن آل عليّ - منذ نشأة الدولة الأموية - مازالو يبحثون عن طريق العودة إلى الخلافة ، فيثورون المرة تلو المرة ، ويبثون دعاتهم في أنحاء العالم الإسلامي ، ويتغلغلون في طبقات الشعب ، لكنهم كانوا يبوؤون بالفشل المرة بعد المرة ، إلا في ناحيتين في جنوبي بحر الخزر مع الزيدية مدة من الزمن لم تطل كثيراً ، وفي مراكش مع الأدارسة . هاتان منطقتان ضعيفتان ، لم يتغلغل فيهما حكم بني العباس . لجأ إليهما آل علي ، فاستطاعوا أن يكونوا حكماً مستقلاً فيهما . وعلى ذلك فإن كان ثمة أمل أمام آل عليّ ، فهو أن يلجؤوا إلى مناطق بعيدة وأن يكوّنوا دولاً فيها ، ثم يرتدوا على الدولة العباسية ، فيقضوا عليها ، إن أمكنهم ذلك . وهذا مافعلوه بالذات ، بعد أن أخفقت حركة الإمامة الزيدية ، حلّوا في بلاد الديلم في جنوبي بحر

الخزر ، ومكّنوا لأنفسهم في هذه المنطقة ، فاستمرّوا على نشر دعوتهم فيها ثم كونوا بها دولة البويهيين ، وساروا منها إلى بغداد . لجأ المتشيعون أيضا إلى أقصى المغرب في إفريقيّة ، فكوّنوا دولة الفاطميين العبيدية ، ومنها زحفوا إلى قلب البلاد العربية . وهكذا كان زحفهم من جهتين ، إلا أن الاتفاق بين الجهتين لم يكن تاما ، والمذهب مختلف بينهما ، فإحداهما إسماعيلية لم تقم على سواعد آل عليّ أنفسهم وهي دولة العبيديين الفاطميين ، والأخرى زيدية ، كانت نواة دولة بني بويه . امتدت دولة الحمدانيين المتشيعة من شمالي أراضي الخلافة العباسية ، فاستقلت عن تلك الخلافة في الموصل وحلب . وعلى هذا النحو استطاع الشيعيون هذه المرة أن يحكموا بلاد الإسلام ، ماهو السبب الذي مكن لهم أن يصلوا إلى هذه النتيجة ؟.

إن من أسباب نجاحهم حسن اختيار الستراتيجية ، إن صّح هذا التعبير ، فهم كما رأينا زحفوا من مناطق نائية إلى وسط الدولة ، لكن هذا الزحف لايكون موفقاً إلا إذا كانت الأسباب مهيئة له ، فكيف كانت التهيئة ؟ قام الشيعيون بدعوة كبيرة في العالم الإسلامي مافترت لحظة واحدة منذ بدأ العصر الأموي ، وامتدت هذه الدعوة في كل ناحية : في الأفكار والكتب والسياسة والاقتصاد وفي كل شيء ، وهذه الدعوة كانت منظمة غاية التنظيم ، اعتمدت بصفة خاصة على الفلسفة ، وكان لهذا الاعتماد على الفلسفة أثره الكبير ، فهي حاربت الفكرة السنّية من خلال الفلسفة ، وحاربتها أولاً عن طريق الاعتزال ؛ ولئن لم يكن المعتزلة أنفسهم شيعة محضاً ، إذ كانوا أكبر من ذلك كانوا مدافعين إجمالاً عن الإسلام ، فإن الشيعة مالأتهم ، وسارت مع الاعتزال ودفعته في عهد الدولة الأموية ، وفي أول عهد الدولة العبّاسية ، ولما لم يذعن الاعتزال لها كما كان يراد منه ، انتقلت منه

إلى فلسفة جديدة ، فلسفة تخالف الاعتزال ، وهي الفلسفة **الأفلاطونية الحديثة** ، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة **تعتمد على العاطفة** أكثر مما تعتمد على العقل كما يريد المعتزلة ، والاعتماد على العاطفة في الفلسفة الأفلاطونية الحديثة كان ملائماً لروح التشيّع ، عاطفة في أصله ، وهو دعوة إلى أهل البيت ، أولئك الذين تلقّو الضربات الشديدة خلال تاريخهم ، فوقع منهم الشهداء في كل مكان . إن هذه العاطفة ليست كل شيء في المذهب الأفلاطوني الحديث فهو يستند إلى المعرفة ، واستمد الشيعة من هذا المذهب طرائقهم في البحث ، **فبنوا مذهبهم على أصول في المعرفة** ، وعلى ضروب من العاطفة ، فاجتمع لهم بذلك أسلوب فلسفي ديني ، أقاموا عليه دعوتهم ، وهذا الأسلوب قريب من نفوس الناس ، لاسيما منهم الذين أقاموا في العراق منذ قديم الأزمنة قبل الإسلام ، ولم يكونوا عرباً ، فهؤلاء هم بالأصل غنوصيّون ، **والغنوصيّة**[1] **مذهب فلسفي يعتمد على المعرفة** ، والغنوصيّة باعتمادها على المعرفة وتفسيرها للكون يمكن أن تنضم إلى الأفلاطونية الحديثة ، فتكون كتلة واحدة ، ترأستها فرقة الشيعة المتطرفة ، فجعلت منها أساس مذهبها . هذا المذهب القريب من نفوس الناس ، إذا اجتمعت معه دعوة منظمة دقيقة ، آل أمره إلى النصر . وهكذا أخذ الشيعة يدعون دعوتهم ، وابتدأت الدعوة تنتشر في العالم الإسلامي فساعدت مساعدة كبيرة على التمهيد ، لتظهر الدعوة الشيعية في ميدان السياسة ، وخلاصة القول إن الشيعة استندت على عنصرين قويين : الاستراتيجية الصالحة ، والدعوة الفلسفية الناجحة .

---

(١) الأستاذ أحمد أمين في فجر الإسلام ص ١٢٧ ذكر هذا التعبير (الغنوسطية) والدكتور فيليب حتّي (٢ / ٥٢١ و ٥٢٢) ذكره (الغنوستية) وهي **عقيدة مذهب المعرفة** بالله عند الصوفيين . ينسب المذهب إلى كلمة gnose ومعناها (المعرفة والدراية) ـ المنقح ـ.

نعم إن السبب الأساسي الذي أوصل الشيعة إلى النصر السياسي هو ضعف الدولة العباسية ، لكن ضعفها ليس كل شيء في الميدان ، فما كان بإمكان الشيعة أن تتغلب عليها إن لم تكن دعوتها قد صارت وعمّت وتمكنت في نفوس الناس .

رد الفعل عند أهل السنة :

بعد أن تمّ للشيعة هذا الانتصار على السنّية ، ماذا فعل أهل السنة ؟ هل قبلوا بالأمر الواقع ؟- إنهم قبلوا بذلك من وجهة النظر السياسية ، فهم قد خضعوا للتشيّع من أقصى البلاد الإسلامية إلى أقصاها ، لكنهم من الناحية الفكرية والدينية لم يخضعوا له ، بل حاربوه في مهده . والواقع أن الشيعة حينما استولوا على العالم الإسلامي ، هيّؤوا وسائل الدعوة وهي العلم والكتب ، فنشروا ذلك في كل مكان ، وأسسوا دور العلم ووقفوها على العلماء ، وأنفقوا عليها الأموال الضخمة ، وقبلوا في هذه الدور أهل العلم السنيين إلى جانب الشيعة ، وغايتهم من ذلك أن يدخلوا في فكر علماء السنة مذهب التشيع ، لكن هؤلاء عرفوا الخطة ، وعرفوا ما عليهم أن يفعلوه ، فأخذوا يجادلون الشيعة ، وينتصرون للسنية من الناحية العلمية ، ويكافحون كل فكرة مغالية .

أسلوب أهل السنة في محاربة الشيعة :

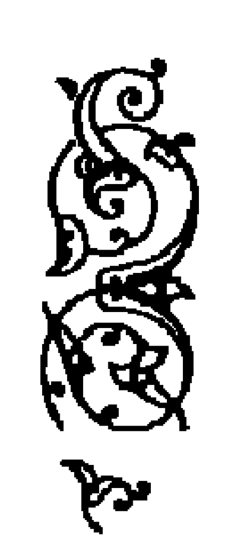
ثم رأوا أن خير طريقة لمحاربة التشيع الفلسفي هي ضربه من الناحية الفلسفية ، وكما تعلمون أسس **أبو الحسن الأشعري** مذهبه الكلامي الذي ضرب به المعتزلة ، فوقف الأمر بعض الشيء عند ما وضعه الأشعري ، واستولى الشيعة على الدولة الإسلامية . رأى أتباع الأشعري الفلسفة الشيعية تنتشر ، فنصبوا أنفسهم لضربها بالفلسفة الكلامية المبنية لا على المذهب

الأفلاطوني الحديث العاطفي ، بل على أساس الفكر الفلسفي المنطقي ، على طريقة أرسططاليس ، أي أنهم حاربوا التشيع الأفلاطوني بالأشعرية المنطقية ، والذي حمل لواء هذا الدفاع هو **محمد بن الطيب الباقلاني** ، (المتوفى سنة ٤٠٢) فهو الذي كان يستعيذ الشيعة منه ، وهو الذي وضع **نظرية الجوهر الفرد** ، تلك النظرية المبنية على المنطق الأرسططاليسي ، والتي ليس من شأننا أن ندخل في تفاصيلها . وعلى هذا النحو وقفت أمام الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، فلسفة منطقية ، وحصل الصراع بين الاثنين ، وكانت الغلبة للفلسفة المنطقية الأشعرية الباقلانية ، ودخلت هذه الأشعرية كل دور العلم التي أنشأها الشيعة ، فنحن نرى في بغداد مثلاً **دار العلم لسابور** ، وهي مقّر أهل السنة ، مع أن رؤساءها من الشيعة ، ونرى **دار العلم في حلب لسيف الدولة** وأهل السنة هم المستبدون فيها ، ونرى **دار العلم في القاهرة** وأهل السنة يبثون مذهبهم فيها ، حتى أن مؤسس هذه الدار وهو **الحاكم بأمر الله** اضطرب لذلك كل الاضطراب ، فأقفل الدار مرة ، وأعادها بأسلوب شيعي فاطمي ، فعاد أهل السنة إليها مرة ثانية ، وأخذوا ينشرون مذهبهم فيها ، ثم إن الفاطميين أعطوها صيغة شيعية ، ووضعوا فيها داعي الدعاة ينشر فيها المذهب ، لكن هذا الأمر لم ينجح أيضاً ، فاضطروا إلى إقفالها ، وأعادوها بعد ذلك في مكان آخر بعيد عن قصرهم ، لئلا تفسد عليهم أمورهم .

حارب المتكلمون إذاً الشيعة بسلاحهم ، فتغلّبوا عليهم من الناحية الفلسفية ، أما من الناحية السياسية فلم يستطع الشيعة في شرقي الدولة الإسلامية جعل الدولة شيعية ، وقصّر البويهيون ـ كما رأينا ـ عن حكم الدولة العباسية حكماً صالحا ، واضطربوا وضعفوا أمام عنصر جديد سنّي أتى

من المشرق وهو عنصر **السلاجقة** ، فقد هيأ أهل السنة أنفسهم في شرقي العالم الإسلامي ببعث السنّية بين الأتراك السلاجقة على **المذهب الأشعري الباقلاني** ، وسار هؤلاء إلى بغداد ، فقضوا على حكم البويهيين فيها . أما الفاطميون فقد استطاعوا أن يكوّنوا خلافة ، لكن هذه الخلافة كانت ذات صفة سياسية فقط ، وما كانت تستطيع أن تفرض مذهبها على الشعب ، فبقي الشعب في طرف وهي في طرف آخر ولم تستطع أن تحكم البلاد التي استولت عليها في سورية ، وجابهتها حروب الصليبيين ، فاضطربت أمام ذلك ، وكان أن استولى صلاح الدين الأيوبي على الحكم فيها ، وقرض دولتها ، وأسس السلاجقة المدارس على مذهب الأشعري ، وجعلوها مكان دور العلم ، فهزمت المدارس دور العلم ، كما هزمت السنية التشيّع .

هذه هي الخلاصة عن عصر التشيّع ، وهو عصر سادت فيه الفكرة الأفلاطونية الحديثة تحت ظل الحكم الشيعي ، إلا أن أهل السنة لم يلقوا سلاحهم فيه ، فأخذوا يناضلون حتى هزموا أصحابه في مدة لم تتجاوز المئة عام .



وثائق الحضارة العربية الإسلامية :

بلغت الحضارة العربية الإسلامية أوجها ، فازدهرت ازدهاراً عظيماً لا مثيل له في العصر العباسي . إن المستوى الحضاري يقاس بالآثار المكتوبة الفكرية (يعني الكتب والتآليف) ، ولو رجعنا إلى مادة الفكر والتأليف لرأينا العرب بلغوا من الدرجات ما لم يبلغ الغرب مثلها إلا في العصر الأخير ، ولنأخذ على ذلك مثالاً يوضح الأمر : هذا عالم من علماء الأندلس عاش في القرن الثامن الهجري ، هذا العالم وجد عند طالب من طلاب العلم كتاباً عليه : المجلد السادس والخمسون من فهرس الكتب ، وليس هذا المجلد الأول والأخير من بين أجزاء الكتاب ، والمجلد مؤلف من نحو أربعمئة ورقة ، أي نحو : ثمانمئة صفحة ، وليس فيه إلا ذكر أسماء الكتب ، مع أسماء المؤلفين ، ونسبهم وألقابهم ، وتاريخ وفاتهم . هذه الطريقة اتبعها حاجي خليفة صاحب « كشف الظنون » في تعداد أسماء الكتب . إذا حصرنا عدد الكتب التي ذكرت في هذا المجلد بلغت أكثر من ستة عشر ألفاً من الأسماء ، ولو فرضنا أن الكتاب يكمل بهذا المجلد ، فتكون الكتب المذكورة في المجلدات جميعها أكثر من مليوني كتاب . ذلك العدد يدل على الكتب التي ألفت حتى القرن الثامن للهجرة ، باللغة العربية ، وهو عدد ـ كما ترون - ضخم ، ولو قارنّاه بما يؤلف اليوم في أوروبه لوجدناه ينافس تآليف الغرب في الكمية ، فلو أخذنا من بلاد الغرب عدداً من النفوس يعادل عدد ما كان في بلاد العرب في العصر العباسي ، لوجدنا أن هذا العدد لا يخرج اليوم كل

عام من الكتب العلمية دون الروايات أكثر بكثير مما كان يخرجه العرب .
فالعرب في الماضي كانوا يخرجون حسب هذا الإحصاء أكثر من ألف وخمسئة كتاب كل عام ، فمقابلة ثقافتنا بثقافة الغرب من ناحية الإنتاج ، تدلنا على درجة عظيمة ليس لأحد أن يمتهن حق العرب بها .

تراكم الحضارة العربية الإسلامية من خلال العصور :

هذه النهضة لم تبدأ في العصر العباسي نفسه ، بل كانت جذورها قبل ذلك ، فقد كانت نامية منذ العصر الأموي ، وعلينا أن ننفي ما يقال عن ذلك العصر ، من أنه عصر رواية شفوية ، فذلك ليس بصحيح ، وقد كتب العلم في عهد الرسول ﷺ ، وأذِنَ الرسول ﷺ بكتابته لبعض الصحابة ممن يستطيعون التمييز بين الوحي وغيره ، ثم كان في عصر الصحابة الأولين صحف للعلم يتداولها الناس ، منها صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وهي الصادقة ، وصحيفة في قرابة سيف علي ، وصحيفة جابر الطويلة ، وصحيفة فيها علم الفرائض كتبها زيد بن ثابت الأنصاري ، ثم صار الحديث يُتناقل في الصحف ، حتى إذا أتى عصر المروانيين ، رأينا عدداً كبيراً من العلماء يؤلفون ، ويجمعون الكتب ، ويتدارسون الصحف ، ويؤلفون في التاريخ ، ويترجمون من اللغة السريانية إلى اللغة العربية ، حتى إذا انتهى عصر الأمويين كان هنالك مجاميع كثيرة من الكتب يعرفهاالناس ، إلا أنها مجاميع غير مرتبة ، لم تصنف على أسلوب دقيق ، ومن ثَمّ يصح القول بأن التصنيف ابتدأ في العصر العباسي ، ومعنى هذا أن تصنيف الكتب على أسلوب دقيق منظم بدأ في العصر العباسي ، إلا أن الكتابة والتأليف والجمع حدث قبل العصر العباسي ، وأياً كان الأمر فالحركة في العصر العباسي كانت قوية بدرجة تذهل الإنسان : فهذه **البصرة** تؤلف الكتب وتستخرج

الآراء ، وتضع النحو ، وهذه **الكوفة** تكتب في التاريخ والأدب ، وتؤلف في النحو ، وهذه **بغداد** تضم خضماً هائلاً من العلماء ، يتكاثرون في المساجد ويكتبون العلم ، حتى إذا وصلنا إلى عصر المأمون ، رأينا معظم المتعلمين ينكبّون على التأليف ، وعلى إخراج الكتب . . كل ذلك كانت خميرته مهيأة في عصر بني أمية ، ثم نضجت تلك الخميرة في العهد العباسي ، وأدت إلى ما أدت إليه .

أصول الثقافة القديمة :

لدرس ثقافة ذلك العصر وتياراته المختلفة ، يجب علينا أن نمهد البحث في وضع البلاد قبل الإسلام : فبلاد الشام والعراق وفارس ومصر كانت مهداً لثقافات كبيرة واسعة ، هنالك مدارس قديمة يعرفها الناس ، كانت تؤلف فيها الكتب وتترجم : اشتهرت منها مدرسة **الرُّها** ، **ونَصيبين** ، **وحرّان** ، وفي مصر مدرسة **الاسكندرية** ، وفي العراق مدارس للصابئة ، وفي فارس مدرسة **جُنْدَ يْسابور** . كانت هذه المدارس تتفاعل بثقافة يونانية وبعلوم دينية مسيحية ؛ وكانت أشهر هذه المدارس **الاسكندرية** ، وهي مدرسة للطب ولعلوم اليونان . وقد أحدثت هذه المدرسة مذهباً فلسفياً جديداً دعي **بالمذهب الأفلاطوني الحديث**[1] ، استفاد منه العرب كثيرا ، وتدارسوه ، وأثّر في ثقافتهم ، وأثّر بصفة خاصة في فِرَق الباطنية وعند أصحاب التصوّف . أما مدارس سورية فقد نقلت الكتب اليونانية إلى السريانية ، فاطلع علماء العرب والإسلام بواسطتها أولاً على

---

(١) الاسم الحقيقي لمؤسس المذهب أفلوطين من علماء الإسكندرية . عندما اطلع العرب على فلسفته ظنوه أفلاطون اليوناني القديم ، ثم تعرفوا على الفرق بين فلسفة القديم والحديث ، فاصطلح الباحثون على تسمية الفلسفة الأفلوطينية بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة ـ المنقح .

آثار اليونان واستفادوا منها في مختلف العلوم ، وقدمت مدرسة جُنْدَ يْسابور عدداً كبيراً من الأطباء للدولة العباسية فترجموا كتب الطب وألّفوا فيها .

بيوت العلم :

كيف استفاد خلفاء بني العباس حتى عصر المأمون من هذه المدارس ، وكيف نشطت في عهودهم حركة التأليف والترجمة ؟ - إنهم فعلوا ذلك بالاتصال بعلماء هذه المدارس ، فقد كانوا يستدعونهم إلى بغداد ، وينفقون عليهم الأموال لترجمة الكتب إلى اللغة العربية ؛ وقد وضع نظام دقيق لهذه الحركة العلمية ، لذلك فإنه ما حلّ عصر المأمون حتى كان قد ظهر في بغداد ما سمي بـ « **بيت الحكمة** » . كان أُسّس نواة هذا البيت في قصر الخلافة نفسه منذ عهد هرون الرشيد ، لكنه تكامل حتى أصبح بيت الحكمة وصار يجمع بيوتاً كثيرة تترجم فيها الكتب وتؤلف ، وتقام بها المراصد وتستخدم فيها أساليب التنجيم ، هذا البيت توسّع ، وأخذ شكله النهائي في عصر الخليفة المأمون ، فقد وضع عليه الحفّاظ ، وأتحفه بالمترجمين والعلماء ، واستطاع الخليفة أن يجعل من هذا البيت كعبة العلماء ، وأن ينظّمه التنظيم الدقيق ؛ وقد عُرف هذا البيت باسم المأمون ، واشتهر به .

اقتناء الكتب اليونانية :

إذا بحثنا في تنظيم بيت الحكمة من ناحية الترجمة ، أدركنا كيف تمّ للعرب ذلك الشأن من المعرفة والعلم . أرسل المأمون قبل كل شيء بعثة إلى بلاد الروم لتحضر له كتب اليونان المخزونة ، وكان الروم آنذاك لا يُعنون بها ، وقد أقفلوا عليها الأقفال ، فاستخرجتها هذه البعثة وعادت بها إلى بيت الحكمة ، وكان المأمون قبل ذلك قد طلب عدداً من الكتب من بلاد

الروم أرسلت إليـه ، ثم إنـه هـادن ملـك قبرص على أن يعطيـه خـزانـة من الكتب كانت لديه .

حركة الترجمة :

نظّم المـأمون عمـل الترجمـة ، فـوضـع عليهـا أمينـاً وهـو **يـوحنـا بن البطريـق** ، ووضـع بين يـديـه الكتّـاب الحـذّاق العـارفين بـالسريـانيـة واليونانيـة ، وأحضر كبـار المترجين ، فكان الكتّـاب يترجمون الترجمـة الأولى إلى السريـانيـة أو العربيـة ، ويحرّر الترجمـة المترجمـون أنفسهم من أصحـاب الاختصاص في مادة الكتـاب ؛ لكن الأمر مـا كان يقتصر على ذلـك ، فـإلى جانب هؤلاء وهولاء ، وضع مصحّح للغة العربية وهو **حنين بن إسحاق** ، ينظر في النسخة الأخيرة ، من حيث اللغة ، وكان عـالمـاً بـاللغـة العربيـة ، تلقّاها في البصرة عن كبار علمائهـا . على هـذا النحو خرجت الكتب تتوالى مترجمـة مصحّحـة في نسخهـا الأخيرة ، وكان قسم منهـا قـد ترجم في عهـد الرشيـد ، فـأعيـدت ترجمتـه لتكون أصحّ وأدقّ ، ولتكـون مبنيّـة على نسـخ أصيلة قديمة وردت من بلاد الروم .

ترجمت إلى العربيـة كتب **أرسطـطـاليس** ، ومعظمهـا في **الفلسفـة والمنطـق** ، وكتب **أقليـدس** في **الريـاضيـات** ، وكتب **بطليمـوس** في **الكواكب والنجوم والفلك** ، وكتب **جالينوس وإيبقراط** في **الطب** ، كما ترجم من اللغات الفارسية والهـنـديـة عـدد من الكتب في عصر الرشيـد ، وترجم من كتب التاريخ الفارسية عدد آخر في عصر المأمون .

تمازج الثقافات :

زخرت خزائن بيت الحكمة بـالكتب المترجمـة ، وأقبل النـاس على قراءة هذه الكتب والتمعّن فيها ، فـأدّى كل ذلـك إلى حركـة فكريـة جـديـدة في

التأليف والنشر ، هـذه الحركـة أنتجت ثقـافـة واسعـة مبنيّـة على القـديم والحديث . منذ اطلع العرب المسلمون على الثقافات القديمة حصل مـا يسمى بتمازج الثقـافـات ، وقـد أنتجت هـذه الحركـة الثقـافـة العربيـة الإسـلاميـة الحديثة ، أخذ بها المثقفون الجدُدُ ؛ ولكن لا يعني هـذا أن كلّ النـاس أقبلوا عليها بدرجة واحدة وبمستوى واحد .

يقال : إن هذه الكتب ، وتلـك الـدراسـات آلت في آخر عصر المـأمون إلى حركـة تعصّب من المـأمـون نحـو الفكر ، ونحـو المنطـق ، وتمثّلت تلـك الحركـة **بـالقول بخلق القرآن** . الواقع أن المـأمـون وقف في هـذه الحركـة موقفـاً متعصبـاً ، متزمّتـاً متشـدّدا ، مع أنـه كان عليـه أن يترك للنـاس حريتهم ، في التفكير . لقد حصلت في ذلك العصر محنة الفكر والعلم ، أتت على يد رجل هو قائد العلم والفكر ، هو المأمون الذي أحـدث تلـك النهضـة الهـائلـة ، وذلـك من غرائب الحركات الفكريـة (التحـوّل من الشيء إلى نقيضه) .

وبعد فيجب علينا ألاّ نبالغ في أثر ذلك الخضمّ من الأفكار التي تمازجت بعضها مع بعض من فارسية ويونانية وهندية ويهوديـة ونصرانيـة ، فـإن أثر هذه الأفكار المتمازجة لم يتجاوز حداً معينا ، مهما كانت سعة تلـك الحـدود ، ولننظر في أثر كل من الثقافات التي ذكرناها ، ولنبدأ بالثقافة الفارسية .

أثر الثقافة الفارسية :

لا ريب أن الثقافة الفارسيـة أثّرت في الأدب العربي ، وطبعتـه ببعض الطابع ـ فالأدب ـ لا سيما منه الرسائل ـ كان في أيـدي الوزراء والكتّـاب ، فكان معظمهم من الفرس ، وتأثّر الشعر أيضاً بالآداب الفـارسيـة القـديمـة ، وبالعقلية الفارسية القديمـة ، فظهر فيـه في القرن الثـاني أشعـار سبكت على

الطريقة المزدكية الفارسية ، وأشعار تصوّف وزهد قرضت على الطريقة المانوية ؛ وظهرت في الكتابات الأدبية قصص أنشئت على النحو الفارسي ، ذكرت فيها حكم فارسية أيضا . ظهر أثر آخر للفرس في سياسة الملك وتاريخ الأمم ، فقد اطلع خلفاء بني العباس على تاريخ ملوك الفرس وتنظيماتهم ، واتبعوا بعضها .

أثر الثقافة الهندية :

أما الثقافة الهندية ، فقد أثرت أيضاً في الثقافة العربية عن طريق علوم الرياضة والطب ، وخاصة في علم النجوم . ترجم للمنصور منها كتاب (السند هند) . أثرت الثقافة الهندية في الفكرة الدينية ، وطبعت بطابعها بعض المذاهب : من حيث الأخذ بفكرة الحلول والتناسخ أي بأن الأرواح تنتقل من جسم لآخر ، ومن حيث الزهد بهذه الحياة على الطريقة الهندية التنسّكية .

أثر الثقافة اليونانية :

أما أثر الثقافة اليونانية ، فواسع في الفلسفة والمنطق خاصة ، أخذ العرب فلسفة اليونان من كتبها ، حتى أن عدداً من كتب اليونان القديمة لا يوجد الآن إلا باللغة العربية أو مترجم عن العربية . دخل منطق اليونان في الفكر العربي الإسلامي ، وتجلّى به ، وناقش الناس المسائل على طريقة المنطق اليوناني ، وقد ذكرنا أن الأفلاطونية الحديثة أثّرت في حركة التصوّف ، ولا سيا بفكرة الفيض والإشراق التي قالت بها . لليونان أثر آخر كبير في علم الطب والهندسة والميكانيك (علم الحيل) والكيمياء . . . وما أشبه ذلك .

أثر الثقافة اليهودية :

أما الثقافة اليهودية ، فقد أثرت بإيراد القصص التوراتية وتفاسير التلمود ، فأقبل المفسرون على هذه الأخبار ، علّها تبيّن لهم تفسير قصص القرآن . وبالغ بعضهم في ذلك ، فنشأت تفاسير دخلت فيها نزعات يهودية ، وأقاصيص إسرائيلية . فكان أن تأثر بعض المسلمين ببعض آراء اليهود عن صفات الله ، فأثاروا فكرة التشبيه والبحث بالصفات ، وصار المعتزلة وغير المعتزلة يبحثون في ذلك ، حتى انتقل الأمر إلى القول بخلق القرآن .

أثر الثقافة المسيحية :

وفي ميدان الثقافة المسيحية ، نرى تأثيراً في الأدب وفي الشعر ، فقد كان شعراء النصارى في العهد الأموي قد لعبوا دوراً مهماً في الشعر ، وامتد أثرهم إلى العصر العباسي ، فظهر أثر الرهبنة والأديرة في أقوال بعض الشعراء وفي اتجاهات بعض المتصوّفة .

☆ ☆ ☆

هذه هي خلاصة آثار الثقافة الأجنبية في الثقافة العربية الإسلامية ؛ ولو أردنا الآن أن نقارن بين هذا الأثر وبين التراث الإسلامي العربي في مجمله ، لوجدنا أن المزيج الذي حصل ليس كما يدعيه المغرضون من أنه ثقافة أصولها غريبة أجنبية دون جديد وابتكار . إن الأمر على عكس ذلك ، فالكفة الراجحة في هذا المزيج هي **الثقافة الإسلامية** من جهة **والثقافة العربية** من جهة أخرى : ففي الفقه وعلوم الحديث لا شك أن الثقافة الإسلامية هي الأصل ، ولو أنه حصل استفادة من مناهج الثقافات

الأخرى ، أما الشعر والأدب العربي فلم يتقبّل إلا ما يوافق مزاجه ، واستبعد كل شيء يخالف ذلك المزاج ، ويتعارض مع العقلية الإسلامية ؛ فلم يأخذ مثلاً بأدب اليونان الأسطوري ، لأنه يخالف العقلية العربية .

نعم إن أثر الثقافات الأجنبية ظهر في علوم الأوائل كالطب والرياضة والفيزياء والكيمياء ، ولكن أية أمة لا تنقل هذه العلوم عن غيرها ؟ - إن كل أمة ملزمة بأن تنقل عمن سبقها تجاربهم في هذا الميدان ، وكل أمة تختلف عن غيرها في أنها تحدث أو لا تحدث الجديد المبتكر ؛ والجديد المبتكر في العلم العربي الإسلامي كثير ، كما سنرى في أبحاثنا التالية . ولنأخذ منذ الآن مثلاً سريعاً عن المزج الذي حصل ، ونجد هذا المثل مبيّناً في علم الكلام ، فصبغة الامتزاج بين الثقافات المختلفة العربية والإسلامية والأجنبية تظهر بصفة خاصة فيه ، وهذا ما يثبته أستاذنا المرحوم أحمد أمين في ضحى الإسلام . وبعد فعلم الكلام وإن أخذ من الثقافات الأجنبية ، فقد كان في مزاجه وروحه إسلامياً عربيا ، لا نجد فيه أثراً للترجمة ، ولا نجد فيه أثراً لعناصر المزيج الأولي ، بل هي تتّحد [1] فيه بمزيج جديد وبخلق مبتكر ، امتزجت به أصول الفكر الإسلامي العربي الخالص الذي أنتجه العصر الأموي ، فظهر في تأليف **واصل بن عطاء** (توفي في أواخر العصر الأموي أو في أوائل العصر العباسي مباشرة) ثم امتزجت بتلك الثقافات الواسعة ، لكنها ظلت بالرغم من ذلك ذات لون إسلامي عربي واضح ، بل كانت أساساً لفلسفة إسلامية مبتكرة ؛ وفي هذا دليل على ثقافتنا الناتجة عن المزيج ، ثقافة خالصة من شوائب الاختلاط غير المستقيم ، هي ثقافة لها طابعها ومزاجها الخاص .

---

(١) يمكن أن نقول في هذا الصدد إن العرب المسلمين بعدما اطلعوا على الثقافات القديمة وفهموها وأدركوها ، هضموها هضماً جيداً ، فأعطوا نتاجاً ملوناً ، لكنه نتاج عربي إسلامي أصيل - المنقح .

أثر العرب في العلم

سندلّل في هذا البحث على الدعوى التي أوجزنا القول فيها سابقاً من أن ثقافتنا القديمة ثقافة مبتكرة . وليس أصلح في السبيل الذي نحن فيه من أن نبيّن أثر العرب في التراث العلمي الإنساني . ونحن حين نقول **العرب** ، لا نقصد العرب عنصراً صافيا ، بل كل من **كتب باللغة العربية** ، ففي رأينا أن كل من تكلم بالعربية وامتزج بالتاريخ العربي كان عربيا .

مضى عهد على الأوربيين كانوا ينظرون فيه إلى العرب نظرتهم إلى شعب غير ذي حضارة ، وكانوا يدّعون أن العرب لم يأتوا في حضارتهم بالشيء الجديد ، بل ساروا على طريقة اليونان والأمم السابقة ، نقلوا حضارتها دون أن يدخلوا فيها جديدا ، وهذا الرأي بني على التعصب والقصد الاستعماري ، فالتعصب ضد الإسلام والعربية كان يدعو الغربيين في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين إلى أن يمتهنوا حق العرب في الإنتاج العلمي ؛ وكان الاستعمار يدفعهم في الوقت نفسه إلى أن لا يعترفوا بأن للعرب قيمة علمية حضارية ؛ لأن اعترافهم بهذه القيمة يجعل تدخلهم في أراضيهم تدخلاً لا معنى له ، ويبطل دعواهم من أنهم جاؤوا إلى بلاد العرب لابلاغ الحضارة إليهم ، ولتعليمهم . من الواضح أنه إذا كان العرب متحضرين ، ولهم أثر قديم في العلم ، فإنهم يكونون بالتالي بغنى عن سادة يحكمونهم ليرفعوا مستواهم .

على كل فقد انقضى عهد الاستعمار ، ونحن اليوم في عصر أخذ الغربيون يعترفون بمكانة العرب وبمكانة الحضارة العربية الإسلامية ، وأخذوا يقرّون

بالجديد الذي أحدثته تلك الحضارة ؛ وإن استشهادنا بأقوالهم خير دليل لنا ، سنبدأ بإيراد جملة مختصرة عن أثر العرب في العلم والتقدم الفكري .

إن أكبر أثر للحضارة العربية الإسلامية العلمية هو في الطب والفلك والرياضيات والجغرافيا والتاريخ ، إلى جانب آثارهم الدينية غير الدنيوية . **إن الذي دفع المسلمين إلى العلم** ، والأخذ بالعلم ، إنما هو **القرآن الكريم** ، دفعهم إلى المشاهدة ، وإلى النظر في هذا الكون ، وإلى استعمال العقل ، وإلى فهم خفايا **الأشياء** ، بثّها الله في هذا الكون ، فالمشاهدة والنظر في القرآن أمران يحضّ عليهما في مناسبات عديدة ؛ **والمشاهدة** إنما هي مفتاح العلم ، ومفتاحه الثاني **التجربة** ؛ والتجربة أخذ بها العرب ، وعملوا بها ، وأدخلوها في علومهم ، فتهيأت لهم فتوح في العلم عديدة ؛ والإسلام حضّهم على دراسة الطب بل إن الرسول - ﷺ - كان يقول الكثير في الطب ، حتى جُمع ما قاله في كتب ، سميت **بكتب الطبّ النبوي** ، ومن أحسنها كتاب **(الطب النبوي) لابن قيّم الجوزية** . دعا الإسلام العرب والمسلمين إلى دراسة **الحساب** فهو أساس لا تتمّ الفرائض إلا به .

بعد هذه المقدمة الموجزة نستطيع أن ندخل في البحث ، فننوّه بكل علم على حدة ، ونبين جوانب الاكتشاف والابتكار الجديد الذي تمّ فيه .

الطب :

عني العرب بالطب عناية فائقة ، وأسسوا له المستشفيات ، وكانت تسمى **البيمارستانات** ، أسسوها منذ عصر الوليد بن عبد الملك في دمشق ، ثم توسعت توسعاً كبيرا ، وأضفى عليها خلفاء بني العباس أبّهة عظيمة . أسس هارون الرشيد **البيمارستان الكبير** ببغداد ، أسسه على طراز البيمارستانات الفارسية . وكان في البيمارستانات خزائن للأدوية والأشربة .

اختيار مكان المستشفى :

عُني المسلمون باختيار الأماكن الصالحة للمستشفيات ، وكانت لهم طرائق عجيبة في ذلك ، فقد ذُكر لنا أن عضد الدولة البويهي أراد أن يبني بيارستانا في بغداد ، فانتدب لذلك **أبا بكر الرازي** ، فبحث الرازي عن مكان يقيم به ذلك المستشفى على الوجه الآتي : أحضر قطعاً من اللحم الغريض ، فألقاها في أماكن مختلفة من بغداد ، ثم رجع إليها بعد أيام ، فاختار المكان الذي لم تفسد قطعة اللحم الملقاة به . تلك هي طريقة صالحة في اختيار الهواء العليل الصافي الصحّي .

فحص المتطببين :

عُني العباسيون بأن يكون الأطباء قديرين في طبهم ، ويذكر لنا بهذه المناسبة خبر طريف في **طبقات الحكماء لابن القفطي** الصفحة ١٣٠ من الطبعة المصرية : « وفي سنة تسع عشرة وثلاثمئة ، اتصل بالمقتدر أن رجلاً من الأطباء غلط على رجل فمات ، فأمر بابطيحة [1] محتسبة بمنع جميع الأطباء إلا من امتحنه سنان [ابن ثابت الحراني ، وكان شيخاً كبيراً من مشايخ الأطباء] وكتب له رقعة بما يطلق له التصرّف فيه من الصناعة ، وأمر سنانا بامتحانهم ، وأن يطلق لكل واحد منهم بما يصلح أن يتصرّف فيه من الصناعة ، وبلغ عددهم في الجانبين من بغداد ثمانمائة ونيفاً وستين رجلا ، سوى من استغنى عن امتحانه باشتهاره بالتقدم في الصناعة ، وسوى من كان في خدمة السلطان . . . » .

---

(١) يبدو معناها في النص وكأنها (تعميم) أو (تحذير) يصدر من المحتسب لمنع المتطببين الدجالين أن يمارسوا مهنة الطب دون الحصول على إذن ـ المنقح .

المستشفى المتنقل :

امتدت العناية أكثر من ذلك أيضاً ، فهذا علي بن عيسى بن الجراح (وزير المقتدر) يكتب إلى سنان ما يلي (في طبقات ابن القفطي صفحة ١٣٢) قال : « . . . فكرت فيمن بالسواد من أهله ، وإنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم ، لخلوّ السواد من الأطباء ، فتقدّمْ ـ مدّ الله في عمرك ـ بإنفاذ متطببين وخزانة من الأدوية والأشربة ، يطوفون في السواد ، ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم ، ويعالجون من فيه ، ثم ينتقلون إلى غيره . ففعل سنان ذلك » .

الصيدلة :

العرب هم أول من أحدث دكاكين لبيع الأدوية التي كانت تسمى **بالأقرباذين** ، وقد عُنوا بالأدوية ومفردات الطب عناية كبرى ، فهم كانوا يرون أن المعالجة يجب أن تتم على طريقة التداوي الصحيح ، بل كان **ابن وافد الأندلسي** يعالج الناس علاجاً صحيحاً يشفون به على يديه ؛ فسئل بماذا نجحت صناعتك ؟ فقال : « الذي ميّزني بها وجعل شفاء الناس على يدي أكثر من غيري ، هو أني إذا أتاني مريض ، ورأيت أن شفاءه بالغذاء والحمية ، عالجته بالحمية ، وإن وجدت أنه لا يشفى بذلك ، عالجته بالنباتات والأعشاب ، وإن لم تكن معالجته بذلك ، عالجته بالأدوية الكيماوية المركبة » .

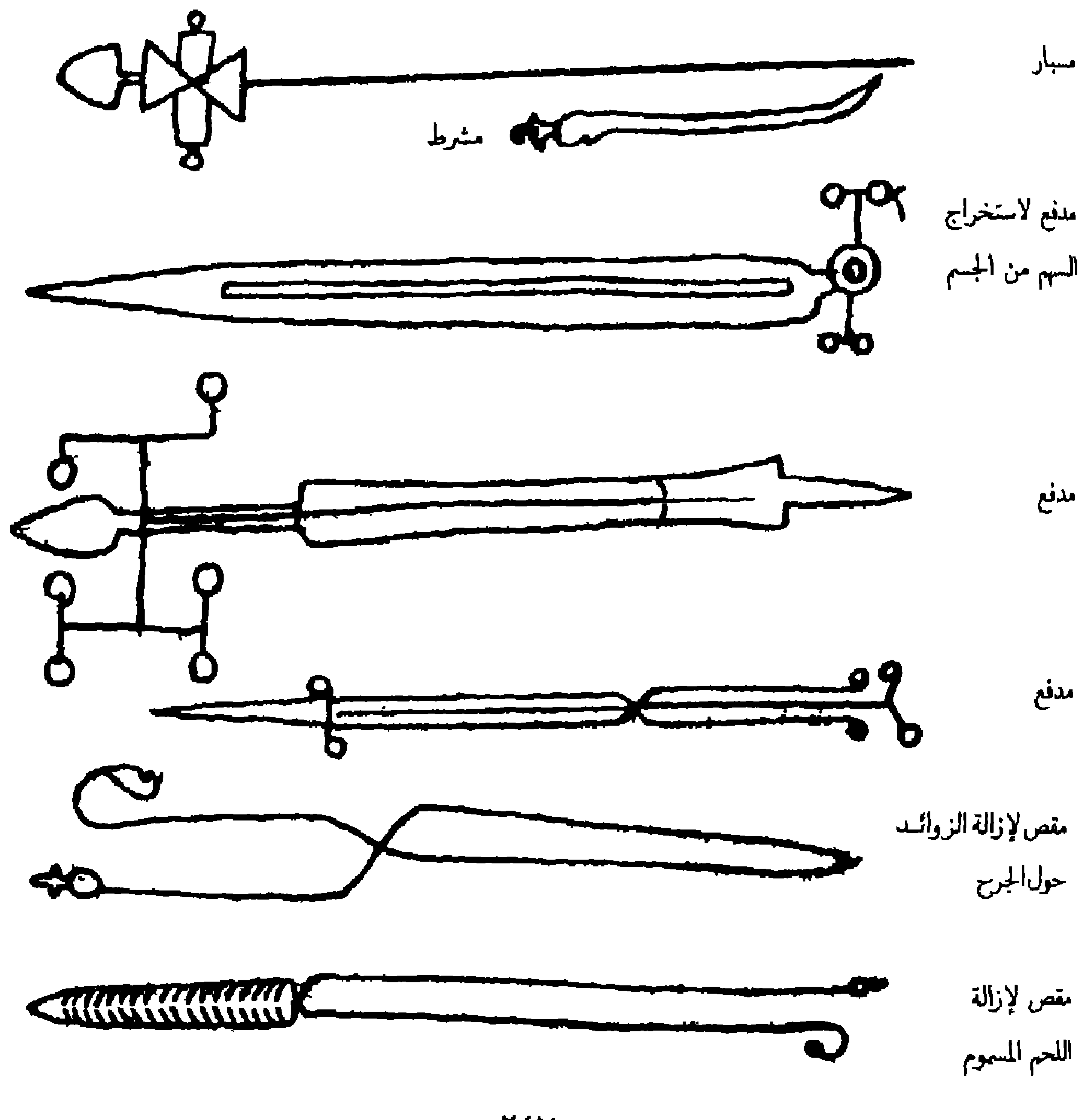
دراسة جسم الإنسان وأهم المكتشفات الطبية عند العرب :

عني العرب أيضاً بمعرفة جسم الإنسان : أي **بالتشريح ووصف الأعضاء** . كانوا يستعينون على ذلك بتشريح القردة ، لأن تشريح الجثث ممنوع في الاسلام ، كانوا يعرفون من أجسام القردة أوصاف الأعضاء منها ،

ويقابلون ذلك بما يرونه في الإنسان المجروح في القتال . وكانوا يعالجون الجروح ، ويقيمون **العمليات** ، ويستخدمون لذلك **المخدّرات** ، فلا يشعر المريض بالجراحة التي يقومون بها ، ومنها جراحات عسيرة جداً ، لم تتيسّر

استخرجت هذه الرسوم من كتاب فن التشريح « التصريف لمن عجز عن التأليف » لأبي القاسم خلف الزهراوي المتوفى سنة ٥٠٠ هـ ؟ هذه المخطوطة محفوظة في المتحف الوطني بدمشق الصفحة ٢١٣

تستعمل هذه المجموعة من الأدوات الجراحية لاستخراج السهم من جسم المحارب



للأطباء إلا في عهد الحضارة الحديثة . استعملوا **الفتيلة** للجروح والعمليات ، وهم أول من استعمل ذلك . وتقدموا في الجراحة تقدماً هائلاً . بين أيدينا اليوم كتاب للزهراوي [1] **في الجراحة وآلاتها** ، وقد رسمت فيه الآلات المستعملة في الجراحة . اكتشف **علي بن العباس المجوسي الحركة الدموية الشعرية** ، وقد ادعاها أطباء الغرب لأنفسهم . واكتشف **الرازي** مرض **الحصبة** ووصف دواءها . شرّح الأطباء **العين** وعرفوا طبقاتها وأمراضها مما لم يكن معروفاً من قبل ، وفي ذلك كتاب **لعلي بن عيسى الكحال** . يظهر لنا ما اكتشفه العرب والمسلمون من جديد في كتاب الحاوي **لأبي بكر الرازي** : هذا الكتاب المطبوع باللغات الأجنبية الذي لم يطبع بعد باللغة العربية ، يذكر في كل مرض ما قاله قدامى الأطباء ، ثم ما اكتشفه العرب ، ثم يذكر الرازي بعد ذلك ما اكتشفه هو بنفسه عنه ، وقد رأيته لا يُخلّ بهذا الترتيب .

انتقال الطب العربي إلى بلاد الغرب :

كان الطب العربي يدرّس في أوربة مدة من الزمن ، وكان الكتاب الذي يدرس فيه هو كتاب **(القانون) لابن سينا** الذي ترجم إلى اللاتينية ، ويقول أوسلير [2] : « إن هذا الكتاب درّس في العالم الغربي مدة فاقت أي كتاب آخر درّس فيه » .

---

(1) اسم الكتاب : « التصريف لمن عجز عن التأليف » في المتحف الوطني بدمشق نسخة مخطوطة معروضة في قاعة المخطوطات من فرع الآثار العربية الإسلامية ـ المنقح .

(2) هو Sir William Osler طبيب إنكليزي متوفى في أكسفورد سنة ١٩١٩ أصدر كتاباً هاماً سنة ١٨٩٢ « مبادئ وممارسة في الطب » .

الرياضيات :

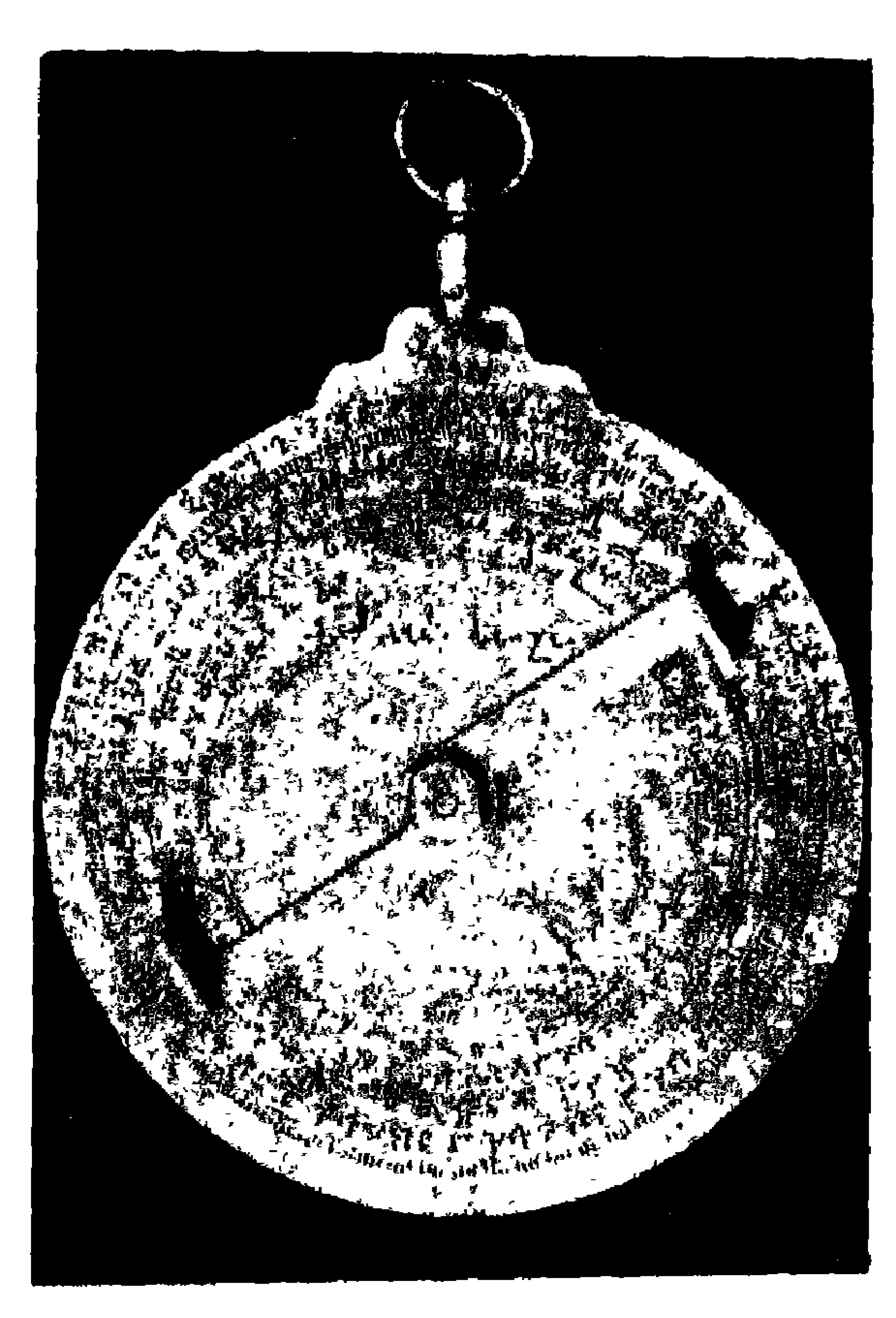
الحساب والجبر :

كان أثر العرب في الريـاضيـات كبيراً ، فهم الـذين أدخلـوا **الترقيم العشري** في الحسـاب ؛ وفي هـذا رقيّ في العلم كبير ، بني على تقـدم غيَّر في مفهـوم الريـاضيـات وفي طبيعتهـا ، وكانت الأعـداد حتى الـ (٩) معروفـة ترقم ، إلا أن الصفر لم يكن معروفـاً ، والعرب هم الـذين أدخلـوا **الصفر** بالشكل العام المطلق الذي سار فيه ، إن لم يكن هم الـذين اخترعوه ، ومنهم انتقل على كل حـال إلى الغرب ، والـذي عمّم الصفر هو **الخوارزمي ومعه** حَبَش الحـاسب ويقـال : إنهما أخـذا ذلـك من كتـاب (السنـد هنـد) . والعرب على كل حال هم الذين وضعوا الترقيم العشري . أما **الجبر** فـإنـه أول ما وضع باللغة العربية ، فالخوارزمي له كتـاب (**الجبر والمقـابلـة**) ومنـه تبدو أصول الجبر . أما الذي تقدم بالجبر خطوات كبيرة فإنه **عمر الخيـام** ، لقد حلّ حلـولا هنـدسيـة من الـدرجـة الثـالثـة ؛ إذاً العـالم مـدين للعرب والمسلمين بالجبر ، بل إن الاسم نفسه عربي صرف .

علم الفلك :

أثر الحضارة الإسلامية في الفلك كبير ، فقد حصلت حركة واسعة جـداً في هـذا الأمر ، وأسست المراصـد الكبيرة ، وقوّمت الأطوال الفلكيـة . **أول** مرصـد كبير أحـدث أثراً عظيمـا ، هـو المرصـد الـذي أوجـده المـأمـون في **الشماسية** ببغداد ، ومرصد آخر أوجده على جبل **قاسيون** بدمشق . وأنشئ بعد العصر العباسي مرصد كان واسعا هـائلا ، هو مرصـد **مراغـة** ، أحـدثـه التتر وأقاموا عليه **الطوسي** ، وأدخلوا فيـه الآلات الفلكيـة كالآلات **ذوات الحلق و الربع و الحائطي** لقياس ارتفـاع الكواكب في القبـة السماويـة ،

ودائرة بروج لقياس الانقلاب الصيفي والشتوي . وتميّز تقدم هذا العلم عند العرب بالزيج أي بالتقاويم الفلكية الدقيقة ، وأخذت عنهم أوربة هذا العلم .



اصطرلاب محفوظ في المتحف الوطني بدمشق
وهو مؤرخ من سنة ٩٨٢ هـ

كان للمسلمين أثر في **التقـويم السنـوي** ، فهـذا عمر الخيـام وضـع **التقويم الجلالي** ، وحدّد به عدد الأيام في السنوات ، وهو أدقّ من التقويم الغريغوري المعمول بـه اليوم . أمـا الاكتشـافـات الأخرى في الفلـك ، فهي قيـاس المسـافـة بين خطّي طول من دوائر النهـار على الأرض ، تمّ ذلـك في عصر المأمون على أيدي أبناء شاكر ؛ إن القياس الذي حصل عليـه العرب لا يختلف عن القياس المعروف اليوم إلا بمقدار نحو من كيلو متر واحد .

تمّ اكتشاف آخر لحركة القمر ، تدعى **بالتغيّر** ، وهذه الحركة وضعهـا بعد ذلك بدقـة **تيشو براهي** Tycho - Brahé الفلكي المشهور . نستطيع أن نقول إن **البتـاني** استطـاع أن يعـدّل ممـا وضعـه بطليوس في الفلـك ، وأن يحسّن ذلك ، وأن يُحدث الجديـد فيـه ، فهو قـد ضبـط **مقـدار الانحراف** الموجود في دائرة البروج ، وقدره بـ (٣٢ درجة و ٣٥ ثانية) . ودرس أيضـاً تقهقر خطوط الاعتدال أحسن من بطليوس وحدّد ذلك أيضاً .

علم المثلثات :

والحدث الجـديـد أيضـاً في تـاريخ العلوم عنـد المسلمين هو وضعهم لعلم المثلثـات الكروي ؛ فهم الـذين اكتشفـوا **الجيب والتجيب** ، **والمماس والظل . . . الخ** ، من الأشياء المتعلقة بعلم المثلثات ؛ وبهذا لم يقدموا فقط للهندسة مادة جديدة ، بل قدموا ذلك للرياضيات جميعا ، ولعلوم الفيزيـاء أيضا .

التاريخ :

وتجـد لهم اكتشـافـات وطرائق جـديـدة في التـاريخ ، إلا أن علمهم في ذلـك كان محصـوراً في رقعتهم ، اللهم إلا شيئـاً قليـلاً تسرّب عن طريـق إسبانيـا وقرطبـة . أمـا في التـاريخ فقـد عرفوا أسـاليبـه وطرائقـه ، فكتب

التراجم عندهم أرقى ما يمكن أن تبلغه ، فهي منظمة على الحروف الأبجدية في معظمها ، تتناول سيرة الشخص من أطرافه المختلفة . وهنالك أيضاً كتب التاريخ المرتبة حسب تسلسل السنين المسماة (الحوليات)[1] ، وصلوا في ترتيبها إلى أبعد ما وصلت إليه . يضاف إلى ذلك أنهم نظروا إلى التاريخ نظرة جديدة فقد بحث علماؤهم في تحوّلات حوادث التاريخ وأثر الإقليم في تلك الحوادث ، وأثر الجماعات فيها ، فهذا هو **المسعودي** يورد مادة حسنة في ذلك ، وهذا هو **ابن خلدون** ، وهذا هو **المقريزي** وغيرهم ينظرون إلى التاريخ النظرة الجديدة . إن التاريخ عند العرب ليس مجرد حوادث ، بل هو إلى جانب ذلك حضارة ودين وفكر وعلم وفن وعمارة : الأمر الذي يجعل الباحث يلمّ بجميع جوانب الحياة العامّة . وضع العرب أيضاً كتبهم في فلسفة التاريخ ، وإن **ابن خلدون** يعتبر أنجحهم في ذلك في كتابه (**المقدمة**) وهو كتاب له أثر كبير في العالم الغربي .

الجغرافية :

وفي الجغرافية تقدّم العرب تقدماً هائلاً ، فهم كانوا مضطرين إلى أن يعرفوا **اتجاه المكان وخريطته** ، ذلك أن قبلتهم الكعبة ، فيجب أن يعرف مكان البلدة واتجاهها بالنسبة للكعبة . كانت أقاليمهم واسعة ، فكان عليهم أن يعرفوا طرقاتها معرفة دقيقة ؛ ولقد وضعوا الخرائط[2] في ذلك ، وقاسوا **المسافات** ، وعرفوا أثر الجوّ في طبائع الناس في إقليمهم ؛ ودرسوا حالة المدن من الناحية التجارية ، ومن ناحية العادات ، فهم إذاً لم ينظروا إلى الجغرافية على أنّها تصوير للأرض فحسب ، بل نظروا إليها على أنها

---

(١) أحسن من كتب على هذه الطريقة : الطبري وابن الأثير وابن كثير . . . . ـ المنقح .

(٢) لعل الإدريسي والاصطخري أشهر الجغرافيين الذين رسموا الخرائط ـ المنقح .

جغرافية بشرية وإقليمية وطبيعية وما أشبه ذلك . . . ، وكتبهم في الجغرافية كثيرة ، ومن أطرف تلك الكتب « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » للمقدسي ، فهو قد وصف أخلاق الناس وطبائعهم في تجارتهم وجميع أعمالهم ، وألمّ بجوانب الحياة على طريقة جغرافية جيدة .

☆ ☆ ☆

شهادة العلماء الغربيين بالحضارة العربية الإسلامية :

هذا ما يمكن أن نقوله بصفة مختصرة في قيمة العلم عند العرب والمسلمين والمستعربين ، ولنر الآن أقوال الغربيين في ذلك شاهداً على ما نقول . قال عالم كبير من علمائهم ومؤرخ لتاريخ العلم ، اسمه (**سارتون**[1]) : « إن الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني حمل أعباءه المسلمون ، **فالفارابي** أعظم **الفلاسفة** كان مسلما ، **وأبو كامل**[2] **وإبراهيم بن سنان** (بن ثابت بن قُرَّة) أعظم علماء **الرياضيات** كانا مسلمين ، **والمسعودي** أعظم رجال **الجغرافية والموسوعات** كان مسلما ، وكذلك قُل في **الطبري** أعظم المؤرخين » . سارتون يتكلم عن العصور الوسطى ، لذا فإنه جعل علماء المسلمين هم القائمين بالنهضة في تلك العصور .

بعد أن قارن علماء الغرب الحضارة الإسلامية بحضارة القرون الوسطى ، نظروا فيما أحدث العرب من جديد ، فوجد المنصفون منهم الشيء الكثير من ذلك ، وعدّدوا ما عثروا عليه ، وسنقرأ ما أورده بعض المؤرخين الغربيين ، فنستدل منهم على تعرّفهم على أثر العرب والمسلمين فقد قال تاتشير Thatcher وشويل Schwill في تاريخ أوربة العام Histoire

---

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب (المطول) ج ٢ ص ٤٧٨ .

(٢) هو شجاع بن أسلم المصري الذي نقح في أوائل القرن العاشر كتاب الجبر للخوارزمي .

وقد نقلنا قوله عن ولز Wells في (مختصر تاريخ العالم Esguisse de L, Histoire Universelle ص ٣١٠ (من الطبعة الفرنسية) قال : « أسس العرب الرياضيات على الأسس التي وضعها رياضيو اليونان . إن أصل الأرقام المسماة بالعربية مبهم ، ففي عهد تيودوريك الكبير Theodoric le Grand (٤٧١ ـ ٥٢٦ م) اتخذ بوئيتيوس Boéthius بعض الإشارات التي تشابه الأرقام التسعةالمستعملة اليوم ، واستخدم أحد طلاب جربرت [١] Gerbert أيضا إشارات تشابه أرقامنا أكثر منه ، لكن **الصفر** ظل مجهولاً حتى القرن الثاني عشر [٢] الميلادي ، اكتشفه عربي اسمه **محمد بن موسى** [٣] وهو أيضاً أول من استعمل **الترقيم العشري** ، وأعطى الأرقام قيمة بحسب مكانها في العدد . ولم يضف العرب كبير شيء في **الهندسة** على إقليدس ، غير أن **الجبر** هو في الواقع من وضعهم ؛ ولقد وسّعوا أبحاث **المثلثات الكروية** ، مكتشفين الجيب والماس وتمام الماس ، واخترعوا في الفيزياء **الرّقاص** ، ووضعوا مؤلفات في علم البصريّات ، وتقدموا بعلم الفلك ، وأقاموا المراصد ، وصنعوا عدداً كبيراً من **الآلات الفلكية** ، التي لا تزال مستعملة حتى اليوم ، وحسبوا **زاوية الميل** ، وتقهقر خطوط الاعتدال . لا ريب أن معرفتهم **بالفلك** ، كانت عظيمة . وصلوا في **الطب** إلى أبعد مما وصل إليه اليونان بكثير ، ودرسوا **علم وظائف الأعضاء والصحة** ؛ وكانت أدويتهم هي الأدوية ذاتها التي نستعملها اليوم ، فنحن لا نزال نطبق كثيراً من طرق معالجتهم ، وكان

---

(١) هو البابا سلفستر الثاني الذي درس في الأندلس ـ المنقح .

(٢) ربما يقصد الكاتب أن الصفر ظل مجهولاً في أوربة حتى القرن ١٢ م لكن العرب عرفوه قبل ذلك ـ المنقح .

(٣) هو الخوارزمي (توفي ٢٣٢ هـ ٨٤٧ م) وقد دعاه الطبري بالمجوسي (حتي ٢ / ٤٦٣) ـ المنقح .

جرّاحوهم يعرفون أثر **المخدّرات** ، وقد مارسوا من الجراحات أصعب ما عرفه العالم منها . وبينما كانت ممارسة الطب في أوربة محظورة من قبل الكنيسة التي لم تكن تتوقع الشفاء إلا من صلوات الكهنوت الدينية ، كانت للعرب معرفة حقيقية بالطب . سلك العرب طرقاً مجدية في حقل التجارب ، فقد اكتشفوا كثيراً من المواد الجديدة : كالغَوْل[1] ، والبوتاسيوم ، وماء الفضة ، وتحت كلور الزئبق وأحماض الليمون والكبريت .

أما في حقل الصناعات ، فقد تفوّقوا بمهارتهم وتنوع مصنوعاتهم وبمجال رسومهم ، على كل ما كان العالم آنذاك يستطيع أن يصنعه ، فكانوا **يصنّعون كل المعادن** من ذهب وفضّة ونحاس وبرونز وحديد وصلب ، وكانوا يصنعون الأواني من **الزجاج والفخار** من أجود الأصناف ، ويعرفون كل أسرار فن **الصباغة** ، وكانوا يصنعون **الورق** ، ويحضّرون الجلد على أشكال مختلفة . وكان عملهم في ذلك مشتهراً في أوربة بأجمعها . كانوا يصنعون **الصباغات والعطور والأشربة** ، ويستخرجون **السكر** من قصب السكر ، وعندهم أنواع عديدة من **الخمور** الجيدة ، وكانوا يحرثون الأرض بأسلوب علمي ، ويعرفون طرقاً **للريّ** عديدة ، ويعرفون قيمة **الأسمدة** ، ويلائمون بين أنواع الحبوب وطبيعة الأرض ، وقد أجادوا في الزراعة **والتطعيم** وعنُوا بإنتاج أنواع جيدة من الثار والأزهار ، وأدخلوا إلى بلاد الغرب كثيراً من الأشجار والنباتات التي أصلها من الشرق وصنّفوا كتباً في الزراعة العلمية » . .

هذا قول منصف مدرك ، نعارض به قول من يقول بأن حضارتنا

---

(١) الغَوْل هي الكلمة العربية الصحيحة بما يطلق على الكحول خطأ ـ المنقح .

كانت حضارة مقلّدة لا جديد فيها ، فظاهر منه أنها مدّت المدنيّة ، وأتحفتها بأشياء جديدة ، وساهمت بمقدار حسن فيها .

وقد ورد أثناء البحث ذكر فئة من أسماء العلماء الذين برهنوا في النهوض بتلك الحضارة ونضيف إليهم اسماً يرد في نص **لبروكلمان** ، **في تاريخ الشعوب الإسلامية** (الترجمة العربية ، المجلد الثاني ، ص ٣٩) حيث قال « وفي عهد المأمون استهل أبو يوسف **يعقوب الكندي** فيلسوف العرب ، وأحد العقول الكبرى في تاريخ العالم ـ كما دعاه كاردانو Cardano سنة ١٥٥٢ م ـ استهل نشاطه الفكري الذي لم يقتصر على تعريف مواطنيه بالفلسفة الأرسطوطالية والأفلاطونية الجديدة ، من طريق الترجمة والاقتباس فحسب ، بل عدا ذلك إلى توسيع آفاقهم العقلية ، بما أخرج من دراسات في التاريخ الطبيعي وعلم الظواهر الجوية ، مكتوبة بروح تلك الفلسفة » .

ونذكر في الختام ، اسماً آخر نتوّج به أسماء العلماء العرب ، ألا وهو **الخليل بن أحمد الفراهيدي** ، فهذا الرجل هضم حقّه ، ولم يعرف في بلاد الغرب ، ذلك أنه لم يبحث في العلوم الطبيعية أو الرياضية ، لكنّه على رأينا من أعظم رجال العلم فكراً ، وإبداعاً ، وابتكاراً ، إلى جانب ما كان يتحلى به من أخلاق سامية . وهو من عبقريته وفكره ، أنتج إنتاجات لا مثيل لها سعة وعمقا . فقد **صنّف الموسيقا** ، ولم يكن موسيقياً ووضع **علم العروض** تاماً كاملاً لم يعتوره بعده تغيير ، ووضع مُعْجَماً مصنفاً على طريقة عجيبة ، فيه روح اللغة العربية وعبقريتها ، وباسمه نختتم بحثنا هذا الذي طفنا به في جوانب من العلم مختلفة ، ورأينا أثر العرب والمسلمين في العهود العربية في مادة العلم والحضارة والمدنيّة .

❁ ❁ ❁

الحضارة المادية في عصر الخلافة العبّاسية

ذكرنا عن الفكر والثقافة شيئاً مختصراً ، ودلّلنا على قوة الثقافة العربية والإسلامية بذلك . ولكن يجدر بنا أن نلقي نظرة إلى الحضارة المادية عندما ندرس الثقافة ؛ فهل كانت الحضارة المادية عند العرب ، وبها تعرف مكانة الأمة بين غيرها من الأمم ، في مستوى ثقافتهم العقلية ؟ - إن ما بين أيدينا من الأخبار ، وما يمثل أمامنا من الآثار ، يدلّنا دلالة واضحة على أن الحضارة المادية بلغت الأوج في عهد العباسيين ، بل إن تلك الحضارة غلت في ماديتها وفي وسائلها وفي بذخها ، وفي عمرانها ؛ ولولا التخريب الذي حصل ، ولولا ضياع الكنوز الثمينة ، لكان بين أيدينا اليوم آثار هائلة عن تلك الحضارة إلى جانب الأشياء المبعثرة التي نراها في المتاحف اليوم . ويمكن القول بأن الحضارة العربية الإسلامية منذ نشأتها إلى أن طرأ عليها الجمود في القرن ٩ هـ وصلت إلى حدّ لم تتجاوزه الحضارات الأخرى في المادة ، إلا ما أتت به الحضارة اليوم من وسائل الآلة والبخار والكهرباء والذرّة . وسنستعرض في هذا البحث بذخ الحضارة العربية في العهد العباسي وعمرانها ووسائلها .

إن بغداد التي كانت عاصمة الدولة ، كانت في الوقت نفسه عاصمة البذخ ، وتلحق بها القاهرة التي أصبحت مكاناً للحضارة رحباً جميلا ؛ والصور التي نقدمها اليوم عن الحضارة المادية لا نقصد بها وصف تلك الحضارة ، بل نقصد بيان الأوج الذي بلغته ، أما وصف الحضارة المادية فصعب ، ويقتضي مجالاً أوسع بكثير مما نحن فيه . أما **بغداد** فقد وصفها

الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (الجزء ١ ص / ١١٩) ، فأثنى عليها ثناء لا مثيل له ، قال : « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها ، وتميّز خواصّها وعوامّها ، وعظم أقطارها ، وسعة أطرارها[1] ، وكثرة دورها ومنازلها ، ودروبها وشعوبها ، ومحالّها وأسواقها ، وسككها وأزقّتها ، ومساجدها وحماماتها ؛ وطُرُزها وخاناتها ، وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وبرد ظلالها وأفيائها ، واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ، وزيادة ما حُصر من عدّة سكانها » . ويعطينا الخطيب البغدادي نفسه (في تاريخ بغداد الجزء ١ / ص ١١٧) تعداداً لخطة تدل على الحضارة في بغداد أحسن دلالة ، **وهي الحمامات ،** فيقدم لنا بهذه المناسبة عدداً يفوق التصوّر والوصف ، فيقول عن **أحمد بن أبي طاهر في كتاب بغداد :** « وأن عدد الحمامات كانت في ذلك الوقت (عصر المأمون) ببغداد ستين ألف حمام . وقال : أقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر : حمامي وقيّم ، وزبّال ووقّاد وسقّاء . يكون ذلك ثلاثمائة ألف رجل . وذكر أنه يكون بإزاء كل حمام خمسة مساجد ، يكون ذلك ثلاثمائة ألف مسجد ، وتقدير ذلك أن يكون أقل ما يكون في كل مسجد خمسة أنفس ، يكون ذلك ألف ألف وخمسائة ألف إنسان » لكننا نرى في هذا مبالغة ، ولا نستطيع أن نقبل هذا التقدير . فأما أن يكون لكل حمام خمسة نفر ، فليس ضرورياً وقد يكون في الحمام نفران فقط أو أكثر أو أقل ؛ ثم أن يكون بجانب كل حمام خمسة مساجد ، فذلك ليس ضرورياً ؛ أما أن يكون عدد الحمامات ستين ألفاً ، فذلك مبالغة .

هذا إحصاء وهناك إحصاءات أخرى ، ولعلها أقرب إلى الحقيقة ، فقد

---

(١) جمع (طر) وهو شفير النهر والوادي ـ المنقح .

تقدم أبو محمد المهلبي إلى أبي الحسن البادغجي - وهو صاحب المعونة - يعدّ المساجد والحمامات يقول **إبراهيم بن هلال الصابي** (في تاريخ بغداد ١ / ١١٨) : « فأما المساجد فلا أذكر ما قيل فيها كثرة ، وأما الحمّامات فكانت بضعة عشر ألف حمّام ؛ وعُدّت إلى معز الدولة وعرّفته ذلك ، فقال : « اكتبوا في الحمامات بأنها أربعة آلاف » . واستدللنا بقوله على إشفاقه وحسده أباه على بلد هذه عَظْمَةُ [١] وكُبْره . وقد أحصيت في أيام المقتدر بالله ، فكانت سبعة وعشرين ألف حمّام ، وليس بين الوقتين من التباعد ما يقتضي هذا التفاوت قال هلال (الصابي) وقيل : « إنها كانت في أيام عضد الدولة خمسة آلاف حمام وكسرا . . » .

ومهما كان من هذه الأرقام ، فالعدد كبير ، ولا ريب أن الحمامات دليل على الحضارة ودليل على النظافة ، فلو كانت خمسة آلاف حمام ، أي حسب أقل عدد من الأعداد المُحصاة لكانت مقداراً هائلاً . لو أننا قلنا إن هذه الصفحة من تاريخ بغداد التي أوردها الخطيب بعيدة عن الحقيقة فهل من دليل آخر على عظم تلك الحضارة المادية ؟ نرجع إلى كتاب آخر هو كتاب **المنتظم لابن الجوزي** (٧ / ٦٠) فهو يذكر لنا في حوادث سنة ٣٦٢ للهجرة ما يلي : قال : « احترقت أموال عظيمة (في النخّاسين إلى السمّاكين) وجماعة من الرجال والنساء والصبيان في الدور والحمامات ، فأحصي ما احترق . فكانت سبعة عشر ألف وثلاثمائة دكان ، وثلاثمائة وعشرين داراً ، أجرة ذلك في الشهر ثلاثة وأربعون ألف دينار » .

هذا في بغداد ، أما في القاهرة ، فقد تقدمت الأحوال المادية في عصر المماليك ، ولنا في رحلة خالد البلوي إلى القاهرة سنة ٧٨٦ هـ دليل على

---

(١) كذا ضبطت الكلمتان في طبعة القاهرة سنة ١٩٣١ م - المنقح .

تلك الحالة ، فقد قال [مخطوطة نسخة المكتبة الظاهرية ـ جعرافية / ١٠٨ ـ ورقة ٧٥ الوجه الأول] : « أخبرني أحد كتاب السلطان أنهم كتبوا وأحصوا المراكب الجارية في هذا النيل المعدّة لإيساق [1] الزرع خاصة ، فألفوها تنوف على مائة ألف مركب ، ما عدا الزوارق الصغار التي للصيد والركوب وغير ذلك ، فكأنها أكثر من أن تحصى ، وأخبرني الشيخ الإمام القدوة شمس الدين الكركي قال : عن الصاحب وزير الملك الظاهر أحصى الجمال الداخلة إلى القاهرة بالماء في كل يوم ، فبلغت مائتي ألف جمل ، ما عدا البغال والحمير والسقاءين (كذا) الذين بالزقوق وغيرهم ؛ فإن ذلك شيء لا ينضبط ولا ينحصر ، وهذه الجمال المذكورة تحطّ بالمدينة في كل يوم من أيام الصيف سبع أوانات ، وفي الشتاء أقل من ذلك ، قال : وأحصى دكاكين السقاءين (كذا) المعدّة للسقي بالقاهرة ، فبلغت ستين ألف دكان ، ما عدا السقاءين الذين بالأكواز والأكواب في الطرق والأسواق وغيرها » .

ونعود مرة أخرى ، فنرى في ذلك مبالغة إلا أنها ذات دلالة على سعة الدكاكين وكثرة عدد الجمال والمراكب والسقائين ، والسقاية دليل على سعة الزرع ، ودليل على عدد النفوس ، وكانت القاهرة مشتهرة بأن مبانيها ترتفع إلى إحدى عشرة طبقة .

البذخ والترف المفرط :

وأيّاً كان المفهوم من ذلك ، فالثروة كانت هائلة في بغداد وفي غيرها من المدن ، وتأتينا الأخبار عن الثروة وعن المال وعن الجواهر ، وعن البذخ والكرم الذي لا يحدُّه حصر ، فنستغرب ونعجب ؛ وقد سمعتم ولا ريب بما كان يقدمه الخلفاء للشعراء وغير الشعراء من مال كثير وجراية هائلة ؛

(١) إيساق من أوسق أي تحميل الزرع ـ المنقح .

ولعل من أعظم ما نسمعه في ذلك ما ذكره المؤرخون (حتّى ص ٣٧٥) عما جرى في العرس الذي أقيم للمأمون على بوران بنت وزيره الحسن بن سهل ، « قيل : إنه في أثناء العرس وقف العريسان (كذا) على حصير ذهبي مرصّع بالدّر والياقوت ، فنثرت على بوران ألف درّة من صينية ذهب ، وأوقدت شموع العنبر ، وزن كل واحدة مائتا رطل ، فانقلبت الظلمة ضياء ؛ وانتهى أمر ذلك العرس العظيم بأن نثر المأمون على الهاشميين والقوّاد والكتّاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار ، وغير ذلك ، فكانت البندقة إذا وقعت في يد رجل فتحها ، فيقرأ ما في الرقعة ويمضي فيستلم ما فيها ، سواء كان ضيعة أو ملكاً آخر ، أو فرساً أو جارية أو مملوكاً » . [عن الطبري جـ ٣ صـ ١٠٨١ الطبعة الأجنبية] .

رفاه الحياة بسبب الغنى المفرط :

لا ريب أنّ هذه هي البحبوحة في العيش والكرم الزائد المبالغ به الذي لا يقرّه عقل ، وأن المحيطين بالخلفاء والملوك وأرباب الأمر ، تنعّموا بهذه الثروة الهائلة ، فكانوا يعيشون ببذخ كبير ، ولهم الغلاّت الوفيرة ، والأجور الضخمة . هذا خبر عن أجور كان يتقاضاها طبيب من أطباء الخلفاء وهو جبرائيل بن بختيشوع (أخبار الحكماء لابن القفطي صـ ٩٩ - ١٠٠) قال : « ذُكر أن رزقه كان برسم العامّة في كل شهر من الورق عشرة آلاف درهم ، وبرسم الخاصّة في المحرم من كل سنة من الورق خمسون (كذا) ألف درهم ، وثياب بقيمة عشرة آلاف درهم ، ولفصد الرشيد دفعتين في السنة مائة ألف درهم ، ولشرب الدواء دفعتين في السنة مائة ألف درهم ، ومن أصحاب الرشيد كل سنة على ما فعل مع ما فيه من قيمة الكسوة وثمن الطيب والدوابّ ومن الورق أربعمائة ألف درهم ... ومن غلّة ضياعه في

جنديسابور والسوس والبصرة والسواد في كل سنة ثمانمائة ألف درهم ، ومن فضل المقاطعة بسبعمائة ألف درهم ؛ وكان يصير إليه من البرامكة في كل سنة من الورق ألفا ألف وأربعمائة ألف درهم . . . فيكون جميع ذلك في خدمته للرشيد ، وهي ثلاث وعشرون سنة ، وخدمته للبرامكة ثلاثة عشرة سنة ، سوى الصلات الجسام ، فإنها لم تذكر في هذا المدرج من الورق ثمانية وثمانون ألف ألف وثمانمائة ألف درهم » .

وبديهي أن هؤلاء الأطباء الذين كانوا يتناولون جراية ورزقاً بهذا المقدار كانوا يعيشون على أنعم حال مادّي ، وقد وصف لنا كيف كان يعيش **حنين بن إسحاق** ، وكان يخدم المأمون في الطب ويترجم له الكتب ، قالوا (وفيات الأعيان لابن خلكان مجلد / ١ / ٤٤٦) : « إن حنيناً كان في كل يوم عند نزوله من الركوب يدخل الحمام ، فيصبّ عليه الماء ، ويخرج فيلتف في قطيفة ويشرب قدح شراب ويأكل كعكة ، ويتكئ حتى ينشف عرقه ، وربما نام ، ثم يقوم ويتبخر ، ويقدم له طعامه وهو فروج كبير مُسمَّن قد طبخ زيرباجا ، ورغيف وزنه مائتا درهم ، فيحسو من المرقة ، ويأكل الفروج والخبز وينام ، فإذا انتبه شرب أربعة أرطال شراباً عتيقاً ، فإذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامي والسفرجل ، وكان ذلك دأبه إلى أن مات » .

طريقة تقديم الطعام وتنوع ألوانه :

يكثر إلى جانب ذلك ألوان الطعام ، وأشكال تقديم الطعام والبذخ في الآنية وفي وسائل الأكل ، ونحن نعجب اليوم من أهل الغرب ، كيف يأكلون أكلهم مقدّماً على مراحل صحفاً بعد صحف ، لكنّ هذا خبر يفيدنا بهذا الأسلوب (إرشاد الأريب لياقوت الحموي مجلد / ١٧ ، ص / ١٥١) :

« ذكر أنهم [في دعوة لأبي الحسن أحمد بن محمد الكراريسي] قرّبوا فيها مائدة عليها خيار ، وفي وسطها جامات عليها « فُطَر نخشب[1] » فسمّيتها مسيحيّة ، لأنها أدم النصارى ، وأنّهم قرّبوا بعد ذلك سكْباجة[2] بعظام عارية ، فسمّيتها شِطْرنجيّة ، وأنهم قرّبوا بعدها مَضيرة[3] في غضائر بيض ، فسمّيتها مُعْتدّة ، وكانت بلا دسم ، والمعتدّة لا تَمَسّ الدُّهن والطيب ، وأنهم قدّموا بعدها زيرباجة قليلة الزعفران ، فسمّيتها عابدة ، تشبيهاً بلون العُبّاد من الصفرة ؛ وأنهم قرّبوا بعدها لوناً فسميتها قُنَّبيّة[4] ، وقرّبوا بعدها زبيبيّة سوداء سميتها موكبيّة ، وأنهم قرّبوا بعدها قَلِيّة[5] بعظام الأضلاع فسميتها حَسَكيّة ، ثم قرّبوا بعدها فالوذجة بيضاء فسمّيتها صابونيّة . . . » . الأغرب من كل ذلك أن صاحب الدعوة وهو الكراريسي اعتذر عن دعوته هذه قائلاً إن ابنه مريض وإنه لم يستطع أن يوفّي القوم حقّهم ، في مائدته هذه التي بسطها خارج بيته بعيداً عن ابنه المريض .

الاستفادة من علم الميكانيك في الحياة المادية :

وتعتمد الحياة المادية على وسائل في الصناعة والميكانيك ترسي عليها قواعدها ، بحيث نستطيع أن نتخيّل حضارة أمة من الأمم بمقدار ما تستعمل من وسائل ماديّة ميكانيكية ؛ وقد تجاوز عصرنا الحاضر في ذلك حداً بعيداً ؛ فالوسائل التي بين أيدينا للرفاهية وصلت إلى مقدار لا يحلم به أصحاب الخيال الكبير من الأقدمين ؛ ومع ذلك لو أننا رجعنا إلى حضارتنا

---

(١) نخشب : من مدن ما وراء النهر .

(٢) مرقة تعمل من اللحم والخل - كلمة فارسية - المنقح .

(٣) مضيرة : فتة بدون دسم - المنقح .

(٤) قنبية : من القنب ربما كانت حلوى ببزر القنب (القنيس) - المنقح .

(٥) قلية : مقلية .

القديمة ، لوجدنا أنها سبّاقة في هذا المضار بالنسبة للحضارات القديمة ، وأنها إن لم تبلغ شأو الحضارة المادية الحديثة ، فهي لم تقصّر عنها إلاّ في البخار والكهرباء والذرّة أخيراً ؛ أما في شؤون الميكانيك ، فإنها قد وصلت إلى درجة سامية ، وبلغت في ذلك ما لم تبلغه حضارة قبلها ، بل إننا ندهش حين نطلع على أخبارها في ذلك ، وهذا خبر يذكره لنا **أبو الحسن الطبري** الفقيه الملقب بالكيا ، فهو قد أرسله السلطان **بركياروق** إلى إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سُبُكتكين عام اثنين وتسعين وأربعمئة للهجرة ، فيقول : [كما ورد في المنتظم لابن الجوزي جـ ٩ صـ ١٠٩] « . . . فرأيت في مملكته ما لا يتأتى وصفه ، فدخلت عليه وهو جالس في طارمة عظيمة بقدر رواق المدرسة ، وفوق ذلك إلى السقف صفائح الذهب الأحمر ، وعلى باب الطارمة الستور التنيسي . . . . ثم أمر خادمه أن يطوف بي في داره ، فدخلنا إلى خركاه عظيمة قد ألبست قوائمها من الذهب ، وفيها من الجواهر واليواقيت شيء كثير ؛ وفي وسطها سرير من العود الهندي ، وتمثال طيور بحركات ، إذا جلس الملك صفقت بأجنحتها ، إلى غير ذلك من العجائب » .

وهذه الحركات التي تقوم بها الحيوانات والتماثيل منها ، أمر يظهر أنه انتشر عند الملوك بل عند الأمراء وأتباعهم ، فهذا يوم جمعة من غرّة ذي الحجة من سنة ٥٤٧ هـ ، ينطلق فيه الناس إلى اللعب وإلى الصيد ، فيجعلون أبنية وقباباً وتماثيل عجيبة ، قال ابن الجوزي في المنتظم (المجلد ١٠ / ص / ١٤٨) : « وعُلّقت القباب ، فعمل الذهبيون قبة على باب الخان العتيق عليها صورة مسعود ، وخاص بك وعباس ، وغيرهم من الأمراء بحركات تدور ، وعلّق ابن المرخّم قبة فيها خيل تدور ، وعليها فرسان

بحركات ، وعلقت **بنت قاروط** بباب درب المطبخ قبة فيها صورة السلطان ، وعلى رأسه شمسة ؟ وعلّق **ترشك** قبة على سطح داره على تماثيل صور أتراك يرمون بالنشّاب ، وعلق **ابن مكي الأحدب** قبة عليها جماعة من الحُدُب ، وعلق **جعفر الرقاص** بباب الغربة قبة عليها مشاهرات فاكهة أترج ونارنج ورمان وثياب ديباج وغير ذلك ؛. وأقام السودان الكلالة فوق القبة يغنون ويرقصون . وعمل أهل باب الأزج حذاء المنظرة أربعة أرحى تدور وتطحن الدقيق ، لا يُدرى كيف دورانها ، الملاحون سُمَيْريّة على عجل تسير . وانطلق الناس في اللعب ، وبقي التعليق إلى يوم العيد » . فهذه آلات وتماثيل تتحرك وتقام في أيام الأعياد ويُهرع إليها الناس ، فيتمتعون بحركاتها العجيبة . وعندنا خبر آخر عن حمام عجيب فيه . ففي [المنتظم مجلد ١٠ / ص / ٨١] « . . وبمناسبة نقض المسترشد دراه التي كان طولها ستين ذراعاً في أربعين ، وعملت فيها الصور ، وفيها الحمام العجيب ، فيه بيت مستراح فيه بيشون[١] إن فركه الإنسان يميناً خرج الماء حارّاً ، وإن فركه شمالاً خرج بارداً » .

وفي الأندلس كان لأمير المؤمنين في عهد المرابطين مقصورة تتحرك بواسطة عجلات [تاريخ الأندلس ليوسف شاخت ، ج / ٢ ، ص / ٢٥٣] . ونجد أخباراً أوسع من ذلك عن اللولب والحركات والصور في [مطالع البدور للغزولي ، المجلد / ٢ ، ص ١ ـ ١٨] ، ففيه يصف لنا حماماً عجيب الصنعة فيه صورة عارية ولواليب وغير ذلك .

---

(١) يقول المحقق (طبعة حيدر آباد الأولى) الكلمة في الأصل (بثيون) ولم يشرحها . لعل الكلمة بمعنى (صنبور) ـ المنقح .

الحياة العابثة :

وطبيعي أن هذه الوسائل كانت تخلق عند أصحابها نوعاً من الرفاهية يزداد مع الزمن ، ومن تلك الرفاهية يحدث نوع من الحياة العابثة المرتّبة على سبيل يرضي صاحبها ، ويمتّعه بمسرات الحياة : فهذا هو الأمين الخليفة المخلوع ، كان يعيش تلك الحياة الصاخبة العابثة ، ويرتّب أموره على هذا الأساس ، قال أحد المغنين [الأغاني ـ الجزء / ١٦ ، من ص ١٣٣] : « مرت بي ليلة ما مرّ بي قطّ مثلها ، جاءني رسول محمد الأمين وهو خليفة ، فأخذني وركض بي إليه ركضاً ، فحين وافيت ، أُتِي بإبراهيم بن المهدي على مثل حالي ، فنزلنا ، وإذا هو في صحن لم أر مثله ، قد ملئ شمعاً من شمع محمد الأمين الكبار ، وإذا به واقف ، ثم دخل في الكرج[1] ، والدار مملوءة بالوصائف يغنين على الطبول والسرنابات[2] ، ومحمد في وسطهن يرتكض في الكرج ، فجاءنا رسوله فقال : قوما في هذا الباب مما يلي الصحن ، فارفعا أصواتكما مع السرنابي أين بلغ ، وإياكما أن أسمع في أصواتكما تقصيراً عنه ، قال : فأصغينا ، فإذا الجواري والمخنّثون يزمرون ويضربون :

هذي دنانير تنساني وأذكرها   وكيف تنسى مُحبّاً ليس ينساها

فما زلنا نشقّ حلوقنا مع السرنابي ، ونتبعه حذراً من أن نخرج عن طبقته ، أو نقصّر عنه ، إلى الغداة ، ، ومحمد يجول في الكرج ما يسأمه ، يدنو إلينا مرة في جولانه ، ويتباعد مرة ، ويحول الجواري بيننا وبينه حتى أصبحنا » .

---

(١) يفهم من (الكرج) أنها أداة تسلية تشبه ما يسميه العامة الآن (دَوّيخة) ـ المنقح .

(٢) يبدو من النص أن السرنابات إما أن تكون آلات موسيقية وضعها المغني (السرنابي) الذي ورد اسمه في النص ، أو أنها أدوار غنائية منسوبة إلى (السرنابي) نفسه ـ المنقح .

المال يذهب هدراً :

هـذه حيـاة كان يحيـاهـا البـاذخون والُمترفـون ، لم تكن تصيب الشعب بأجمعه ، إنما تصيب منـه حلقـات معـدودة ، ذات يُسر . كان بعض أفراد الشعب يستفيد من ذلك اليسر ومن أعمـال أصحـاب اليسر في أشيـاء إلا أن هذه النفقات تضيع هدراً ، ولا تذهب في طريقها الصحيح .

المال يذهب في طريقه :

إليكم مثلاً عن نفقات تذهب في طريقها الصحيح : من القـاهرة مثلاً ، كان البيمارستـان المنصوري ، وهو بيمارستـان وضع لخـدمـة الشعب ، ويصف لنا **خالد البَلَوي** ذلك البيمارستان في [تاج المفرق ، في الورقة / ٧٥ الوجه الأول ، من نسخة الظاهريـة رقم : جغرافيـا ١٠٨] ، فيقول : « ولو لم يكن للقاهرة مـا تـذكر بـه ، إلا المـارستـان وحـده ، وهو قصر عظيم من القصور الرائقة حسناً وجمالاً واتساعاً ، لم يعهد مثله بقطر من الأقطار أحسن بنـاء ، ولا أبرع إنشاء ، ولا أكمل انتهاء في الحسن والجمـال .... أخبرني الشيخ العـالم المؤرخ شمس الـدين الكركي المـذكور أنـه يكمـل فيـه في كل يـوم من المرضى الـداخلين إليـه ، والنـاقهين الخـارجين منـه ، أربعـة آلاف (كـذا) نفس ، وتارات يزيـدون وينقصون ، ولا يخرج منـه كل من يبرأ فيـه من مرضى ، حتى يعطى إحساناً إليه وإنعاماً عليـه : كسوة للبـاسـه ، ودراهم لنفقـاتـه . وأما ما يعالج به المرضى فيه من قناطير الأشربة المقطّرة ، والأكحال الرفيعة الطيبـة التي تسحـق فيهـا دنـانير الـذهب والإبريـز ، وفصـوص اليـاقـوت النفيس ، وأنواع اللؤلؤ الثمين ، فشيء يهـول السمـع ، ويعمّ ذلـك الجمـع ، إلى ما يضاف إلى ذلك كلّـه من لحوم الطيور والأغنـام على اختلافهـا ، وتبـاين أصنافها ، مع ما يحتاج إليه كل واحد ممن يوافيه ، ويحلّ فيه بفراشه وعرشه

من غطاء ووطاء وشموع ومذرور ، وشبه ذلك ، مما هو معدّ على أكمله هنالك ، وما ليس مثله إلاّ في منزل أمير أو خليفة ، وقد رتّب على ذلك كله من الأطباء الماهرين ، والشهود المبرِّزين ، والنظّار العارفين ، والخدام المتصرِّفين ، كل ما هو في معالجته ، موثوق بعدالته . . . وفي مصر مارستان آخر على مثاله . . . » .

مظاهر الحضارة المادية الجميلة والغنية :

حسبنا هذا الوصف عن الحضارة المادية ، يقدمه لنا **هلال بن الحسن الصابي** في تاريخ بغداد (المجلد / ١ ، ص / ١٠٠) قال : « ولقد ورد رسول لصاحب الروم في أيام المقتدر ، ففرشت الدار بالفروش الجميلة ، وزينت بالآلات الجليلة ، ورتّب الحجاب وخلفاؤهم والحواشي على طبقاتهم . على أبوابها ودهاليزها وممراتها ومُخْتَرَقاتها وصحونها ومجالسها ، ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة ، وتحتهم الدوابّ بمراكب الذهب والفضة . . . وفي دجلة الشذاآت (كذا) والطيّارات والزبازب والدلالات والسُّميريات[1] ، بأفضل زينة وأحسن ترتيب وتعبئة » . .

وعن ابن المسلمة (في الكتاب نفسه ص ١٠١) « وكان عدد الجيش مائة وستين ألف فارس وراجل . . . ثم رُسِمَ أن يُطاف به (بالرسول) في الدار ، وليس فيها من العسكر أحد البتّة ، وإنما فيها الخدم والحجاب والغلمان السودان ، وكان عدد الخدم سبعة آلاف بيض ، وثلاثة آلاف سود ؛ وعدد الحجّاب سبعمائة حاجب ، وعدد الغلمان السودان غير الخدم أربعة آلاف غلام . . . »

---

(١) يفهم من النص أن هذه الشذاءات والطيارات . . . مراكب متنوعة في دجلة ـ المنقح .

وفي المصدر نفسه عن القاضي أبي الحسين ابن أم شيبان ص ١٠٢ « كان عدد ما علّق في قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبة بالطرز المذهبة الجليلة ، المصورة بالجامات والفيلة والخيل والسباع والطُّرَد[١] والستور الكبار . . . ثمانية وثلاثين ألف ستر . . . وعدد البسط والنخاخ[٢] الجهرميَّة[٣] ، والدارابجرديّة والدَّوْرقيّة في الممرات والصحون التي وطئ عليها القوّاد ورُسُل صاحب الروم ، من حدّ باب العامّة الجديد إلى حضرة المقتدر بالله ، سوى ما في المقاصير والمجالس من الأنماط الطبري . . اثنان وعشرون ألف قطعة . . . ثم أدخلوا من هذه الدار إلى الممرّات والدهاليز المتصلة بحَيْر[٤] الوحش ، وكان في هذه الدار من أصناف الوحش التي أخرجت إليها من الحَيْر ، قطعان تقرب من الناس ، وتتشمّمهم وتأكل من أيديهم . . . ثم أُخرجوا إلى دار فيها مائة سبع ، خمسون يمنة وخمسون يَسْرة ، كل سبع منها في يد سبّاع ، وفي رؤسها (كذا) وأعناقها السلاسل والحديد . . ثم أُخرجوا من هذه الدار وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة مدورة ، فيها ماء صاف ، وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها شاخات كثيرة ، عليها الطيور والعصافير من كل نوع ، مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضّة ، وبعضها مذهب . وهي تتمايل في أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرّك الريح ورق الشجرة ، وكل من هذه الطيور يصفُر ويَهْدِر ، وفي جانب الدار يَمْنَةَ البركة ، تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر (كذا) فرساً ، قد ألبسوا الديباج وغيره ، وفي

(١) الطرد : وهي طرائد الصيد كالغزلان والأرانب . . . . ـ المنقح .

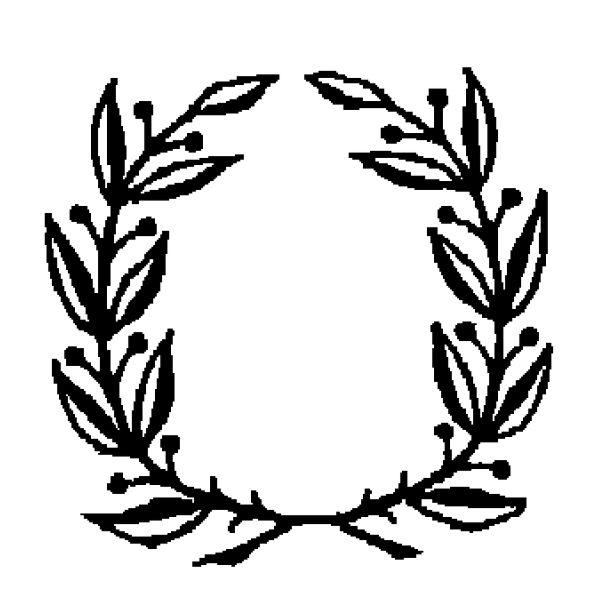
(٢) النخاخ : جمع نخ وهو البساط الطويل ـ المنقح .

(٣) نسبة إلى مكان صنعها ـ المنقح .

(٤) حير : الحدائق والبساتين ـ المنقح .

أيـديهم مطـارد على رمـاح ، يـدورون على خـط واحـد من النـاورد خببـاً وتقريباً ، فيُظَنَّ أنّ كل واحد إلى صاحبه قاصد » .

في هذا الخبر خلاصة يمكن أن تعطي فكرة عن مظـاهر تلـك الحضـارة الزاهية التي عـاشهـا أجـدادنـا[1] في قـديم العهـد ، ويظهر أنهم لم يفتهم إلا وسائل المدنيّة المخترعة حديثاً من بخار وكهرباء وذرّة .



(١) من المفهوم أننا لا نفخر بالإسراف الظاهر في مثل هذه الأخبار ، ولكن الغايـة من ذكرهـا أن نـدل بذلك فقط على مستوى الحضارة . ومن المؤسف حقاً أن يغتر الخليفة بمثل هذا السرف ، في الوقت الـذي كان يعجز فيه عن دفع رواتب الجنود ـ المنقح .

الفهارس

أولاً : أسماء الأشخاص

الباء

التاء

الجيم

الحاء

الخاء

الدال

الراء

الزاي

السين

الشين

الصاد

الطاء

الظاء

العين

الفاء

القاف

الكاف

اللام

الميم

النون

الهاء

الواو

الياء

ثانياً : أسماء المواضع

الفاء

القاف

الكاف

اللام

الميم

النون

الهاء

الواو

الياء

ثالثاً : المصطلحات

التّاء

الجيم

الحاء

الخاء

الدال

الراء

الزاي

السين

الشين

الصاد

الضاد

الطاء

العين

الغين

الفاء

القاف

الكاف

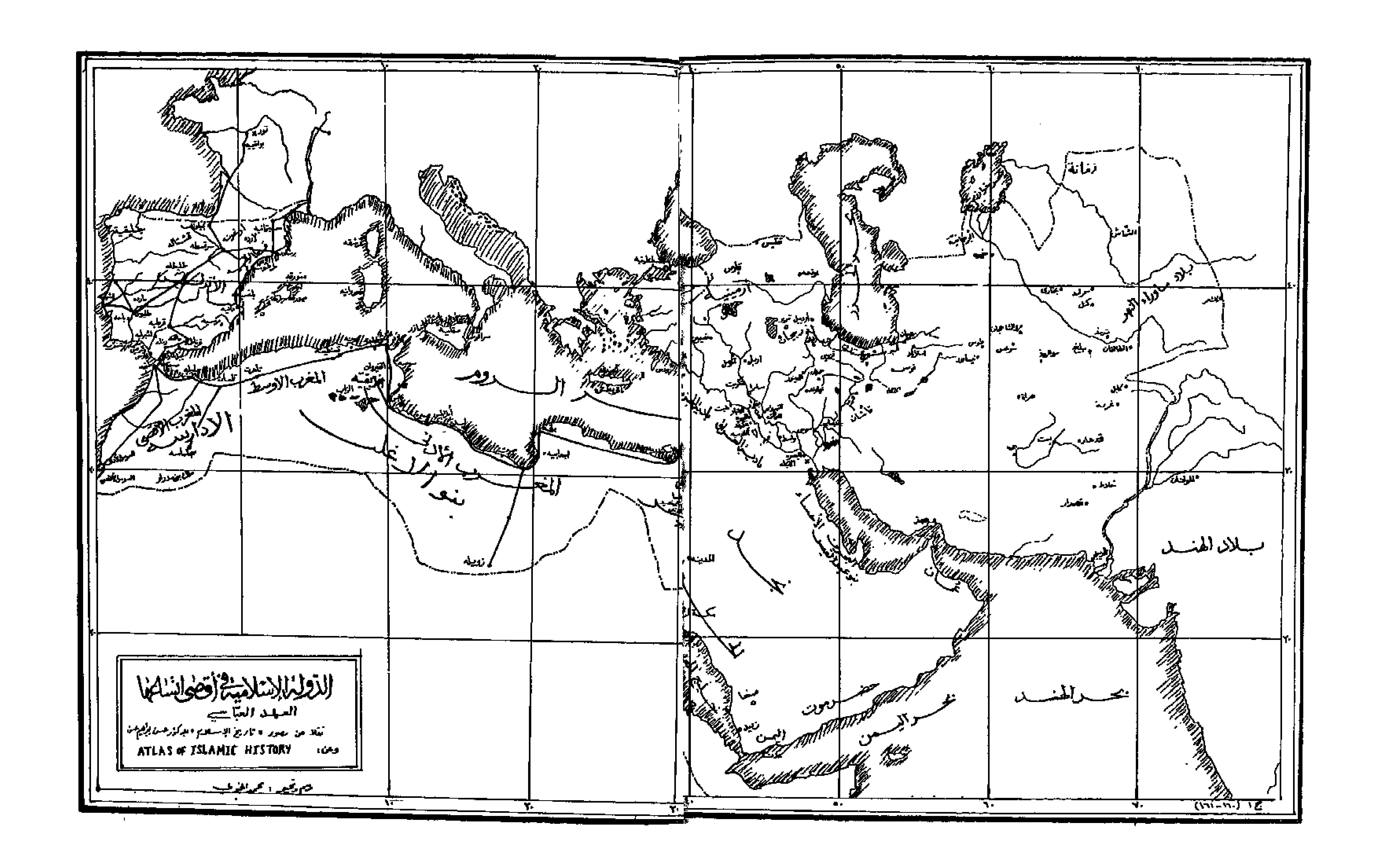
الميم

النون

الهاء

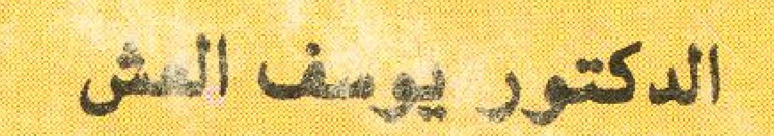
الواو

الياء



الدولة الإسلامية في أقصى اتساعها
العهد العباسي
نقلا عن مصور « تاريخ الإسلام » للدكتور حسن إبراهيم حسن
وعن: ATLAS OF ISLAMIC HISTORY
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
الروم
بلاد ما وراء النهر
فرغانة
بلاد الهند
بحر الهند
بحر اليمن
حضرموت

رابعاً : فهرس الموضوعات



(١٣٢٩ - ١٣٨٧ هـ = ١٩١١ - ١٩٦٧ م)

أول من تخصص في تنسيق الكتب والوثائق في سورية . ولد في طرابلس الشام ودرّس في معهد الوثائق والشروط بباريز . وعين محافظا لدار الكتب الظاهرية بدمشق فمكث ما يقرب من عشر سنوات نسّق فيها كتبها المطبوعة والمخطوطة ووضع فهرساً في مجلد للمخطوطات التاريخية التي تحويها الدار المذكورة . وانتُدب لجامعة العربية بالقاهرة ، فأنشئ في أيامه « معهد المخطوطات » وتولى إدارته وقام برحلة من أجله صوّر بها كثيراً من المخطوطات . وعاد إلى سورية فعين أميناً لجامعة دمشق (سنة ١٩٥٠ - ٥١) فمديراً للإذاعة السورية (١٩٥١ - ٥٤م) فأستاذاً بكلية الشريعة للتاريخ واللغة الفرنسية (١٩٥٥) فعميداً لها . وتوفي بدمشق . خلّف مؤلفات مخطوطة ومطبوعة ، منها « المكتبات العامة ونصف العامة في العراق وسورية ومصر في القرون الوسطى - ط » بالفرنسية ، قدمه لجامعة السوربون بباريس ونال به درجة دكتوراه الدولة ، و « فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية : التاريخ وملحقاته - ط » و « قصة عبقري - ط » رسالة في سيرة الخليل بن أحمد الفراهيدي ، و « الخطيب البغدادي ، مؤرخ بغداد ومحدثها - ط » و « الدولة العربية ، سقوطها - ط » ترجمه عن فلهاوزن .

(الأعلام للزركلي)

الموزعون
دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان - بيروت - ساقية الجنزير - خلف الكارلتون
ص.ب ١٣٦٠٦٤ هاتف ٨٦٠٧٣٩ تلكس FIKR 44316 LE